محمد أبو رَاس الجزائري

فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته

"حياة أبي رَاس الذاتيّة والعلميّة"

حققه وضبطه وعلق عليه
محمّد بن عبد الكريم الجزائري

المؤسسة الوطنية للكتاب
3 ، شارع زيروت يوسف

تصدير

عاش أبوراس (محمد ابن أحمد الناصر) حياة متقلبة ، ولكنها حياة غنية بالتجارب[1] فقد تنقل في انحاء القطر الجزائري من غربه الى شرقه وتجول في المغرب الاقصى وتونس ومصر والحجاز وبلاد الشام كما كرر الحج بفارق زمني بلغ عشرين سنة . وتحدث الى بعض الحكام (الجزائر وتونس والمغرب على الخصوص) ولكنه لم يخالطهم ومدح بعضهم مديح الطالب للنوال والمعترف بالجميل وأرخ لهم متصورا ان النظام بدونهم ينفرط ، شانه في ذلك شان مؤرخي العصر وشعرائه .

على ان ما يميز حياة ابي راس هو الفقر الدنيوي والغنى . لقد ذاق مرارة الجوع والم اليتم ، ومارس الشحاذة ومشى بين الناس اكثر من عشر سنوات حافي القدمين عاري البدن وغسل ثياب غيره وفلا لهما القمل وسكن في خيمة شعب ، فذاق شظف العيش والجفاف العقلي ، ثم سكن بعض الحواضر ، مثل معسكر فشق طريقه وسط مؤامرات علماء ضعاف النفوس يتقاتلون على الفتات وصادف عهد الباي محمد الكبير الذي انتعشت فيه الحياة العلمية قليلا كما حماه وقربه الشيخ عبد القادر المشرفي الذي اكتشف فيه تلميذا ذكيا له حافظة نادرة وتعطش للعلم .

وقد أكثر أبو راس من التآليف كثرة لا يضاهيه فيها من الجزائريين أحد حسب علمنا باستثناء احمد البوني الذي تجاوزت تآليفه المئة . وغلب على أبي راس في تآليفه جميعا طابع العصر (اواخر العهد العثماني) فشرح المتون وحشّى الشروح ، بل جعل للمتن الواحد عدة شروح واعتمد على حفظه فاكثر في تآليفه من التكرار والاستطراد وذكر الغرائب والعجائب واللطائف تمشيا مع بضاعة العصر من جهة وترويحا عن النفس من جهة اخرى . ولم يركز ابو راس جهده الفكري على تخصص معين بل تناول كل التخصصات تقريبا ، فألف كما يشهد كتابه الذي نقدمه للقراء في التفسير والحديث

والفقه والقراءات والادب واللغة والعقائد والتاريخ ونحوها . فلا غرابة ان يكون ابو راس مؤلفا موسوعيا .

ومن العجب ان مؤلفات ابي راس على كثرتها ما تزال غير مطبوعة بالعربية ، رغم ان الأجانب قد ترجموا بعضها ونشروه . فقد ترجم السيد ارنو كتاب ابي راس (عجائب الأسفار) الى الفرنسية ونشره فصولا في (المجلة الافريقية) ثم نشره على حدة سنة 1885 بالجزائر وترجم له الجنرال فور بيقي كتابه «الحلل السندسية» ونشره بالجزائر سنة 1903 وقام نفس المترجم بعرض مطول للكتاب الذي بين ايدينا ، وهو «فتح الاله» ونشر ذلك في «المجلة الاسيوية» سنة 1899 . ان عناية الاجانب بآثار ابي راس وعزوف الجزائريين عنها ما هو في الواقع الا جزءا من المرض الذي نعاني منه ، في ثقافتنا ، وهو بصراحة ضعف حركة التأليف وتسجيل الاثار وقد حاولنا من جانبنا ان نسد هذا النقص فدرسنا اثار ابي راس الموجودة في كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) غير ان عدم نشر هذه الاثار كاملة يظل هو موقع التعجب .

ومن حسن الحظ ان الدكتور محمد بن عبد الكريم قد اقدم على تحقيق احد مؤلفات ابي راس ، وهو (فتح الاله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته) والدكتور ابن عبد الكريم ليس غريبا عن التحقيق ولا عن الثقافة الوطنية ، فهو بثقافته الواسعة وتجاربه في ميدان تحقيق المخطوطات خير مؤهل للقيام بنشر هذه الآثار العلمية . فقد سبق لابن عبد الكريم ان نشر حوالي عشرة كتب قديمة خلال العشر سنوات الماضية . وتوسع في معرفة ثقافة العهد العثماني بالخصوص اثناء نشره لآثار محمد بن ميمون واحمد المقري وعبد القادر المشرفي (شيخ ابي راس) ونحوهم . وها هو يضيف الى ذلك (فتح الاله) لابي راس ولعل ابن عبد الكريم قد تأخر في نشر هذا الاثر لان ابا راس في الواقع من اهم مؤلفي العهد العثماني ـــ واذا عرفت جميع اثار ابي راس ودرست دراسة علمية فقد تظاهي او تفوق اثار احمد المقري اهميته

لقد قلد ابو راس في (فتح الاله) قدوته عبد الرحمن السيوطي الذي كتبه هو ايضا تأليف يحمل عنوانا شبيها بالعنوان السابق وهو (نزول الرحمة في التحدث بالنعمة) ولكن ابا راس لم يقتدي بالسيوطي في كثرة التأليف والحديث عنها فقط ، بل انه اقتدى به في كونه عاش فقيرا مثله ، وفي ابتعاده عن الامراء او عن اصحاب السلطة كما نقول اليوم . ولعل عدم التقيد بموضوع واحد والموقف من أهل التصرف يجعل ايضا من المهم المقارنة بين الرجلين فأبوراس موسوعي كما ان السيوطي كذلك ، وكان ابو راس يخلط بين حرفة الفقيه وحرفة المتصوف كما كان السيوطي فقد الف ابو راس في ارهاط الجن وقبائلهم

وأنسابهم ، وتحدث عن كرامات الاولياء ومن كان منهم يقرىء الجن ويرى المنا... العجاب ، رغم انه كان من اهل الفقه (اهل الدنيا) منتصبا للتدريس ومفتيا في المذاهب الاربعة ومتصلا بأهل الجاه . ولعل ما يلفت النظر هو انتصار ابي راس لاهل السلطة ضد اهل التصوف عندما قامت الطريقة الدرقاوية بثورتها المعلومة ضد بايات الغرب الجزائري [2].

ومهما كان الامر فان (فتح الاله) كتاب يقدم لنا حياة ابي راس نفسه . فهو نوع من السيرة الذاتية ، تحدث فيه المؤلف عن اهله وبيئته وشيوخه وعلومه واسفاره ومن لقيهم من علماء المغرب والمشرق ، وما سئل عنه من المسائل العلمية واجاباته على ذلك ، واخيرا يذكر مؤلفاته في فرع من فروع المعرفة الشائعة في وقته .وما دام ابو راس قد الفه بعد سنة 1233 (وقد توفي هو سنة 1238 او 1233)فاننا نحكم انه قد كتبه في أخريات ايامه ــ اي بعد ان عاش حوالي ثمانين سنة (ولد حوالي 1165 وهذه السن المتقدمة قد تعطينا المفتاح للسبب الذي جعل المؤلف يثرثر بعض الشيء كما انها تدلنا على ان الكتاب من اواخر ما ألف ابو راس . ولكن الكتاب يكشف عن امور اخرى ايضا . فهو يحتوي على معلومات هامة عن علماء العصر والعلاقات السياسية بين بعض الدول العربية والمستوى العلمي السائد آنئذٍ ، وبعض أخبار المذاهب الدينية .

ان دور المحقق الكبير في هذا الكتاب . فقد اعتمد على ثلاث نسخ من «فتح الاله» وقارن بينها واكمل بعضها ببعض وحشى على كثير من الاعلام الواردة في المتن . وهي كثيرة وشرح العديد من الالفاظ والمعاني ، ونتوقع ان يضع للكتاب فهارس ــ كما عودنا في الكتب الاخرى التي حققها . وبذلك أسدى الدكتور ابن عبد الكريم خدمة جليلة للثقافة الدينية العربية الاسلامية بنشره لهذا المخطوط ، كما انصف اباراس بتقديم حياته بقلمه الى قراء العربية عموما والجزائريين على الخصوص . ولعل احدهم يقتدي بابن عبد الكريم فينشر (عجائب الاسفار) و (الحلل السندسية) وغيرهما من اثار ابي راس التي ما تزال والحمد لله موجودة وكذلك (الحلل الحريرية) الذي هو شرحه على مقامات الحريري ، وشرحه على قصيدة الصيد للفحيح ، وشرحه على عقيقة الشلامي الخ ....

ان (فتح الاله) كتاب موجه الى الباحثين والمختصين في دراسة التراث العربي الاسلامي فالقاريء العادي سيجد صعوبة لا محالة في متابعة اخباره وحوادثه . ولكن هذا لا يعفينا من تبعة نشر ذلك التراث [3] فالباحث وراء خدمة الثقافة لا يكون دائما من اجل الجيوب والبطون ، ولكن يجب ان يكون احيانا على الاقل ، من اجل انصاف المثقفين الاموات وبعث النخوة والاعتزاز في المثقفين الاحياء .

الجزائر : 1982/05/29 — ابو القاسم سعد الله

(هوامش)

(1) تناولنا حياة واعمال ابي راس في كتابنا «تاريخ الجزائر الثقافي» وكتابنا «ابحاث وأراء في تار الجزائر» فليعد اليهما من يريد التوسع .

(2) ذكر أنه قاطع الشيخ محمد بن ابي طالب في مازونه لما « يدعيه من اشارات غيب وعاب على سيد الشيخ «وهو عبد القادر السماحي صاحب الطريقة الشيخية ، مكاشفاته وتآليف الناسب له رغ أن السماحي لم يكن معاصراً لأبي راس .

(3) نشرنا لأبي راس أيضا رأيه في الحملة الفرنسية على مصر والشام وهو نص استخرجناه من كتاب (الحلل السندسية) ونشرناه في المجلة التاريخية المغربية (تونس) عدد 21 22 غبريل 1981 .

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه

الحمد لله الذي خلق الانسان واعماله ، وراقب بمشيئته نواياه وأفعاله . والصلاة والسلام على من قال :« اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ » (1). وعلى آله واصحابه الذين اقتدوا به في السرّاء والضرّاء وامتثلوا له ، ورضي الله عن العلماء العاملين المقتدين . الذين قد ساروا في الناس سيرة الجادّين المهتدين .

وبعد : فان كتاب« فتح الاله ومنته ... » ليعد في مقدمة كتب السير المرضية والتراجم الشخصية التي تمتاز بالصراحة والتدقيق ، زيادة على ما يحتوي هذا الكتاب من العلوم المفيدة والشجاعة الادبية الفريدة ، وذلك ما دفع بنا إلى القيام بتحقيق نصوصه . وضبط العويص والمبهم من ألفاظه ، والتعليق على ما يستوجب الشرح والتنبيه . ولولا هذا الكتاب لما عرفنا من حياة صاحبه العلمية والأدبية إلا النّزر القليل . ولولا هذا الكتاب — أيضا — لما اطّلعنا على حياة الطلبة وعاداتهم بالمغرب الأوسط . ولولاه كذلك — لما اطّلعنا على المناظرات العلمية وبالأخص الفقهية التي كانت تدور بين المؤلف وبين علماء المشرق والمغرّب . وكان بودنا أن نتناول هذا الكتاب بدراسة تحليلية ، بيد أن الوقت الثمين لم يسمح بذلك فكان الاقتصار على ما قمنا به أنسب وأفيد ، ولاسيما بالنسبة إلى من يريد دراسة نصوصه بعدنا « وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » ، وَلكل عمل جزاء .

وصاحب الكتاب : هو الحافظ أبو راس محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر بن علي بن عبد العظيم بن معروف بن الجليل ، الراشدي نسبة المعسكري بلدة الجزائري قطرا ، المولود سنة 1150هـ — 1737 م والمتوفي سنة

1238 هـ ــ 1823 م ، وصلى على جنازته السيد أحمد الدايجي ، ودفن بـ « عقبة بابا علي » بضواحي معسكر ، فنسب إليها منذ ذلك الحين .

وقد اعتمدنا في تحقيق هذا الكتاب على ثلاث مخطوطات واضحة الخط سالمة من الأخطاء .

أولاها : مخطوطة المرحوم المحدث الشيخ عبد الحي الكتاني المغربيّ . وتوجد هذه المخطوطة بـ « الخزانة العامة » بالرباط . وقد جعلناها في المرتبة الأولى ، لأنها أقدم تاريخا وأزيد نصا . وقد رمزنا إليها بحرف (أ) . ثانيتها : مخطوطة الفقيه المؤرخ الشيخ عبد الرحمن الجيلالي الجزائري . وقد جعلناها في المرتبة الثانية ، ورمزنا إليها بحرف (ب) . ثالثتها : مخطوطة الشاعر الأديب الشيخ أحمد جلول البدوي الجزائري . وقد جعلناها في المرتبة الثالثة ، ورمزنا إليها بحرف(ج).

فجازى الله الجميع خيرا ، وأجزل لهم أجرا .

المحقق : محمد بن عبد الكريم

(هوامش)

(1) رواه الطبراني عن عبد الله بن عباس وعن عمران بن حصين .

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا [1]محمد وآله وصحبه (وسلم) [2]

الحمد لله الذي «خلق الانسان من نطفة امشاج» ، وانشأه من تركيب م ومزاج [3]، وجعله ذا افتقار واحتياج ، الى تدبير وعلاج ، في ضوء نهار وليل داج .

والصلاة والسلام على نبيه محمد الصادق بآياته : المعجز ببيناته ، المصطفى خـ الأمانة العظمى ، وحباه الرفيع والمحل الاسمى . «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ» والرضى عن آله واصحابه نجوم الدين وهداته ، وانصار الحق وحماته ، ومهدوا الآفاق من ـ جهاته ، (حتى اظهروا دين الحق وقبروا عُداته) [5] .

أما بعد ــ فيقول العاثر القاصر ، محمد ابو راس بن الناصر ــ أتحفه الله ـ الجمال ، وألحفه مطارف التكريم والاجلال [6]ــ : انّ العلم من افضل نفائس الأعلا وارفع الاشياء على الاطلاق ، فكان احق ما رُمق بالأحداق ، وصُرِفت له همم الحذّاق ، و له ذوات الاطواق ، لنجائه في الأولى من مهاوي الشقاق ، واللجاء اليه في الأخرى « يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ » [7]. وإنّي قد عزمت على تأليف / عظيم الجَدْوَى ، بليغ الفحوى يحتوي على ابواب وأسئلة فتوى :

الباب الأول : في ابتداء امري . **الباب الثاني** : في (عدة) [8]أشياخي . الب **الثالث** : في رحلتي للمشرق وغيره . **الباب الرابع** : في (معارضة العلماء) وأجوبة (عن أشياء مختلفة) [10]. **الباب الخامس** : في تأليفي في كلّ فنّ . وسميته : «فتح ا ومنّته ، في التحدث بفضل ربّي ونعمته» .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم كثيراً دائماً إلى يوم الدين . و أعتضد فيما أعتمد . وأعتصم مما يصمّ ، وأسترشد إلى ما يرشد . فما الفزع

إليه ، ولا الاستعانة إلّا به ، ولا التوفيق إلّا منه ، ولا المؤيّد إلّا هو : القريب المجيب : « عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » [11].

أمّا ابتداء أمري : فسلفي فيه [12] شيخ الاسلام زكرياء الأنصاريّ [13]. لما أتى من بلاده إلى مصر غريبا فقيرا ، لا يأكل إلا ما يطرح في القمامات وعلى الأبواب ، من قشور البطيخ ونحوه ، حسبما ذكره الشيخ عبد الوهاب الشعراني في « الطبقات » .

وأما ما نذكره من نسبي ــ إن شاء الله! ــ **فسلفي فيه** [14] الامام (عبد الرحمن) السيوطي في « **حسن المحاضرة ، في أخبار مصر والقاهرة** » ــ وكنّى نفسه فيه : أبا [15] الفضل ، واسمه عبد الرحمن . ولقبه جلال الدين ــ فذكر (فيه) [16] نحو التسعة آباء . ثم قال : « وانما ذكرت ترجمتي في هذا الكتاب اقتداءا بالمحدثين . وممّن وقع له ذلك الامام عبد [17] الغافر [18] وياقوت الحموي [19] في « **معجم الادباء** » ، ولسان الدين ابن الخطيب في « **تاريخ غرناطة** » [20] ، والحافظ تقي الدين الفاسي [21] في « **تاريخ مكة** » [22] ، والحافظ أبو الفضل المشهور ب « ابن حجر » (العسقلاني) في « **قضاة مصر** » [23] ، وأبو شامة [24] في « **الروضتين** » [25] . وهو اروعهم وأزهدهم . « ثم قال » [26] : « أما جدّي الأعلى همام الدين فكان من أهل الحقيقة ومن مشايخ الطريق ومن دونه كانوا من اهل الوجاهة والرياسة ، ومنهم من كان تاجرا مموّلا ولا أعرف من خدم منهم العلم حق الخدمة ، الّا والدي . ونشأت يتيما ، وحفظت القرآن ولي دون [27] ثماني سنين » . قال : « وقد [28] ولدت بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب الفرد ، وذلك [29] سنة تسع وأربعين وثمانمائة » . [30] ثم ذكر حجّه ومؤلفاته الى آخر كلامه . ثم قال : « ورزقت التبحّر في العلم » . ثم بالغ في التحدّث بنعم الله في تأليف ، سماه : « **نزول الرحمة في التحدّث بالنعمة الشاملة** » . وهو وغيره في ذلك سلفي أيضا . فقال : « والذي أعتقده أن الذي وصلت اليه في التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والبيان ، والأصول ، لم يصل إليه أحد من أشياخي ، فضلا عمّن دونهم » ، لاسيما وقد عدّ نفسه من طبقة المجتهدين . ولما ذكر بعض المجددين قال : « وأنا أرجو الله أن أكون المجدّد على رأس المائة التاسعة » [31].

وسلفي في التحدّث بنعم الله ــ أيضًا ــ مؤلف « **جمع الجوامع** » في الاصول . وهو تاج الدين (عبد الوهاب) ابن الشيخ تقي الدين السبكي « قال السيوطي » : وألف ــ وهو في حدود العشرين ــ وكتب ورقة الى نائب الشام ، يقول فيها : وأنا ــ اليوم ــ مجتهد الدنيا على الاطلاق ولايقدر أحد أن يردّ عليّ هذه الكلمة . « قال السيوطي ــ أيضا ــ : وهو مقبول فيما قال عن نفسه : « ومن ذلك ــ أيضا ــ أن الشيخ (محمد) ابن دقيق العيد / قال : انّ الشيخ عبد العظيم المنذريّ كان أدين منّي ، وأنا أعلم منه » .

وفي «الخفاجي»[32]: «يحسن من الانسان الثناء على نفسه وذكر فضائله مواضع ، استثنوها من هضم النفس . «وعن عليّ — رضي الله عنه! — : «اذا أصبت خيرا فحدّث به إخوانك» . وللشكر طرق : كاظهار الملابس . وفي ذلك — أيضا — أ السيوطي قال في كتابه «**حسن المحاضرة**» ما نصّه : نقلت من خط شيخنا الامام تق الدين (أحمد) الشُّمُنّي ، قال : نقلت من خط الشيخ كمال الدين (محمد) الدميري ، قال نقلت من خط جمال الدين (عبد الله) ابن هشام (النحوي) ، قال : من أغرب ما رأيت على كراريس من «تسهيل الفوائد» بخط الشيخ جمال الدين (محمد) ابن مالك ، في أواخر صورة قطعة رفعها الفقير محمد بن مالك يقبّل الأرض وينهي الى السلطان أنه أعرف أهل زما بعلوم القرآن ، والنحو ، واللغة ، وفنون الآداب ، وعلم الأصول والبيان[33] وأمله أن يعينه بر من سيد السلاطين ومبيد الشياطين خلّد الله ملكه ، وجعل المغارب والمشارق سلكه ، ع ما هو بصدده من افادة المستفيدين وارشاد المسترشدين بصدقة تكفيه همّ عياله وتغنيه ع السيف في اصلاح حاله . فقد كان له في الدولة الناصرية عناية تتيسّر بها الكفاية ، مع أ الدولة الناصرية من الدولة الظاهرية كجدول من البحر المحيط ، والخلاصة من الوسيط والبسيط . وقد نفع بهذه الدولة عموما ، وكشف بها عن الناس هموما ، (ولَمَّ بها من شعث الدين ما لم يكن ملموما ، ومن العجائب كوني منها محروما)[34] ، مع أنه من المخلصين للدع بدوامها ، وأقوى العالمين بذمامها ، لا برحت أنوارها زاهرة ، وسيوف أنصارها قاهرة وأياديها مبذولة (وافرة)[35] موفورة ، وأعاديها مخذولة مقهورة» .

قلت[36]: وكذلك الشيخ احمد بابا في «**كفاية المحتاج ، لمعرفة من**[37] **ليس** ؛ **الديباج**» . وأطال في ذلك ، فمن جملة ذلك قوله فيه : «واشتهرت بين الطلبة بالمهارة ، و البلدان من سوس الأقصى الى غير نهاية» .هـ

قلت : فهؤلاء من اعيان الامة ومن ساداتها الأيمّة تراهم تحدّثوا بنعم الله وما أولاه له الآلاء . ومعاذ الله أن يكونوا زكّوا بذلك أنفسهم أو قصدوا مدحها تعظيما لها ولهم ، بل يخطر ذلك ببالهم . وهم ممن كفّر الله عنهم سيئاتهم ، وأصلح بالهم ، ولا يرون لأعماله فرية[38] ، ولا لأنفسهم نباهة سِرْيَة[39] . زكّى الله سرّهم ، وطهّر سريرتهم ، على أن قو — تعالى! — : «فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ» ، وقوله — تعالى — : «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّو أَنْفُسَهُمْ»[40] هم أعلم بمحصله/ ومفصّله ومجمله . وظاهر ما للغزالي في «**الأحياء**» — : إ كان ذلك ليس فيه كذب ، بدليل استدلاله بقوله — تعالى ! — : «انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُو على الله الكذب . » . وقد قال شهاب الدين احمد الخفاجي — عند قول القاضي عياض في «**الشفا**» : «قال ابو الفضل عياض» — ما نصّه : «إمّا أنه من وضع الطلبة أو م

وضعه ، لوثوقه بنفسه . ومثله للعلماء كثير » . وقال يوسف ـــ عليه السلام!ـــ : « إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ »[41] . وقال عليّ بن أبي طالب ـــ ر ضي الله عنه ! ـــ[42] : « أنا مفرّق الكتائب ، أنا ليث بني طالب » .

قلت : ومن تحرّز العلماء من آفات النفس ودعواتها كثرة قولهم : « لا أدري » . فقد سئل مالك عن اثنتين وأربعين مسئلة فقال في ثلاثين منها[43] : « لا أدري » ، لكن قال (محمد) المحلّي : إنه بصدد الاجتهاد فيها . قال في « **الإحياء** » : وكان (عبد الله) ابن عمر ـــ رضي الله عنه !ـــ سئل عن عشر مسائل ، فيجيب عن واحدة ، ويسكت عن تسع . وكان (عبد الله) ابن عباس رضي الله عنه !ـــ يجيب عن تسع ، ويسكت عن واحدة . وكان (سفيان) الثوري وأضرابه قولهم : « لا أدري » أكثر من قولهم : « أدري » ، ولذا قال (عبد الله) ابن وهب : ولو شئت أن أملأ ألواحي من قول **مالك** « لا أدري » لفعلت . وقال الامام الغزالي في « **الإحياء** » « قال ﷺ : » ما أدري أعزير نبي أمْ لَا » ؟ وما أدري أتبع ملعون[44] أم لا ؟وما أدري أذو القرنين نبي أم لا ؟ . ولما سئل عن خير البقاع / وشرها ، قال : « لا أدري » إلى أن أعلمه الله بان خير البقاع المساجد ، وشرّها[45] الأسواق . وقال ﷺ ! : « لَا أَعْلَمُ إِلَّا مَاعَلَّمَنِي رَبِي . » . وقال أبو حفص النيسابوري : « العالم هو الذي يخاف عندالسؤال أن يقال له يوم القيامة : من أين أجبت ؟ « . وكان الفضلاء يتطارحون الفتوى . وكان (عبد الله) بن عمر يقول : « أتريدون أن تجعلونا[46] جسْراً تعبرون عليه لجهنم ؟ ! » . رضوان الله عليهم ، وأرضاهم عنا وعن ذريتنا ! يا رب العالمين[47] ! .

أعاذنا الله منها[48] والمسلمين ! آمين يا رب العالمين[49] !

وها أنا ـــ إن شاء الله[50] ! ـــ أقول :[51] .

ابتداء أمري ـــ بفضله (تعالى)[52] وكرمه ـــ : إني ولدت بين « **جبل كرسوط** » و« **خونت** »[53] ، كما أخبرتني الحرّة التقية الصالحة[54] الولية ، (أمة الله)[55] أختي : حليمة برد الله ضريحها ! وأسكنها من الجنّة فسيحها ! ثمّ شرّق بنا أبونا الى « **متيجة** »[56] ، فماتت امي بها ، وهي ـــ الصالحة الكاملة التقية العاملة ـــ أطول النساء يدا ، وأكملهن[57] هديا وهدى ، كانت من أجل نساء البدوية وكانت[58] يضرب بها المثل في السخاء والصلاح : كرابعة[59] العدوية ، نشأت في بيت علم ، وصلاح ، وبركة ، وصدق ، واصلاح / وهي امة الله : زولة بنت السيد الفرح ابن الشيخ القطب السيد اعمر بن عبد القادر التوجاني ، دفين « **جبل التوميات** » ـــ بَحْرَي أرض حسناء ـــ ومشهده وأولاده من أبرك المزارات[60] ، تلتمس عنده البركات ، جدير بقبول الدعوات ، بحق ربّ الأرض والسماوات . ومن الاتفاق

العجيب أنها غريبة دفنت عند الشيخ أحمد أغريب . وفي الحديث : «مَنْ مَاتَ بِأَرْضٍ غ... غَابَتْ عَنْهُ فِيهَا نَوَاحِيه بَكَتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ ، وَفَسَحَ اللَّهُ لَهُ إِلَى أَهْلِهِ» .

وبعد موتها ــ عفا الله عنها ! ــ انقلب الوالد الى حوز «**مجّاجة**» ، واعتكف ع... القرآن ، وتعليمه للرجال والصبيان [61] ، وتزوّج هناك عدّة نساء الى أن مات (ر... الله !) [62] وقبره بروضة الشيخ أحمد بن عبد الله بـ « **أم الدروع** » .

ولما ولدت بالموضع المار حملتني أمي ووالدي الى الشيخ الصالح ، الولي ــ الذي ... أن يكون كالجيلي ــ [63] شيخ بعض شيوخي : الشيخ ، عليّ بن موسى اللبوخي [64] ، أ... صلحاء أرض اليعقوبية ، فبارك عليّ وأخبر بغيب خوارق وعادات تكون لي مودّات : ... علم ، وعمل وصلاح ، وغنى ، وحفظ ، وإصلاح وشيخ طلبة ولفيف [65] ، ودرس... وخطابة ، وقضاء ، وتصنيف . فكان ــ كما قال في إشارته الغيبية ومقالاته [66] الص... الواكفة ــ كالهتون [67] الصيبة . قال تعالى : «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ، إ... مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ» [68] . قال العلماء : أو وليّ . قال أهل الطريقة [69] ، مثل العارف بالله ابن عبّاد [70] الذي فضله كالصباح باد . وذلك مثل السلطان اذا بعث الى وزيره ليطلعه على أمر ، فلابدّ ان يذهب مع الوزير بعض حشمه . فالسلطان هو الله ، والوزير رسو... ــ صلى الله عليه وسلم ! ــ ، وحشمه الأولياء .

ثمّ إني بقيت ــ بعد أمي ــ في بيت أبي أنا وأخي العارف الماهر (الحكيم الباهر) السيد عبد القادر ــ رحمه الله ! ــ فأتانا أخونا الاكبر الشجاع الماجد الابر السيد عمر ، (فأخذنا بعد موت أبينا) [72] وانقلب بنا الى المغرب [73] ، أما أخي فيمشي ، وأما فيحملني على عاتقه ، لصغري ، فكنا معه في الشرائع ، فقرأت القرآن في حال صغري ، قرأت أحكام القرآن ، وحفظتها [74] على ظهر قلبي . وان كانت رحلة حملني بعض الطلبة ع... أكتافه ، ومع ذلك أني أقرئهم ، وأسلك [75] لهم ألواحهم ، وأسأل لهم من البيوت يأكلون ، وان عجزت عن السؤال في البيوت بعض الأيام ضربوني . وقد استمررت ... سنين عريانا : لا لباس لي ، الا خرق كالعدم . وما لبست نعلا الى ان قرب صومي . ... قدرت على السعي صرت أطلب من البيوت ، ثم أبيع وأكسى [76] . ثم تلمّذت للشيخ منصو... الضرير تلميذ شيخ الشيوخ وآخر أهل الرسوخ أحد أطواد الأسانيد الثوابت : الشيخ ا... بن ثابت المتوفى سنة ثمان وخمسين ومائة وألف [77] بـ« **جبل ترارة** » ، لمّا أخرجه من ارض... آبائه قرغلية تلمسان [78] . فأتقنت على الشيخ منصور القرآن برواية « **قالون** » [79] . « **ورش** » [80] عن شيخهما نافع [81] . ومن تلامذة ورش أبو يعقوب الأزرق . قال أبو الفض...

الخزاعي : «أدركت أهل مصر على قراءته . «**قلت** : وهو الذي أشار اليه (محمد)ابن بري في نظمه «**الدرر اللوامع**»[82] بقوله[83] :

«وَقَدْ رَوَى الأَزْرَقُ عَنْهُ الْمَحْضَا فِيهَا بِهاطَـهَ كَذَاكَ أَرْضَاً ...»

أي : الامالة المحضة ، لا الخفيفة . وأما أهل إفريقية[84] فغالب قراءتهم «**قالون**»[85] . وأما أهل الأندلس فعلى قراءة أبي الأزهر عن «**ورش**» . وأبو الأزهر ـــ هذا ـــ هو عبد[86] الصمد ابن (عبد الرحمن)ابن القاسم ، رواية/مذهب مالك : وهو الذي حلف بالمشي إلى مكة ، فحنث ، فأفتاه أبوه ابن القاسم بقول الليث بن سعد . وقال له : فإن عدت أفتيتك بقول مالك[87] . ولما أتقنت القرآن بأحكامه ـــ مع الأنصاص التي للشيخ ابن ازقاق والشيخ الطاهر بن عمرون المغراوي وغيرهما ـــ انتقلت لقراءة الفقه ، فقرأت على فقهاء «**أم عسكر**» الآتي ذكرهم ـــ إن شاء الله !ـــ .ثم سافرت أول صومي لـ «مازونة» : مدينة مغراوة . بناها منديل بن عبد الرحمن منهم أول القرن السادس[88] ، فلقيت ـــ على صغري ـــ مشقة المشي[89] ، لكن ذلك شأن أهل السفر للعلم . قال تعالى : «فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفتاه : آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنَا هَذا نَصَباً»[90] . وقد مررت بطريقي بالشيخ : الكامل ، الصالح ، العامل ، الفاضل الحافل ، الذي هو [91] للأيتام كافل ، المنزه عن كل هنات[92] ، كثير القرى عظيم الجفنة : أبي عبد الله الشيخ محمد بن لبنة ، آنس الله غربته في ضريحه[93] ، وطيب ثراه وتربته بجاه محمد وآله ! ونفعنا وذرياتنا ببركته ، وأتحفنا ـــ ان شاء الله ! ـــ بدرر سمائه[94] ! فوجدته قائما على عملة يغرسون بستانا لله ـــ تعالى ! ـــ كما قال شيبان الراعي للامام الشافعي : «أنتم تقولون في أربعين شاة : شاة زكاة ، ونحن نقول : كلها زكاة لله مصفاة» ، فسألني عن وجهتي ـــ وهو في عباءة وبرنوص فقط[95] ، وهو زي كثير من الأولياء . ألا ترى الى بشر الحافي لا نعل له أبدا ، وابن أدهم سيد الأولياء في جبة فقط ؟ ـــ فقلت له[96] : ذاهب لـ «**مازونة**» . قال : لم ؟ قلت : لقراءة الفقه . فقال : والقرآن ؟ فقلت له : نعرفه بأحكامه وأنصاصه وما يتعلق به ، ولقد أنتفع / بي كثير من الطلبة في الأحكام ، ودرستها لهم ، فامتلأ ـــ رضي الله عنه ـــ سرورا وعجبا ، ولحظني محبة ورغبا . ولما رأيت إقباله علي وتوجهه بشراشر[97] قلبه إلي ، سألته الدعاء وتسهيل الرُّجعى ـــ «وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى»[98] ـــ فدعا لي بنية صادقة ، وقريحة بمودة آمقة ، بأن قال : جعلت لك «**مصنف خليل**»[99] وغيره[100] كالملقمة للفم . هذا لفظه وكأنه أشار إلى غيب رمقه لحظة ، فجاءت دعوته لي صادقة صدقاً ، ورسخت في فؤادي رسوخاً حقاً ، فصرت لما قال كأني نشطت من عقال ، فحفظت «المختصر»[101] حفظاً ، وفهمته معنى ولفظا ،

ففي عامي الأول قرأت للطلبة الفرائض ، وذلل لي تذليل الفرس الجموح للرائض . وفي ثاني عامي أقبل علي صاحبنا الولي الصالح ، النصوح الناصح ، الخاشي الخاشع ،السُّنّيّ ،الذي صار بعد ذلك [102] شيخنا مشارا إليه بالبنان ، ممدوحا بالقلب والقالب واللسان ،الذي صار عن أترابه وأقرانه بتمييزه مفروزا : أخونا [103] الشيخ محمد بن القندوز ، المستغانمي دارا الافريني نجارا ، منحه الله شآبيب الغفران ، وألحقه حلل الرضوان ! فقرأت له ــ مع الطلبة [104] ــ من أول (الجزء الثاني)الى المجنون ، مع «كتاب النكاح» . وفي العام الثالث ، صرت في المصنف لا يشق غباري ، ولا يجري سابق في مضماري . وإني ليلة جمعة نائم وكأني في سوق ، فلقيني رجل أزرق [105] في عباءة و «برنوص» وأحسب أن على رأسه «شاشية» [106] دوم ، وفي يديه قفة دوم ، فيها عنقودان متاع العنب [107] ، أحدها حلو ، والآخر حامض . فقلت له : أتبيع هذان ؟ فقال [108] : نعم ، فقلت : بكم ؟ فقال : بموزونة ، فقلت : هذا ناضج ، والآخر لم ينضج ، فقال : ما اسمك ؟ فقلت [109] : فلان ، فقال : جعلك الله للمصنف [110] : كالرحى للقمح ! ثم استيقظت ، فقلت : هذه الرؤيا ودعوة الشيخ ابن لبنة مختلفان لفظا ، متفقتان معنى ، كما قال معاوية ــ في وصية أمه : هند وأبيه : أبي سفيان ، لما ولي الشام ــ : «عجبت من اختلاف لفظهما واتفاق معناهما .»

وقد طار صيتي بمعرفتي المصنف وتحقيقه ،في المشارق والمغارب ،ووعدني كل طالب ، إلى الفقه راغب . ثم انصرفت من «**مازونة**» ، وقدمت إلى «**أم عسكر**» ، مامعي شيء من مال [111] ولا غيره ، سوى معرفة الفقه وحده فسمعت بالشيخ المشرفيّ [112] يدرس بـ «**عواجة**» ، فذهبت عنده ، فوجدته في «باب كراء الحمام» من الربع الرابع (من مختصر الشيخ خليل) ، فلم يجتهد أحد بالنظائر ونحوها غيري ، مع ما بي من اللحن ، فتعجب الشيخ من معرفتي ، ولم يعبني باللحن فان قال له الطلبة ، قال : هذه عادة طلبة «**مازونة**» . فلله درّه ! يقر كل أحد على ما هو عليه ، من غير نبذ ولا لمز إليه . وكنت يوما [113] أناظر أكابر طلبته ، فظهرت عليهم ، فتبسم وقال : لو ينقضي المصنف ما قرأه ولا عرفه أحد بعده [114] وأنه ملأ منه جرابه ، وأترع منه وطابه . ولما رأى مني سمة صغر السن كثر تسخيره لي . ومن جملة ذلك غسل ثيابه وثياب أهله وأولاده . و(كان)يوصيني إن أنا [115] صفيتهم بذهاب ماء الصابون أضرب الحواشي بعد جمعهم على الصفاح بماء ليذهب الطيّ والتكماش . فلله درّه ! ماأحسن معاشرته ! ولما ختمت [116] ذهبت الى بيت أخي بـ «**وادي اغرم**» في أولاد الشيخ الولي الصالح العالم الأمضى الأرطى ، الأرفع الأنفع ، الشيخ أبي علي بن أحمد بن عمر بن عبد القادر : جدّي من قبل أمي دفين «**القوميات**» كما مر ، فأتاني أولاد القطب صاحب «**الغوثية**» و «**العقد النفيس ، في ذكر الأعيان من أهل**

أغريس » [117] ، فقرأت لهم في عامي الأول والثاني ـــ ثم أني تقلدت قضاء تلك الجهة على يد شيخنا محمد بن مولاي علي قاضي « **أم عسكر** » . ثم خطبت امرأة من أولاد الشيخ الكامل الحافل الفاضل السيد [118] محمد بن يحي مقرىء الجن على الاطلاق [119] ، فجعل أبوها الأمر لأكبر ذرية الشيخ وحفدته سيد أهل « **غريس** » في وقته ، قطب رحاهم وشمس ضحاهم ، عالمهم وعاملهم وأكبر أهل مجادتهم وواسطة عقد قلادتهم : الشيخ محمد بن افريحة بن النجادي ، ملحق الرائح والغادي . رحمه الله ، وجعل الجنة مأواه فزوجنيها وعملت خيمة من الشعر [120] . كما قال [121] أبو العلاء المعري [122] :

« فَالْحُسْنُ يَظْهَرُ فِي شَيْئَيْنِ [123] رَوْنَقُهُ   بَيْت مِنَ الشِّعْرِ أَوْ بَيْت مِنَ الشَّعْرِ »

ثم رأيت أن آفات العلم البادية ، وتذكرت قول الامام مالك للشافعي ـــ رضي الله عنهما ! ـــ في وصيته لما ذهب من عنده : « لا تسكن الريف ، فيذهب علمك ، وتهتك حرمتك » [124] فانتقلت الى « **أم عسكر** » ، وشمرت ساق الجد [125] للتدريس ليلا ونهارا ، وداومت ذلك ستا وثلاثين سنة متصلة ، ما بطلت فيها يوما واحدا [126] ، إلا صبيحة يوم الاثنين ، لأمر مهم رباني [127] . وظهرت علي مخايل دعوة الأشياخ ، حتى إني أختم المصنف [128] في العام ثماني مرات ، أربع في الأول وأربع في الثاني ، وأسردهما معا أول الخريف ، حتى أجتمع عندي في بعض السنين سبعمائة وثمانون طالبا ، مع أن [129] شيخ الطريقة الامام الجنيد كان يتكلم على ثمان عشرة فدون ذلك [130] . وكان أيوب والمحاسبي وغيره [131] اذا زاد الطلاب على الثلاثة تركوا . وهم أولى بذلك منا ، مع أن الامام مالك كبرت حلقته حتى اتخذ المُسَمِّعين / . وكنت أجلس للدرس فأبتدىء من « باب الاعتكاف » ، ثم لا أقوم حتى أقف على « باب الزكاة » ، ولا يقف لي شيء ، ولا أشك ، مع كثرة « باب الحج » وطوله وصعوبته ، ومع كثرة الطلبة وقوة اعتراضهم ، حتى إني لا أصحب معي كتابا ، ولا يقرأ في مجلسي ، إلا إذا [132] قرىء خفية مني ، وزدت شرحي على التحقيق والتدقيق [133] ، وأوشحه بتتمات ، ولطائف مهمات ، وتنبيه وجيه ، وتكميل وتذييل [134] ، وترتيب عجيب ، حتى صارت حضرتي [135] في العلم تذكر في الآفاق وتنسيك دروس مصر والشام وتونس والعراق ، وأذكر في أثنائه حكايات ونوادر لتنشيط القلوب الفواتر . فكان شعبة [136] ـــ رضي الله عنه ! [137] على شدة ورعه وزهده ـــ يأتي بنوادر أثناء املائه الحديث ، فرأى يوما أبا زيد الأنصاري [138] ، فقال له : « هلم إلينا » فصارا يتناشدان الأشعار ويتذاكران المواعظ المبكية والضحكات الملهية [139] ، فقال له الطلبة : نحن ضربنا إليك أباط الابل لطلب الحديث ، فتعرض عنا إلى ما لا يعنينا ، فقال :

« والله ! إنّي لا أسلم في هذا مما طلبتم » . وربما لاجني بعض الطلبة في صورة ، ويروم كتابا ، فأقول : لا كتاب لي هنا ، فاذا قمتم فاطلبوه ليظهر الصواب معي أو معكم ، فوو ذلك غير مرة ، ولا يظهر الصواب الا معي . والكمال لله .

وكان الفقهاء السبعة [140] ليس لأحدهم كتاب ، لأن شأن العلم أن يحفظ . وكا (محمد)ابن الأنباري يملي على ما يحمل على أجمال ، ولا كتاب له ، وكذا الفراء كان يملي من حفظه ومطايا الطلبة على بابه عدتها سبعمائة ، فيهم ثمانون قاضيا وقد ذهب الشارمساحي [141] من مصر إلى بغداد للتجارة في الجواهر ، فقال له الفقهاء : كم تعرف من بيوع الآجال من صورة ، قال : ثمانين ألفا ، فكأنهم استبعدوا ذلك ، فامتحنوه بأن يقرئ لهم ،فأتوا إلى الجامع الأعظم ،فلما بلغ ثمانية آلاف انصرفوا عنه ،وتركوه وحده ، لتحققهم معرفته اياها ،قاله الشيخ زروق [142] في « **شرح الارشاد** » [143] . ثم ان البايات : أمراء بلادنا [144] لما علموا كثرة الطلبة وازدحامهم عندي كما قيل : «ان المورد العذب كثير الزحام» ـــ . عملوا لي كرسيا ، فاستعنت به على الدرس غاية الاستعانة . وأنا ـــ مع كل ذلك ـــ ألحن ، حتى قلت في درسي ـــ ما سولت لي نفسي ـــ : وجاز بيع [145] تمر ولو قدم بتمر وحليب ورطب الخ ـــ بالكسر ـــ فرد علي ذلك نحاة مجلسي ،وقالوا : لابد لك من اصلاح اللسان ، فقلت : كان الشَّلَوْبِينيّ ممن أحيا علم النحو بالأندلس وهو يلحن . وناهيك به أن ابن عصفور وابن مالك من جملة تلامذته ، وكذا ابن بري ، وكذا ابن شعبان [146] المتوفي سنة خمس وخمسين من القرن الرابع [147] .

وقد قال الشيخ : الهواري [148] : دفين « **وهران** » لعالمها : عبد الرحمن مقلاش [149] ـــ وقد أصلح له كتاب « **التنبيه والسهو** » : ما أصلحته كتاب مقلاش وأما كتاب الفقراء فيبقى على لحنه . ولذا قيل : «أعربنا في كلامنا حتى لا نلحن ، ولحنا في علمنا حتى لا نعرب» . ولما سمع مني الطلبة هذا ، بل أكثرهم قالوا : ان كان ذلك لا بد من النحو . فقلت : فلا يضر التقي لسان معجم ، فقالو : لابد (من ذلك)فاهتممت [150] بما قالوا ونمت ، فاذا البيت الذي أنا فيه مضيء ، فقلت : لعل مصباحا [151] خارجها ، :فأشرفت من طاق ، فلم أجد شيئا ،فرجعت [152] . وقلت لاشك أن الله يلهمني النحو بلا قراءة ـــ ان شاء الله ! .

ولما ذهبت من الغد للدرس وجلست على الكرسي قال لي طالب من الحلقة ـــ اسمه السيد عبد القادر بن سليمان ـــ : إني نمت البارحة فاذا بك تدرس الطلبة في «باب الفاعل» ، فقلت : واني ـــ ان شاء الله ! ـــ لفاعل ، فتعلقت بحفظي (**ألفية** ابن

مالك) ،وسردها لي بعض طلبتي ، ففتح الله علي فيها ، حتى جعلت على شرح الشيخ المكودي حاشيتين : صغرى وكبرى . ولما ظهرت لي علامات النّفع للطلبة تنافس الأشياخ في أخذي ، لتدريس أولادهم ، فأثرت شيخنا الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي ، فذهبت لـ «**قيطنة**» وقد [153] اجتمعت جموع من الطلبة ، فقرأت لهم (الجزء) الأول أربع مرات والثاني كذلك ، فتعجب الشيخ ! وبهت ! وقال لـ «لُبَابِيْ» : إنما اخترته على من هو أكبر منه من تلامذتي ، لأنه فيه النفع والقريحة . وصار الشيخ يعظمني ـ على صغري ـ وأعطاني القمح والشعير والدراهم والسمن والزيت [154] والكباش . فجزاه الله خيرا ! وحق فيه قول الاعرابي لمالك بن طوق [155] لما قصده ومدحه بقوله [156] :

تَعَوَّدْتَنِي بِالْجُودِ حَتَّى نَعَشْتَنِي ... وَقَدْ زِدْتَنِي حَتَّى حَسِبْتُكَ تَلْعَبُ [157]
فَأَنْتَ النَّدَى وَابْنُ النَّدَى وَأَخُو النَّدَى ... حَلِيفُ النَّدَى مَا لِلنَّدَى عَنْكَ مَذْهَبُ

ولما توفي ـ رحمه الله ! وأرضاه [158] ـ ضحوة يوم [159] الخميس العاشر من رمضان / سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف [160] ، ذهبت عند الشيخ الفاضل ، محط رجال الأفاضل . ومنبع الفواضل [161] السيد محمد بن عَبُّو بن عيني ، فدرست عنده سنة . ثم عند تلميذه الألمعي الفقيه اللوذعي مقصد الجهابذة الأعيان السيد عبد القادر بن عثمان . ثم شمرت للتدريس بـ «**أم عسكر**» . وفي آخر القرن (الثاني عشر)أكثرت من تدريس «**الألفية**» بشرح «**البهجة** [162] **المرضية**» [163] وغيرها . وفي سنة أربع ومائتين وألف [164] ذهبت للحج ، فقامت لي علماء المشرق على ساق ، وفي تلك الحجة قرأت على الشيخ مرتضى [165] : كما يأتي . ولما رجعت قلدت الفتوى ، ثم القضاء والخطابة . ولما عزلت سنة إحدى عشرة [166] شمرت لشرح «**المقامات**» [167] : (الشرح) الأصغر ، ثمّ (الشرح) الأكبر . ثم وفدت على السلطان مولاي سليمان [168] ، فأهديت له نسخة من الأكبر مع «**العقيقة**» [169] ، فاجازني جائزة سنية ، واتحفني تحفة مرضية . واشتهرت في مدينة فاس ، وَلَقَّبُوني بـ «**الحافظ**» . ثم رجعت بعد ما رغبني [170] ـ نصره الله ! ـ فقلت له : إنّي ثقيل . وقد كتب أمير خراسان إلى الصاحب إسماعيل بن عباد أن ينتقل عنده ويوليه ما وراء بابه ، فاعتذر ، لأنه ثقيل بمتاع حفيل ، حتى أن كتبه [171] يخصّها أربعمائة جمل تحملها . والصاحب هذا هو وزير ابن بويه الديلمي أحد ملوك العراق . ثم عمّتنا فتنة «**درقاوة**» [172] ، وأنا لم نكن فيها ، كما قال الشيخ عامر الشعبيّ [173] للحجاج (بن يوسف) : «وقد خبطتنا فتنة [174] لم نكن فيها أتقياء بررة ، ولا أقوياء فجرة» مع ما دهمنا من الطاعون ، الذي تهرّب منه الواعون ، فاتصلت علينا صراصر النكبات والبليات من الخوف والجوع والروع ، الذي في الفؤاد مودوع .

وقد ناداني لسان الحال بقوله : دع الدفاتر للزمان الفاتر ، فطرحت الكتب بمتروك

وقد ناداني لسان الحال بقوله : دع الدفاتر للزمان الفاتر ، فطرحت الكتب بمتروك
مكان ، واستمرّ عليها النسيان ، حتى نسجت [175] عليها عناكب الهجران . وقيل لي [176] : حق لك أن تبكي على العلم والجوامع ، التي كانت مترعة بذوي النجابة والفهم ، وعلى ذهاب أثره ، وقد ناح الغراب على وكره . ثم لاح لنا الفرج ، وقد استنشقنا من جانب الله أرجا [177] ، فعدت إلى التأليف ، وشمّرت إلى التصنيف [178] . وقلت لنفسي : أن الدهر قد ارعوى وائتمر ، وغرس التمني قد أثمر . وعدت لما كنت قد هجرت . وقد قال حافظ المذهب الإمام ابن رشد القرطبي [179] : كنت ولّاني السلطان عليّ (ابن يوسف بن تاشفين [180] القضاء ، فلم أجد سعة للتأليف ، لكثرة شوائب القضاء ونوائبه وشططه ومتاعبه . ولما عزلني وولّى مكاني أبا القاسم بن حمدين — حينئذ — تفرغت لشرح [181] « العتبية » ، المسمى بـ « **التحصيل** » و « **البيان** » ، فأتى — بحمد الله — باتقان وإيقان . ولنا فيمن تقدّم أسوة وأحسن قدوة . وكم من عالم عيق عن مراده ، وقداحة ظنه وإيراده ، وحيد عن أفكاره وافتكاره [182] . ثم انزاح الحجاب ، لأولي الألباب ، ومنه الصواب .

وأما نسبي فأنا عبد ربّي محمّد أبو راس بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر بن علي بن عبد العظيم بن معروف بن عبد الله [183] بن عبد الجليل ، وأن هذا النسب متصل إلى عمرو بن أدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ﷺ !.

أما والدي — رحمه الله ! — فكان من القراء الماهرين والأساتذة [184] المشهورين ، ومن أهل الحزم في القرآن والجدّ ، ساعي في مساعي الأدب والجد . وأما تقاه وصلاحه فمشهور . وأمّي مثله في الصلاح وأكثر ، كما مرّ .

وأما جدّي الشيخ عبد القادر ، الذي انقادت إليه أزمة ذوي الأقدار والمقادر . فكان أعجوبة الزمان في الولاية والصلاح والفضل الفضيل ، كاد أن يكون كابن عياض الفضيل . وكان مذهبه في رسم القرآن على طريقة المشارقة : كل محذوف يثبته ، وكل تعويض يتركه ويبنيه . وهي طريقة بعض القراء . وأما طريقة النحويين فالإسم الذي ألفه رابعة تلحق لفظاً وخطاً . وأما الصفة فتلحق لفظاً ، لا خطاً [185] . أنظر المرادي (على الألفية) . وأما التعويض الذي هو (من جمله [186]) قول الخرّاز في آخر الضبط : أن تجعل الجميع بالحمراء ، فثابت عند القراء القدماء ، كأبي عمر الداني ، والمغامي وغيرهما تنبيهاً على إمالة ذلك الحرف . وأما النحاة فإمالتهم باللفظ فقط ، لأنها في حروف مخصوصة سجية لبعض العرب ، أنظر « باب الإمالة » من « **الخلاصة** » . (أي : ألفية ابن مالك » .

وأما **زوجة جدّي** الصالحة الولية القانتة الزكية ، ذات الأحوال والأخلاق النفيسة كادت أن تكون كالسيدة نفيسة المكنّاة « **أم قاسم** » بنت الحسن ، بنت الأمير زيد بن الحسن [187] إحدى عقائل بني هاشم . فكانت في إجابة دعائها من أعجب العجب . وهي السيدة زينب ذات المنصب الأفخم الجليل ، بنت الشيخ السيد عبد الجليل ، ذي المزايا العظام ، والمناقب الجسام .

وأما جدّ والدي : هو الشيخ محمد ، فكان يضرب به [188] المثل في معرفة الفقه والفتوى ، ولا سيما علم الفرائض ، فما له مماثل [189] إلّا وهو رائض ، وقد بيّن مسائل من « **العول** » ، قد صعب على غيره فيها العمل والقول . وكان جالساً يوماً مع ولده العالم المشهور ، الذي طار صيته في أقطار المعمور ، المبلغ إلى المعالي كل قاصر ، الشيخ أحمد بن الناصر ، وإذا بعلماء من بني عامر ، بينهم خصام شديد ، ونزاع مديد ، فقال أحدهم : عبد هذا جنى على يد عبدي عمداً ، فقال : أيها العلماء أحضروا العبد الجاني ، لأن ما يتعلق برقبته لا يجيب عنه إلا هو . وكان لابنه المذكور همّا ولوع بشرح الشيخ عبد القادر بن أقتيتِ المعروف عند الطلبة بـ « **السوداني** » . قال الشيخ : أحمد بابا في « **ذيل الديباج** » : « إنما ذلك كله جمعه الطلبة من تقاريره » . وكان هَذَانِ السيدان رأسا في الفتوى .

وأما أبوه الزاهد ، القانت المخبت الشيخ أحمد ، الذي سُمّي عليه الوالد ، فكان من الصالحين ذا أذكار ، ولطائف وأسرار ولا يبالي بغنى أو إفتقار ، مشتغلاً بما يعنيه ، زاهداً فيما يعنيه كما قال أبو [190] الحسن الغراب في ممدوحه : « غني من التقوى فقير من الإثم » [191] .

وكان ـــ رضي الله عنه [192] ! ـــ لا يميز شؤون الدنيا ، ولا يبيّن أمتعتها ، دنية أو عليا / . ومن ذلك أنه قد [193] رأى يوما في زاوية بيته عكّة فيها سمن وعسل ممزوجين ، فظن ذلك من القاذورات المستقذرات ، فأخذها وذهب بها الى « مهر ابن صوت » ، وحسبه من ذلك ، وأتى بها الى زوجته ووبخها على ذلك ، فتعجبت من بلاهته ، وصكت وجهها ، وقالت : يا ويلتها غدر الصبية في إدامهم .وضحك كل من سمع ذلك .

وقد خلف بعد والده [194] الشيخ الامام ، السيد الهمام ، العالم ،العامل ، الولي الكبير ، الكامل ،العارف ، المحقق ، الواصل ، قطب زمانه ، وفريد عصره وأوانه ، الجامع بين شرف العلم والنسب ، والدين المتين ، وصميم الحسب ، والأخلاق المرضية والصفات الرحمانية اللدنية، والطريق الواضحة المستقيمة السنية ، والمآثر الحسنة السنية العظيمة ، رضي

الله عنه ، وأرضاه ! وأسكنه من فسيح الجنان أسناه وأعلاه [195] ! فهو الرافع لمجادتنا ، وواسطة عقد [196] قلادتنا ، ومنوّه ذكرنا ، وعماد فكرنا ، وجامع شملنا ،وباني قواعد عزنا المؤسس ،وнادينا المؤنس [197] .

وهو أول من ميز المصلّى التي [198] في بلادنا غربي النهر المذكور [199] وحوزها بأحجار كبار ، لتدريس العلم ولصلاة العيد ، فسميت تلك البقعة بها [200] . وهي في حجر عرعارة طويلة غليظة مستقيمة من أدواح الشجر [201] العظيمة ومصلى أخرى قريبة منها ، لا أدري من حوّزها من آبائنا . ولهذا القطب نسبتنا «**الناصرية**» ، وعمدتنا الناصرية [202] . وهو صاحب تربتنا وروضة مقبرتنا «**ويزغت**» ، التي بها أكثر آبائنا وأسلافنا من الصالحين العارفين القانتين المخبتين ، ذوي الأضرحة المباركة ، التي هي من أعظم المزارات ،وإجابة الدعوات ، والتماس البركات .وكانت لنا [203] هناك مدرسة لقراءة العلم ، أثرها باق — إلى الآن — أسفل المقبرة من جانب نهر «**ويزغت**» الغربي . قال عمرو بن مضاض الجرهمي [204] :

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُونِ إِلَى الصَّفَا ۔ أَنِيسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ [205]

وقد سمعت من تواتر الثقات : أن لنا بها في الماضي سبعة مجالس وأول من أنشأ ذلك جدّنا هذا ، وهو القطب الظاهر ، ذو الشيم التي لم يحصرها حاصر ، شيخ الطريقة السيد الناصر . نفعنا الله(به) [206] وبأمثاله والبدلاء من أشكاله .

- **ووالده** : ذو التنويه الجلي والشأن العلي ، قدوة السالكين الشيخ علي ، كان من خير العباد ، وثقات العباد ، ذوي الهداية والرشاد ،كثير القراءة والأذكار آناء الليل وأطراف النهار ، وضريحه بـ «**ويزغت**» أيضا . ثم **والده** : ذو المقام السني الخطير ، وذو باب [207] — من التقوى والآداب — واسع كبير . ذو الاشارات الغيبية واللحظات الوهبية : العالم العارف ، الولي ، المكاشف ، صدر الصدور ، في الأكابر مذكور ، وكان بينهم منعوت مشهور [208] ، قطب دائرة الحضرة وعليه مدارها ، وروض هتون البركة ومدارها ، شهد له بالتقديم ، في الحادث والقديم ، الصناديد العظام ، والأفاضل الكرام فكرامته لا تحصى ، وفضائله لا تستقصى ، اعترف بها الموافق والمخالف ، وسلم له فيها العدو والمحالف ، ولله در القائل (حيث قال) [209] :

وَمَلِيحَةٍ شَهِدَتْ لَهَا ضَرَّاتُهَا ۔ وَالْفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ [210]

إمام زمانه ، وقطب أوانه ، ذو المجد الذي لا يضاهى والفخر الذي لا يباهى ، والقدر

العالي الشامخ ، والتنويه الباذخ ، ذو النبل والفضل العظيم ، شيخ الطريقة : ولي الله سيدي عبد العظيم ، عظيم الكرامات ، وخوارق العادات في أهل الوبر والمدر ، والأمصار/ التي لا تنسخ بسالف الأعصار . وقد شاع وذاع ما يثلج الصدور ، وامتلأت منه الأسماع : أن من أتى عند ضريحه نهارا أو سحرا أو عشاء رزقه الله ما يتغدى أو يتعشى . فمن ذلك ما أخبرني به ثقة عن أبيه ـــ وكان من الصالحين ـــ أنه ابتدأ عند ضريحه «**دلائل الخيرات**» . فلما انتهى الى نصفه أراد الذهاب ، فنودي : «أرنو [211]» ،أي : فزد ، فشرع في القراءة حتى كمله ، وقد [212] أظلم الليل ، فبات ثمة ، فدخلت عليه أرنب عظيمة فأخذها [213] وذبحها ، وأورى نارا وشواها ، (وأكل حتى شبع [214]) ، ومن ذلك أن زائرين [215] باتا عنده ، وهما في غاية الجوع ، فقالا : ياسيد [216] الأولياء ! يا عشاي أضيافه ! بلغ منا الجوع غايته ! «وناما ، فاذا هما [217] بعبد وبيده إناء مملوءة [218] طعاما ، وإناء ماء ، فأكلا حتى شبعا [219] ، ورقدا ، ووضعا ، مافضل عليهما [220] عند رأسيهما [221] . ولما أصبحا لم يجدا شيئا ، ولا حبة منبوذة في الأرض .ومشهده بموضع غابة كبيرة ، غربي نهر «**هونت** [222]» كثيرة الأسود ، مثل «**بيش**» في بلاد تميم ، ولا يغيب الأسد عن ذلك الموضع في الغالب ومن أتى زائرا أقعى وربض قبالته ، مع أنه في تلك الغابة أضر ما يكون للخلق [223] ، حتى إنه اختطف غلاما من بيت أبيه بمرأى من أمه وأبيه [224] . وحبست عليه بلاد عظيمة جنت عليها أيدي الجور ، وإلى الله عاقبة الأمور . هذا ما بلغنا من ولاية آبائنا وكراماتهم في حياتهم [225] ومماتهم . فأنعم بذلك [226] الحليم الكريم «ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [227] » .

ومن آباء هذا السيد العظيم الجليل ، ولي الله الشيخ عبد الجليل ، الذي قال فيه دافع الضَّيْر ، وزاجر الطَّيْر ،القطب الرباني ، الشيخ عيسى بن موسى التوجاني [228] ، ما نصه [229] :

وَعَبْدُ الْجَلِيلِ حَلَّ نَحْوَ حَبِيبِهِ وَعَبْدُ الْكَرِيمِ صِهْرُهُ خَيْرُ آيِبِ

وضريحه في تربة «**ويزغت**» أيضا ، إلا أنه لم يعرف . وقد قال لي شيخنا الأرضى/ وسيف الله الأمضى ، الامام السيد مرتضى [230] : لم يعرف قبر نبي على التمييز والتعيين ، الا قبر نبينا ـــ صلى الله عليه وسلم ! من سائر أنبياء الأمم ، ولا قبر صحابي يميز ويشهر ، الا قبر أبي بكر وعمر ، (رضي الله عنهما !) .

ومن أجدادي ـــ أيضا ـــ ذو الكرامات الفائقة ، والمناقب الرائقة ، والزلفة

العجيبة [231] ، والمزايا الغريبة ، ذو المواهب [232] والخير الكثير ، الشيخ عبد الله [233] الكبير ، الذي ظهرت بركاته في كل ملحد وسير . ضريحه مشهور ومعاين ، بازاء« **قوائر أزناين** » . ذو الخيرات والهشاشة ، يقابل « **قوائر المشماشة** » ، في حافة غربي النهر الكبير ، وفوق ملتقاه مع الطاغية الآتية بكل خير . وقد شاع وفشا ، عند من قام ومن مشى ،أن من صنع ظفيرة من الحلفاء الخضراء ، ويكون أعسر اليسرى ، ويحطها [234] على شاهد رأسه ، ويتركها عند رمسه ، أن حاجته تقضى ، كما يحب ويرضى . ولله في أوليائه سر خفيّ ، ولطف حفيّ . اصطفاهم واجتباهم ، وبكل خير حباهم . وكان سلفنا يقول : إن من جملة أسلافنا ، وخيرة أحلافنا ، عظيمين وجليلين ، فأحد العظيمين هو الذي يعشي أضيافه ، ويأمن اللائذ به من كل مخافة ، كما مر . والآخر هو [235] صاحب الظفيرة الوافرة التي هي بكل حاجة ظافرة . وأحد الجليلين صاحب المدرسة الباقية الأثر ، والمآثر التي هي كالماء المنهمر والآخر بتربة الشيخ أبي أجلال الكائنة بازاء « **وانجال** » ، ذات المفخر الباهر العلي ، فهو فيها موفي أربعين وليا . در الله علينا وعلى ذريتنا [236] خيرا من جودهم الطيب ، وأرجا من عرارهم الطيب .

هذا بعض ما بلغنا [237] عن بعض أسلافنا ولله الحمد ! [238] وما بقي وأكثر (وأبهر) [239] وأزهر ، وأظهر وأشهر ، مع أن بركاتهم وحركاتهم المعنوية لم يطو ـــ بحمد الله ـــ بساطها ، ولا ذهب رونقها وانبساطها ، إلا أن خير الأمور أوسطها . وأن البدر دائم الانارة والاضاء ، وخزائن الله لا لها إنقضاء [240] .

حكي عن العارف بالله أبي الحسن الشاذلي ـــ رحمه الله ، وأرضاه عنا وعن ذريتنا [241] ! ـــ أنه قال : إن [242] كان الجيلي [243] من قبلي يغترف من بحر واحد ، فأنا ـــ بفضل الله [244] ـــ أغترف من سبعة أبحر ، وبالجملة فإنهم ـــ رضي الله عنهم ـــ لا تنتهي مراتبهم ، ولا تنقضي عجائبهم ، ولا تخيّب سائليهم وطالبيهم ، إنه محبوبهم ومحبهم [245]

هذا ـــ والحمد لله والمنّة له [246] ! ـــ قد شهد لي بالشرف السنّي ، والمنتمي الحسني ، والنسب النبوي ، والبيت الكريم العلوي الشيخان الشامخان الراسخان **(الأول)** : العارف بالله الواحد القهار ، الطائر صيته بالولاية في كل الامصار [247] ، في الوبر والمدر وسائر الاقطار ، امجد النظار ، الذي اختير لولاية الله في عباده اي اختيار . الشيخ المصطفى بن المختار ، الاسعد الرباني ، والهيكل الصمداني ، اسكنه الله دار التهاني ، واظفرني فيها ببلوغ الاماني ، وانتفع بشفاعته الابعد والداني . **والثاني** : من أتى لنا خلفا من الحسن اليوسي [248] ، الشيخ الكبير العالم النحرير سيدي عبد القادر ابن السنوسي ، لقد كان له في

العلوم باع له مساق ، وقد قام له علماء المشرق على ساق . وصار [249] كل من ناقشه يقول : « بخ بخ » [250] من بيخ ، وقد لقبوه بـ « **الشيخ** » ، ودرّس وحشّى ، ونظم وانتشى ، وزيّن ووشّى ، وتغذّى بلبان العلوم وتعشى . فكم ركب للخيرات وكم اليها مشى ، اتحفهما الله بدر شآبيب الغفران ، والحفهما بمطارف التكريم في الجنان . فقد قالا ذلك باللسان ، وكتبا ـ رضي الله عنهما ! ـ شهادتهما بالبنان ، فهي عندي من المقدّم الذي لا يؤخر ، ومن الكنز الذي ينفق منه ويدّخر [251] .

قلت : ولما حجّ اهل « **داوا** » في القرن الثامن [252] . وقد اتوا بأشراف الملوك السّعدية من ارض الحجاز نظير اتيان اهل « **تافلالت** » بشريف من « **الينبوع** » من مدشر « **بني ابراهيم** » في القرن السابع [253] ، فما برح السعديون من تونس ـ لما دخلوها ـ حتى كتب لهم الشرف القاضي (محمد) من عبد السلام ومعاصروه : (محمد) بن راشد ، و (محمد) بن هارون ، و (محمد) بن الحباب ، و (محمد) بن عرفة . ولما بلغوا « **داوا** » أتاهم أبو طاهر من أشراف « **تافلالت** » ، الذي سلطان اسماعيل من رهطه ، فسألهم عن نسبهم فاستظهروا بمكاتب علماء تونس : فحينئذ صدّق بشرفهم وعلوّ منصبهم ، وأشاع ذلك في المغرب (وأنهم من سلالة محمد ﷺ ! ، وعلى آله وصحبه وسلم) [254] ولله الحمد [255] ! وأنا عبد ربي المسرف الجاني ، قد كتب لي علماء زماني . ولكل مقام مقال ، ولكل زمان رجال . ولله الحمد ! [256]

هوامش

(1) «ومولانا» : ساقط من (ب) .
(2) الزيادة من (ج) .
(3) ا.ج : ومزاج ، والصلاة على صاحب المعراج ، وجعله ...
(4) سورة «الأنعام» ، الآية 124 .
(5) الزيادة : من (ب) .
(6) ب : والجلال .
(7) سورة «القلم» ، الآية : 42 .
(8) الزيادة : من (ب.ج) .
(9) ب : في أجوبتي .
(10) الزيادة : من (ب.ج) .
(11) سورة «هود» ، الآية : 88 — سورة «الشورى» ، الآية : 10 .
(12) «فسلفي فيه» : أي : قدوتي فيه .
(13) هو : شيخ الاسلام ابو يحي ، زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري : أحد كبار القضاة . وأعلام المفسرين ، وحفاظ الحديث ، ومشاهير الفقهاء . نشأ فقيرا معدما ، جائع البطن عاري البدن ، حافي القدمين ، ولكن عندما تعلم وظهر نبوغه انهالت عليه الهدايا ، وتتابعت اليه العطايا ، فصار يقبض كل يوم حوالي ثلاثة آلاف درهم ، فجمع ببعضها نفائس الكتب ، وتصدق بجلها على تلاميذه . من مؤلفاته : «فتح الرحمن» ، في التفسير . و «تحفة الباري على صحيح البخاري» . و «غاية الوصول» : في أصول الفقه . توفي سنة 926هـ – 1520م .
(14) «فسلفي فيه» : أي : قدوتي فيه .
(15) في جميع النسخ : «أبو» . (والتصويب من قلمنا) .
(16) الزيادة من (ب . ج) .
(17) «عبد» : ساقط من (ج) .
(18) هو : أبو الحسن عبد الغافر بن اسماعيل . الفارسي ، النيسابوري . أحد أعلام اللغة والتاريخ والحديث . من مؤلفاته : «المفهم لشرح غريب مسلم» «السياق» ، في تاريخ نيسابور . توفي سنة 529هـ – 1135م .
(19) في جميع النسخ : «الحميري» (والتصويب من كتب التراجم) .
(20) هو : كتاب «الاحاطة ، في أخبار غرناطة» .
(21) هو : تقي الدين ابو الطيب محمد بن أحمد بن علي ، الحسني ، الفاسي المكي أحد كبار المحدثين

والأصوليين والمؤرخين . من مؤلفاته : «العقد الثمين ، في تاريخ البلد الأمين» . و «ارشاد الناسك إلى معرفة المناسك» . توفي ــ بمكة ــ سنة 832 هـ – 1407م .

(22) هو : كتاب «شفاء الغرام ، بأخبار البلد الحرام» .

(23) هو : كتاب «رفع الأصر ، عن قضاة مصر» .

(24) هو : أبو القاسم عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم ، المقدسي ، الدمشقي ، الشافعي . توفي سنة 665هـ – 1267م .

(25) هو : كتاب «أزهار الروضتين ، في أخبار الدولتين» ، أي : دولتي نور الدين ، وصلاح الدين .

(26) صاحب القول هو جلال الدين عبد الرحمن السيوطي .

(27) «دون» : ساقط من (ب) .

(28) «وقد» : ساقط من (ب) .

(29) «الفرد وذلك» : ساقط من (ب) .

(30) السيوطي عبد الرحمن ، حسن المحاضرة ، في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم ، القاهرة 1387 هـ 1967م ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ج : 1ص : 336 ــ 344 . وقد تصرّف أبو راس بعض الشيء في النص الأصلي ، واختصره أيضا .

(31) ب : بالنعم .

(32) أي : في كتاب «نسيم الرياض ، في شرح شفاء القاضي عياض» لمؤلفه شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر ، الخفاجي ، المتوفي سنة 1069 هـ = 1659م .

(33) «وعلم الأصول والبيان» : ساقط من (ب) .

(34) الزيادة : من (ب.ج) .

(35) الزيادة من (ب) .

(36) «قلت» : ساقط من (ب) .

(37) «من» : ساقط من (ج) .

(38) «الفرية» : الاختلاق ، والكذب .

(39) «السرية» و «السروة» : هي الجرادة . عندما تكون دودة .

(40) سورة «النساء» ، الآية : 49 ، 50 .

(41) سورة «يوسف» ، الآية : 55 .

(42) «ابن ابي طالب ، رضي الله عنه !» : ساقط من (ب) .

(43) ب : مسألة .

(44) «ملعون» : ساقط من (ب) .

(45) ج : وما شرّها .

(46) ج : تجعلوا .

(47) «جهنم . رضوان الله عليهم ، وأرضاهم عنّا وعن ذريتنا ، يا رب العالمين !» : ساقط من (ب) .

(48) الضمير من «منها» يعود على جهنم .

(49) «أعاذنا الله والمسلمين آمين ! يارب العالمين !» ساقط من (ج) .

(50) «ان شاء الله» : ساقط من (ب) .

(51) «أقول» : ساقط من (ج) .

(52) «ابتداء أمري ــ بفضل الله تعالى وكرمه ــ» ساقط من (ج) .

(53) ج : وهوثما .

(54) ب : العالمة .

(55) الزيادة من (ب) .
(56) «متيجة» : اسم لأراض خصبة ، تقع حول مدينة «الجزائر» .
(57) في جميع النسخ : وأكملهم (والتصويب من قلمنا) .
(58) «وكانت» : ساقط من (ب.ج) .
(59) أ : كربيعة .
(60) من «التوجاني» حتى «المزارات» : ساقط من (ج) .
(61) ب.ج : وعلى تعليمه للرجال والولدان .
(62) الزيادة من (ب) .

(63) «الجيلي» : هو أبو محمد عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست ، الحسني ، المعروف بـ «الجيلاني» ، أو «الكيلاني» ، أو «الجيلي» ، هو أحد كبار الزهاد والصوفيين ، وهو مؤسس الطريقة «القادرية» ، توفي سنة 561هـ - 1166م .
(64) ب : اللبرطي .
(65) ج : ولبيب .
(66) ج : الهتوف .
(67) ب :مقالته .
(68) سورة «الجن» . الآية : 26 .
(69) «أهل الطريقة» : ساقط من (ب.ج) .
(70) هو : أبو عبد الله ، محمد بن ابراهيم بن عبد الله ، النفزي ، الحميري ، الرندي ، المعروف بـ «ابن عباد . أحد أعلام الزهاد والمتصوفين من مؤلفاته : «غيث المواهب الحلية ، بشرح الحكم العطائية» . و «الرسائل الكبرى» ، في التصوف . توفي سنة 792 هـ - 1390م .
(71) الزيادة : من (ب) .

(72) الزيادة : من (ب) .
(73) «المغرب» ، أي : غرب القطر الجزائري ، مثل اقليم «أم عسكر» و «وهران» ...
(74) في جميع النسخ : وحفظتهم لصغري : ساقط من (ب) والمراد بالاحكام أحكام رسم القرآن .
(75) «أسلك» : لغة دارجة اقليمية ، بمعنى : أصحح ، أي أصحح لهم الواحهم ، بعد كتابتهم اياها .
(76) أي : كان يبيع الحبوب التي يجمعها بالشحاذة من المنازل ويشتري بثمنها ثيابا يلبسها .
(77) الموافقة لسنة 1745 م .
(78) أي : كراغلة تلمسان . و «الكرغلي» : من أب تركي وأمه جزائرية (في جميع النسخ [illegible])
(79) هو ابو موسى ، عيسى بن ميناع بن وردان بن عيسى ، المدني ، مولى الأنصار ، كان أحد اعلام القراء واللغويين بالحجاز . وكان أصم ، لايسمع ، بل يقرأ عليه القاريء القرآن ، فينظر الى حركة شفتيه ، فيرد عليه اللحن والخطأ . و «قالون» معناه — في لغة الروم — : جيد . وقد لقبه به شيخه نافع . وكانت وفاة قالون سنة 220 هـ - 835م .
(80) هو عثمان بن سعيد بن عدى ، المصري المولد والمنشأ ، القيرواني الأصل : أحد كبار القراء ، توفي سنة 197 هـ - 812م .
(81) هو : نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم ، الليثي بالولاء ، المدني : احد القراء السبعة المشهورين ، كان شديد السواد في بشرته ، وقد اقرأ الناس نيفا وسبعين سنة ، توفي سنة 169 هـ - 785م .

(82) هو : «الدرر اللوامع ، في قراءة نافع» .
(83) من بحر الرجز .

(84) «افريقية» : تونس .

(85) ب : فغالبهم قراءة « قالون» .

(86) «عبد» : ساقط من (ب) .

(87) ب : فان عدت أفتيك — ان شاء الله — بقول مالك ، وهو راوية مذهب مالك . (قال القاضي عياض — في «ترتيب المدارك» . ج : 4ص : 44 — : ذكر محمد بن الحكم ، عن عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم : حلف أخي بالمشي الى مكة في شيء ، فسألت ابي عن ذلك ، وأخبرته بيمينه ، فاشتد عليه ، وأمره أن يكفر يمينه ، ولا يعود) .

(88) أوائل القرن الثاني عشر للميلاد .

(89) ب.ج : فلقيت من المشي على صغري مشقة المشي على ذلك .

(90) سورة «الكهف» ، الآية : 62 .

(91) «هو» : ساقط من (ب) .

(92) «الهنات» : خصلات الشر .

(93) ب : في ضريح غربته .

(94) من «بجاه محمد إلى بدر سمائه» : ساقط من (ب) .

(95) «فقط» : ساقط من (ج) .

(96) «له» : ساقط من (ب) .

(97) جاء في «لسان العرب» لابن منظور — حرف الراء ، فصل الشين — : «والشراشر : الأثقال ، الواحدة شرشرة . يقال : ألقى عليه شراشره ، أي : نفسه ، حرصا ومحبة» .

(98) سورة «النجم» ، الآية : 39 .

(99) ب : الشيخ خليل .

(100) «وغيره» : ساقط من (ب) .

(101) هو : مصنف الشيخ خليل بن اسحاق المالكي .

(102) ج : صار جفر ذلك .

(103) «أخونا» : ساقط من (ج) .

(104) ب.ج : مع بعض الطلبة .

(105) ب : فرأيت في منامي كأني في سوق حافلة ، إذ لقيني رجل أزرق طويل .

(106) «شاشية» : لغة اقليمية في «القلنسوة» .

(107) «متاع العنب» : ساقط من (ب) .

(108) ب : قال

(109) ب : قلت .

(110) هو : مختصر الشيخ خليل بن اسحاق المالكي .

(111) ب .ج : ما معي مال .

(112) ب : المشرفي وحده . (والمشرفي : هو أبو المكارم عبد القادر بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن جلال ، المشرفي الغريسي ، ثم المعسكري . توفي صحوة يوم الخميس عاشر رمضان سنة 1192 هـ - أكتوبر 1778م . ورثاه تلميذه أبو راس بقصيدة طويلة النفس .

(113) ب : ذات يوم .

(114) الضمير يعود على محمد أبي راس التلميذ الجديد .

(115) ب : اني ان .

(116) أي : ختم درس مصنف الشيخ خليل وغيره ، على شيخه المشرفي .

(117) صاحب هذه المؤلف هو : محمد المقبق بن حواء التحبني .

(118) «الكامل ، الحافل ، الفاضل ، السيد» : ساقط من (ب) .

(119) «على الاطلاق» : ساقط من (ب) .

(120) «من الشعر» : ساقط من (ج) .

(121) «قال» : ساقط من (ب) .

(122) من البحر البسيط . والبيت مفسّر للذي قبله ، وهو : «حسّنت نظام كلامي توصفين به ومنزلا بك معمورا من الخفر» .

(123) في جميع النسخ : «الحسن في شيئين يظهر ...

(124) «وتهتك حرمتك» : ساقط من (ب) .

(125) «ساق الحد» : ساقط من (ب) .

(126) «يوما واحدا» . ساقط من (ب) .

(127) «لأمر مهم رباني»» : ساقط من (ب) .

(128) هو : مختصر الشيخ خليل بن اسحاق المالكي .

(129) «أن» ساقط من (ج) .

(130) «ذلك» : ساقط من (ب) .

(131) ب : وغيرهم من اخوانهم .

(132) «اذا» : ساقط من (ج) .

(133) ج : والتوفيق .

(134) ب : وتذنيب .

(135) «الحضرة» :الحلقة .

(136) هو : أبو بسطام ، شعبة بن الحجاج بن الورد ، العتكي الأزدي ــ مولاهم ــ الواسطي البصري : أحد أئمة الحديث ، حفظا ودراية ، وهو أول من تتبع أمر المحدثين ، وجانب الضعفاء والمتروكين . وبالاضافة الى تثبّته في الحديث كان له باع طويل في الشعر والأدب . من مؤلفاته : «**الغرائب**» في الحديث . توفي سنة 160 هـ - 776م .

(137) «رضي الله عنه» : ساقط من (ب) .

(138) هو أبو زيد ، سعيد بن أوس بن ثابت الانصاري ، أحد اعلام الأدب واللغة . قال بن الأنباري : «كان سيبويه اذا قال : سمعت الثقة يعني ابا زيد الانصاري» . من مؤلفاته : «**كتاب النوادر**» ، في اللغة ، و«**لغات القرآن**» . و «**بيوت العرب**» . توفي سنة 215 هـ - 830 م . وكان على رأي «القدرية» .

(139) من «فقال» الى الملحمة : ساقط من (ب) .

(140) هم : أبو عبد الله ، عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، المتوفى سنة 98 هـ - 716 م ، وأبو عبد الله ، عروة بن الزبير بن العوام الأسدي ، المتوفي سنة 94 هـ - 714 م . وأبو محمد القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق المتوفي سنة 101 هـ - 719 م وأبو محمد ، سعيد بن المسيب بن حزن القرشي ، المتوفى سنة 94 هـ - 914 م . وأبو أيوب سليمان بن يسار ، المتوفي سنة 107 هـ 725 م وخارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري ، المتوفي سنة 99 هـ - 717 م . وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن مغيرة القرشيّ المخزومي ، المتوفي سنة 94 هـ - 714 م ، وقد نظم بعضهم أسماءهم فقال : «ألاكل من لا يقتدي بأئمة فقسمته ضيزي عن الحق خارجه فخذهم : عبيد الله ، عروة قاسم سعيد ، أبو بكر سليمان ، خارجه» .

(141) نسبة الى «**شارمساح**» . قال ياقوت ــ في «**معجم البلدان**» : قرية كبيرة كالمدينة بمصر ، بينها وبين «بورة» أربعة فراسخ ، وبينها وبين «**دمياط**» خمسة فراسخ من كورة «**الدقهلية**» انتهى .

والمنسوب اليها هو : أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن عمر ، المصري الأصل ، الشارمساحي المولد ، الاسكندري المنشأ ، المالكي المذهب . من مؤلفاته : « **نظم الدرر في اختصار المدونه** » . « **الفرائد** » ، في الفقه المالكي . توفي سنة 669 هـ - 1271 م .

(142) هو : **أبو العباس** ، أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى ، البرنسي الفاسي ، المعروف بـ « **أحمد زروق** » : أحد أعلام الفقهاء والمحدثين والمتصوفة . من مؤلفاته : « **شرح مختصر خليل** » . و « **النصيحة الكافية ، لمن خصه الله بالعافية** » . و « **القواعد** » ، في التصوف ، و « **الجنة ، للمعتصم من البدع بالسنة** » . و « **شرح رسالة ابن ابي زيد القيرواني** » ، في الفقه المالكي . توفي سنة 899 هـ - 1493م .

(143) أي : شرح « **ارشاد السالك ، الى مذهب الامام مالك** » لمؤلفه أبي زيد ، عبد الرحمن بن محمد بن عسكر ، البغدادي ، المالكي ، المتوفى سنة 732 هـ - 1332م .

(144) أي : بايات الغرب الجزائري .

(145) « بيع » : ساقط من (ب) .

(146) هو : أبو اسحاق ، محمد بن القاسم بن شعبان : أحد أعلام الفقهاء المالكية ، وأحفظهم لمذهب مالك ، انتهت اليه رئاسة الفتوى في مصر . توفي سنة 355 هـ - 966م .

(147) ب : الخامس ، بل الرابع .

(148) هو ابو عبد الله ، محمد بن عمر الهواري المغراوي : أحد الفقهاء المتصوفين والزهاد المتعبدين . طاف الشرق والغرب ، واستقر بـ « **وهران** » ، حيث توفي سنة 843 هـ - 1439م ، ومازال قبره يزار هناك .

(149) ج : معلاش (وهو خطأ) .

(150) في جميع النسخ : فاهتميت . (والتصويب من قلمنا) .

(151) في جميع النسخ : مصباح (والتصويب من قلمنا) .

(152) « شيئا ، فرجعت » : ساقط من (ب) .

(153) « وقد » : ساقط من (ب) .

(154) « والزيت » : ساقط من (ب) .

(155) هو : أبو كلثوم ، مالك بن طوق بن عتاب التغلبي : أحد أشراف الفرسان الأجواد ، كان أميرا على دمشق للمتوكل العباسي ، وبني بمساعدة الرشيدة بلدة « الرحبة » على « الفرات » وتعرف بـ « **رحبة مالك** » وكان فصيح اللسان ، وله شعر جيد . توفي سنة 259 هـ - 873م .

(156) « لما قصده ومدحه تمنيه » : ساقط من (ب)

(157) من البحر الطويل .

(158) « وأرضاه » : ساقط من (ب) .

(159) « يوم » : ساقط من (ب) .

(160) الموافقة لسنة 1778م .

(161) « ومنبع الفواضل » : ساقط من (ج) .

(162) « البهجة » : ساقط من (ب) .

(163) هو : « **البهجة المرضية ، في شرح الألفية** » ، لمؤلفه : جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي المتوفى سنة 911 هـ - 1505م .

(164) الموافقة لسنة 1789 - 1790م .

(165) هو : أبو الفيض ، محمد بن محمد بن عبد الرزاق ، الحسيني ، الزبيدي ، الملقب بـ « مرتضي » :

كان أحد أعلام اللغة والحديث ، عارفا بالرجال والأنساب . من مؤلفاته : «**تاج العروس ، في شرح القاموس**» . و «**اتحاف السادة المتقين ، في شرح احياء علوم الدين**» . توفي سنة 1205 هـ - 1790م .

(166) أي سنة 1211 هـ - 1796 — 1797م .

(167) أي : شرح «**مقامات الحريري**» . وتوجد نسخة من «الشرح الأكبر» بالمكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة ، وهو في سفرين ، خطه جميل جدا ، تحت رقم ...

(168) هو أبو الربيع ، سليمان بن محمد بن عبد الله بن اسماعيل العلوي ، سلطان «المغرب الأقصى» : بويع بفاس سنة 1206 هـ - 1791م . وتوفي بـ «مراكش» سنة 1231 هـ - 1816م .

(169) أي : شرح العقيقة ، المسمى بـ «**الدرة الأنيقة ، في شرح العقيقة**» وفي ج : مع الفقيه (وهو تصحيف) .

(170) أي : رغبه في المكوث بـ «**المغرب الأقصى**» تحت جناح سلطانه .

(171) ب : كتبي .

(172) هي الطائفة «الدرقاوية» ، نسبة الى مؤسس طريقتهم أبي عبد الله محمد العربي بن أحمد الدرقاي المغربي .

(173) هو : أبو عمرو ، عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار ، الشعبي الحميري : أحد التابعين ، وراوية حديث سيد المرسلين ، كان يضرب به المثل في الحفظ ، اتصل بعبد الملك بن مروان ، وكان نديمه ، ورسوله الى ملك الروم . توفي سنة 103 هـ - 721م .

(174) ب : خبطتنا فيه فتنة .

(175) ب : صبحت .

(176) ج : لنا .

(177) في جميع النسخ «أرج» ، نزولا عند سياق السجع (والتصويب من قلمنا) .

(178) ب . ج : التصانيف .

(179) هو : أبو الوليد ، محمد بن أحمد بن رشد (الجد) ، قاضي الجماعة بقرطبة : أحد أعلام الفقهاء وأعيان المذهب المالكي . من مؤلفاته : «**المقدمات الممهدات**» . و «**البيان والتحصيل**» . توفي سنة 520 هـ - 1126م .

(180) هو : أبو الحسن ، علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني : أحد أمراء «مراكش» ، وثاني ملوك دولة الملثمين المرابطين . بويع سنة 500 هـ - 1108م . وتوفي سنة 537 هـ - 1143م .

(181) ج : باتفاق .

(182) من «وقداحة» الى «وافتكاه» : ساقط من (ب)

(183) «بن عبد الله» : ساقط من (ب،ج) .

(184) ب : والأساتيذ .

(185) «وأما الصفة فتلحق لفظا ، لا خطّا» : ساقط من (ب) .

(186) الزيادة : من (ب) .

(187) هي : نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، صاحبة المشهد المعروف بمصر . كانت أتقى نساء عصرها ، وإحدى العالمات بالتفسير والحديث ، وكان العلماء يزورونها ، ويأخذون عنها ، وهي أمية لا تقرأ ، ولا تكتب ، ولكنها عالمة جليلة بالسماع . توفيت سنة 208 هـ - 824 م .

(188) «به» : ساقط من (ج) .

(189) «مماثل» : ساقط من (ج)

(190) ب : أبي .
(191) من البحر الطويل .
(192) «رضي الله عنه» : ساقط من (ب) .
(193) «قد» : ساقط من (ب) .
(194) ج : والدي .
(195) ب : وأسكنه من الجنان فسيحه وأسناه وأعلاه .
(196) «عقد» : ساقط من (ب) .
(197) «ونادينا المؤنس» : ساقط من (ب) .
(198) «التي» : ساقط من (ب) .
(199) أي : «نهر ابن صواق» .
(200) «بها» : ساقط من (ب) .
(201) «الشجر» : ساقط من (ب) .
(202) ج :الماصرية .
(203) «لنا» : ساقط من (ج) .
(204) هو : عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي : أحد ملوك قحطان في الحجاز ابان العصر الجاهلي القديم .
(205) من البحر الطويل .
(206) الزيادة : من (ج) .
(207) في جميع النسخ : ذو الباب .
(208) ب : ومن بينهم مشهور .
(209) الزيادة من (ب)
(210) من البحر الكامل .
(211) «أرنو» لفظة بربرية ، معناها : زد — بالعربية — .
(212) ب : زد . «وقد» : ساقط من (ج) .
(213) «فأخذها» : ساقط من (ب) .
(214) الزيادة من (ب) .
(215) في جميع النسخ : «زائران» . (والتصويب من قلمنا) .
(216) ب : ياشيخ .
(217) «هما» : ساقط من (ب) .
(218) «مملوء» — «واناء» : ساقط من (ب) .
(219) «حتى شبعا» : ساقط من (ب) .
(220) ب : ما فضل مع الماء عليهما .
(221) في جميع النسخ : رؤوسهما . (والتصويب من قلمنا) .
(222) «كبيرة غربي نهر هونت» : ساقط من (ج) .
(223) «للخلق» : ساقط من (ج) .
(224) «وأبيه» : ساقط من (ج) .
(225) ب : في أحيائهم .
(226) ب : ولما لهم بذلك .

(227) سورة «آل عمران» ، الآية : 34 .
(228) أ : التيجاني . (والتصويب من كتب التراجم) .
(229) من البحر الطويل .
(230) هو : محمد مرتضى الزّبيدي ، المتقدمة ترجمته .
(231) ب : الرافعة والزالفة العجيبة .
(232) ج : والمواهب .
(233) ب ، ج : عبد العظيم .
(234) ب ، ج : ويحكّها .
(235) « هو » : ساقط من (ب) .
(236) «وعلى ذريتنا» : ساقط من «ب» .
(237) «بلغنا» : ساقط من (ج) .
(238) «ولله الحمد» : ساقط من (ج) .
(239) الزيادة : من (ب ، ج) .
(240) ج : لا تقضى .
(241) «وأرضاه عنا وعن ذريتنا» : ساقط من (ب) .
(242) « ان » : ساقط من (ب) .
(243) هو : الشيخ عبد القادر الجيلاني ، المتقدمة ترجمته .
(244) « بفضل الله » : ساقط من (ب) .
(245) « انه محبوبهم وحبّهم » : ساقط من (ب) .
(246) « الحمد لله والمنّة له » : ساقط من « ب » .
(247) ب : في كل مطار .
(248) هو : أبو علي ، الحسن بن مسعود بن محمد اليوسي : كان أديب عصره ، وعلم من أعلام الفقه ، وهو مالكي المذهب ، وكان ينعت بـ « غزالي عصره » . وقال العياشي (صاحب الرحلة) فيه : « من فاته الحسن البصري يصحبه فليصحب الحسن اليوسي يكفيه » . من مؤلفاته : « **المحاضرات** » ، في الأدب ، و « **قانون أحكام العلم** » ، و « **الكوكب الساطع في شرح جمع الجوامع** » ، و « **القصيدة الدالية** » ، مع شرحها : « **نيل الأماني من شرح التهاني** » . توفي سنة 1102 هـ – 1533 م .
(249) « صار » : ساقط من (ب) .
(250) « بخ » ـــ بالكسر والتنوين ـــ : كلمة تقال للرضى [illegible] والإعجاب [illegible] وتكرر للمبالغة . وأصلها « بخ » ـــ بفتح فسكون ـــ : إسم فعل : معناه : عظم الأمر ، وفخم .
(251) « رضي الله عنهما » : ساقط من « ب » .
(252) الموافق للقرن الرابع عشر للميلاد .
(253) الموافق للقرن الثالث عشر للميلاد .
(254) الزيادة من (ب) .
(255) «ولله الحمد» : ساقط من (ب) .
(256) ب : والحمد لله .

الباب الثاني

في ذكر أشياخي النافضين [1] عنّي قشب أوساخي : شريعة ، وحقيقة ، وقرآنا ، وطريقة

اعلم اني — ببركة الشيوخ ، ومحبّة اهل الرسوخ — واجهت كلا [2] منهم بآداب وتأملت فيه ، وأمعنت النظر فيما زبر [3] في كتابه ، أو خرج من فيه بإذعان وقبول ، لتحصيل كل مامول ، فحصلت لي — عند ذلك — مصّة من حليب التوفيق ، وحصّة من ماء التحقيق ، فنمت في لبّ من سمعها ووعاها ، وثمرت في قلب من قام بحقها ورعاها . فالشيخ عليه النفع يدور ، وتكيل الارض قدمك اليه وتخور . قال الامام الشريشي [4] في قصيدته الرائية : [5]

وَلِلشَّيْخِ آياتٌ ، إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ   فَمَا هُوَ إِلَّا فِي لَيَالِي الْهَوَى يَسْرِي
إِذَا لَمْ يَكُنْ عِلْمٌ لَدَيْهِ بِظَاهِرٍ   وَلَا بَاطِنٍ فَاْضْرِبْ بِهِ لُجَجَ الْبَحْرِ [6]

وقد قيل للملك «الاسكندر [7]» اليوناني : اراك تعظم شيخك «ارسطو» على والدك ، فقال : والدي سبب الحياة الفانية ، وشيخى سبب الحياة الباقية . وقال الشيخ الصعيدي [8] — في آخر مسائل «الخنثى» [9] — : «ان ابليس — لعنه الله ، وأخزاه ! — أتى الى عيسى — عليه الصلاة والسلام ! — وقال له : قل لا اله الا الله ، فقال له عيسى : اني [10] اقولها لا بقولك ياملعون ! لأن عيسى فهم عنه انه اذا قالها بقوله صار شيخا له ، فلا يمكنه عصيانه فيما يأمره به ، ومعلوم ان الشيطان لا يأمر الا بالفحشاء . ومن جملتها الكفر ، فعصمه الله منه» هـ . الا ترى الى قول سخيلة جارية عامر بن الضرب العدواني ، لما تحير في ميراث «الخنثى» — وهو حكيم الجاهلية — : اتبع القضاء بالمبال .

ولما فرجت عليه ما أهمّه قال لها : اصبحت امسيت ، لانها كانت ترعى غنما له ، ولا تسرحها الا بالضّحى . ولما صارت شيخاً له قال لها : افعلي ماشئت ، بعد ما كان يعاتبها على التأخير . وكان الامام الشافعي في حلقة درسه ، فاذا رأى رجلا قام له ، وذلك [11] الرجل من العوام ، فقيل له في ذلك ، فقال : الحرّ من رعى الوداد ، ولو لحظة ، وعظم من استفاد (منه) ولو لفظة ، فقيل له : وما افادك (به) هذا العّامي ؟ قال : كنت لا اعرف علامات بلوغ الكلب ، فقال لي ذلك العامي : علامته اذا صار يرفع رجله للبول .

قلت : ومازال الناس يفتخرون بكثرة الشيوخ ، فكان للامام مالك تسعمائة ، وللبخاري اكثر . ومن العجب ان ابن جماعة الكناني الشافعي له ــ كما قال السيوطي في «**حسن المحاضرة**» ــ ألف شيخ وثلاثمائة . وكان العلماء اذا ذكروا ابن مالك وقوة علمه يقول ابو حيان (الأندلسي) : فأين شيوخه ؟ يغض منه لهذا السبب .

أقول : أول شيوخي والدي الشيخ احمد ، قرأت عليه الى «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا ... [12]» ، وانا صغير جدا . وأول بدئي من سورة «اذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ [13]» . ولم أقرأ «أ.ب.ت.ث. [14]» الخ وتعلق في حفظي ما تحتها [15] من غير تعليم/ ولم يعلّم لي احد الحروف بنقشها [16] ، ولم اتبعها ابدا ، بل بدأت من السورة المذكورة اكتب بيدي . ثم سافرت ، كما مرّ أُحْمَل على الرقاب ، فذهب بي اخي الى الشيخ علي التلاوي ، فلم احسن صورة «الفاء» فقرعني لرأسي ، فلم اعد اليه ، ولم اقرأ بعده على معلم صبيان ابدا ، وانما اكتب على طلبة الشرائب ، فعن قليل صرت أفتى (أملي) لهم . ولما جمعت القرآن اتيت الى الشيخ منصور الضرير ، صاحب القراءة المتقنة ، والأحكام الموقنة [17] أخذها على الشيخ ابن ثابت ــ كما مرّ ــ وابن ثابت أخذها على الشيخ ابن القاسم [18] بن توزينت المستشهد [19] بوهران عند «**الحاسي الأحرش**» سنة ثمان عشرة ومائة وألف [20] وكان الشيخ المذكور أسقي لبيته الماء وأقرىء اولاده ، وأفلي له كل يوم القمل ، فدعا لي بقريحة ، فتقبل الله منه ، وظهرت عنده في القرآن وعلومه ، ونسخت له «**ابن شعيب**» [21] على الفرائض . ولي خمسة اشياخ من تلامذته ، لأنه قال لي صحح لوحتك عليهم ــ أولا ــ ثم ائت عندي . وكنت من جملة اهله وبناته واولاده . فهذه ثمانية شيوخ لي في القرآن العظيم . واما الاحكام فلم اروها [22] الا عليه فقط ، فكنت فيها [23] اعجوبة الزمن : حفظا ، وفهما ، الا «**ابن الجزري**» [24] ، فاني قرأت فيه قليلا . ولما سرّحني ــ رحمه الله ! ودعا لي ــ جلست في حلقة شيخنا السيد محمد ابن مولاي علي بن سحنون : قاضي «**أم عسكر**» لاقرأ الفقه . ثم في حلقة شيخنا السيد علي بن الشنين ، وحصل لي من الوليّ الصالح الارضي الأمضى السيد الموفق بن عبد الرحمن الجلالي : نبذة صالحة . ثم ذهبت [25] لـ «**لقيطنة**» ذات يوم ، أسأل في البيوت ما

يأكل الطلبة ، ووقفت بباب الجامع ، فاذا [26] نوالة كبيرة بمحرابها وعن يمينه بيت الشيخ المشرفي ، وانا في خرق واسمال مخلل بعضها الى بعض [27] ، فرأيت الشيخ مصطفى بن المختار : — احد تلامذة الشيخ المذكور — يدرس في (القسم) الأول من «**المختصر**» [28] . ثم رجعت بعد ساعة ، فرأيت الشيخ مصطفى المهدي يدرس في (القسم) الثاني ، ولم يبال [29] بي احد من الطلبة ، كأني «نِسْياً مَنْسِياً» [30] . وفي خرقي كسور [31] ودقيق مصرور . وذهبت الى مدينة الشيخ على بن احمد ، فوقفت بالباب ، فوجدت الشيخ السيد [32] البشير بن محمد يدرس ، ونسيت ما يدرس فيه : هل فقه ؟ أو نحو؟ ولما رآني امير البنائين : علي المقصوري — وقد [33] تعجب من حفظي ولفظي ، وقراءة الطلبة القرآن عليّ ، على صغري — رتبني ، وأنام بين اهله . رحمه الله ! آمين ! . وغفر له ! آمين !.

ولما ذكرلي الطلبة «**مازونة**» وكثرة مجالسها ، ونجابة طلبتها ، وقريحة اشياخها سافرت اليها ، ومررت في طريقي على الشيخ الرباني ، والهيكل الرحماني [34] السيد محمد بن لبنة ، كما مرّ ، فسكنت — لما وصلت — «**قرية الغيران**» ، احدى جهات «**ابي علوفة**» . فكنت اقرأ النهار وأصرف [35] ما آكل في الليل . فاول مابدأت على الشيخ مصطفى بن هنى . ثم الشيخ محمد بن ابراهيم . ثم الشيخ مصطفى ابن يونس . وناهيك به في الثاني [36] ! فيتقنه اتقان المثاني وله صوت حسن كرنة المثاني (وقد وجدت أولئك الشيوخ — اذ ذاك — بعضهم مشهور بمعرفة الأول ، والبعض بمعرفة الثاني) [37] والبعض مقصور على الفرائض ، لا يتعداها [38] ، ولا يعرف سواها [39] ، الا ان المقصور عليها [40] هو حجة فيها [41] ، كما قال البغدادي [42] في حاشيته على ابن هشام لشرح «**بنات سعاد**» : ان ابن عصفور لا يعرف الا النحو ، الا انه حجة فيه ، واسمه علي . ولذا قال ابن المنير [43] فقيه اسكندرية :

بدىء النحو بـ «علي» وقل — بحق — ختم النحو بـ «عليّ» . اراد بقوله «عليّ» : ابن ابي طالب — رضي الله عنه ! — و «علي» بن عصفور وقد وقفت على شرح مطوّل في الفرائض للشيخ الزناتي . وقد توفي — رحمه الله ! — قبل مجيئي ، فقرأت على الشيخ البدالي . وهو معروف بالفرائض ووالله لو ذهبت [44] لحصلتها [45] من رأسه وحفظه . الا ترى الى عُزير — عليه السلام ! — في حادثة «بختنصر» في القدس ، ما بقي من يحفظ «**التوراة**» غيره ، فاملاه من حفظه في مجلدات ، فافتتن [46] به اليهود ، فقالوا : «عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ» . وان «الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ» [47] . وقال ﷺ ! «عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ» [48] . قال (عبد الله) ابن ابي جمرة : اي لبني اسرائيل . وهو غير ظاهر ، بل المراد ان علماء بني اسرائيل على كثرتهم داخلون تحت حكم التوراة . والعمل به لا يخرج عنه أحدا ، سواء أوحي اليه ام لا . وان «**زبور**» داوود — عليه السلام ! — مواعظ فقط ، ولذا

لما قال لهم عيسى ــ عليه الصلاة والسلام !ــ «وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ» [49] أبوا وامتنعوا وخاضوا وعصوا أمره . وان علماء هذه الأمة كلهم داخلون تحت القرآن والحديث ، لا يتعدونهما هذا هو الحق في الحديث . وأما إرث العلماء للأنبياء [50] فان الأنبياء لا يورثون ، وانما ورث منهم العلم ، لا المال [51] . هذا معناه وتحقيقه . فشد يدك على معنى هذين الحديثين ، وعظ عليهما بالنّواجذ . لا ترى معنى لهما غير ما ذكر واحدا .

ثم اني انتقلت من قراءة شيوخ « أبي علوفة » المذكورين ــ وهم أربعة ــ كما مرّ لنا ــ [52] الى القراءة على شيوخ «مازعنة» ، فجلست في حلقة العالم الكبير ، الفقيه الشهير الأحظى الأرضي الأمضي الأفضل الأنبل الأمثل الأقبل ، الذي ركض في ميدان المجاهدة ، ووقف في مقام المشاهدة ، السَّنّي السُّنّي ، الخاشي الخاشع ، الأمجد الأنجد : شيخنا الشيخ ابن علي ابن الشيخ أبي عبد الله المغيلي ، ذي القراءة الصحيحة المؤسسة ، والطلبة على بابه مقبلة ومعرسة ، كأنه عبد الحميد [53] أو أبو الفتح (محمد)ابن دقيق العيد/ . فكنت من جملة تلامذته ، ومعدودا من طلبته فقعدت في طرف الحلقة ، للزحام الكاض ، والضيق الفاحش الهاض ، فكانت في الأعيان كحلقة (أحمد)ابن تيمية التي مدحها (محمد)أبو حيان ، وليس الخبر كالعيان ، فاستفدت طرفا نافعا ، وأنا في السن يافعا ، ثم نهض بي علمي وفهمي ما لديه ، الى أن جلست بين يديه ، وكنت في درسه دوّالا [54] ، وللصواب في صور «المختصر» [55] قوّالا . فكأن لي منه بركة ونوالا ومنالا ومهابة وجلالا . وصار يلحظني بعين رضى ، ولم أر منه قط اغضاء .

وكان القاضي (محمد)بن عبد السلام لا يحصلّ له النشاط في البحث والقراءة بالكدّ والحث ،الا اذا رأى ذا التحقيق والمعرفة وهو تلميذه الامام (محمد)ابن عرفة ، فكثيرا (ما) يعترض فتواه بلحنه وفحواه ، مع انها على قواعده تجري : كمسألة اشهاد الشفيع في غيبة المشتري ، كذلك كنت اتكلم في مجلس شيخنا المذكور ، واناقشه بما في الامهات مزبور : كمسألة دين المهر يسقط الزكاة وان اجل الى موت او بتات . وكمسألة خمر يتخلل رهن في دين عليه ، من ان ذلك رزق ساقه الله اليه ، الى غير ذلك مما لا يحصى بعد ، ولا ينضبط بحدّ .

ومنهم : شيخنا المسن ، وليس به توان ولا كسل ولا وهن [56] ، الذي أروى قلوب الطلبة برحيق مختوم تقريره ، وزيّن افهامهم [57] بنظم قلائد تحبيره ، وحلّى ظواهرهم بآداب نهيه وأمره ، وملأ بواطنهم بنفائس سرّه ، ليكون حصنا من كيد الشيطان ومكره ، فلا يحوم حولهم معارض بسهمه ولا ساحر بسحره ، الذي افني [58] عمره بين تلاوة ودراسة ، وذكر ونافلة : شيخنا السيد العربي ابن نافلة . صاحب الاصول والفروع ، لها غروب في الأفئدة

وطلوع ، وبراهين لها ظهور وسطوع . يبين لهم ما خفي من معاني «**المختصر**»[59] وألفاظه ، ويجيبهم بما تقرّ به أعين قُرّائه وحفاظه . وكان ــ رضي الله عنه ! ــ اذا املى عليه قول المصنّف : «وان قدر على شيه فله أخذه» ، يقول : ما تقدم أيها الطلبة ؟ فيبادرة الحذاق بقول المصنف : «وليس له الأخذ منها لمن ظلمه بمثلها» . فيتبسم/ قرأت عليه ثلاث سردات [60] في ثلاث سنين ، فلا [61] يمسك كتابا ، ولا يقرؤه في مجلسه ، وانما حوى ثاني «**المختصر**» [62] حفظا ومعنى ولفظا . وكان ابنه : السيد أحمد من شيوخي ايضا . فكلّ ما أشكل عليّ في مجلس ابيه فهمّه لي أتم فهم . لله درّه [63] ! ما أعلمه ! وما افهمه! وما اتمه في تأمله وبيانه ، لولا رتّة في لسانه . له تقرير لطيف ، تبيّن لي فيه ما صعب عليّ بلا تكلّف ولا تكليف . ما احسنه من شيخ ، زاهد ، وورع عابد ، صاحب برهان واتقان ، ومعرفة وايقان ، قال زهير (ابن أبي سُلْمى) [64] :

وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِّيَّ إلَا وَشِيجُهُ [65]   وَتُغْرَسُ إلّا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ

إذا طاب الماء فهو من طيب رمله ، واذا زكا الفرع فداك من عمدة أصله ، قال رؤبة [66] :

بِأَبِهِ اقْتَدَى عَدِيٌّ فِي الْكَرَمْ   وَمَنْ يُشَابِهْ أَبَهُ فَمَا ظَلَمْ [67]

خال من حقد وحسد ، وما اشبه الشبل بالأسد ، أي : ما وضع الشيء في غير محلّه ، وانما [68] ناول الكتابة قاريها [69] ، وأعطى القوس باريها .

ومن اجلّاء اشياخي ــ أيضا ــ وأكثرهم حفظا ، وأتقنهم للمصنف [70] معنى ولفظا ، الّذي ليس لقمره (المنير) [71] افول : شيخنا محمد الصادق ابن افغول ، شيخ الاسلام ، الحافظ الزاهد ، الورع الناهد ، التقيّ الناسك ، الصوفي السالك ، ذو الخبرة التامة بعلم الشريعة ، فكل مسألة صعبت على غيره فهي له مطيعة ، الجامع بين العلم والدين ، المقتفي سبيل الهادين المهتدين من الأقدمين واكمل المتأخرين . انتهت اليه رئاسة التدريس وشدت اليه الرحال من حوالي «**زواوة**» و «**غريس**» . لم أر مثله فيمن رأيت ، ولا حملت على اجل [72] منه فيما رويت ورويت . وكان للعلوم جامعا ، وفي فنونها بارعا ، مقدّما في معرفة الحديث على اقرانه ، منفردا بهذا الفنّ النفيس في زمانه ، أزكى المعية ، وأذلّ اللوذعية ، لا يشق له غبار ، ولا يجري معه سواه [73] في مضمار . حسن فهم السنة والكتاب ، بنكة تسحر الألباب . وفكر يفتح له غيره ما استغلق من الابواب ، مستعينا برواية علوم ، ومدارك فهوم . أوقف نفسه على تدريس العلوم وقصرها ولو شاء العاد ان يحصر كلماته لحصرها ، ومع ذلك له بالتجريد تعلّق ، وبكرامات الصالحين تحقق . وله مع ذلك في الأدب باع ، وكرم طباع ، لم يخل في بعضها من حسن انطباع . رحمه الله [74] !

ومنهم : ابنه شيخنا السيد محمد ، الأسعد الأمجد ، الأنجد الأرشد . فمن رآه قال : ما اشبه الشبل بالأسد فانه — رحمه الله ! — كثيرا ما يفتح علي ما صعب في مجالس (75) أبيه ، فكنت جعلت معوَّلي عليه ، ولا أجلس في حلقة أبيه إلا إليه ، فحصل لي منه حظ كبير ، وخير في ثاني «**المختصر**» كثير ، مبارك أثير .

ومنهم : شيخنا الورع الزاهد ، المستحضر ، لنظائر «**المختصر**» والمعاهد ، السيد أحمد بن نافلة المشهور ، أخو شيخنا الاستاذ سيدي (76) العربي المذكور . ونظرت عليه في «الثاني» (77) فكان لَه به خبرة كخبرته (78) بالمثاني ، واسع المجال في تحقيق الصرف وبيوع الآجال ، يعرفهما على التفصيل والاجمال .

ومنهم : شيخنا الحبر الجليل ، السيد اسماعيل ، ليّن الجانب للأقصى والداني . لله درّه ! ما اعرفه بشرح السوداني .

وحضرت مجلس السيد محمد بن عبد القادر القاضي ، المسهل به التقاضي المؤيد به المتقاضي ، اجل قضاة «**مازونة**» المستقبل منهم والماضي ، فقرأت عليه نفائس كانت في لُبّي كالنقش في (79) صورة من عاج في الدّمى ، من «باب القضاء والشهادات واحكام الدماء» .

وحضرت — أيضا — مجلس الصالح الوالي ، شيخنا السيد محمد بن عوالي : الزلماطي المحب الزاهد الانيس ، كان يسرد لنا يوم الجمعة والخميس وقد استفدت — على صغر سنّي — مثل سنّ ابن جنّي من كثير من الطلبة يشق حصرهم .

وقد حضرت حلقة الشيخ محمد ابي طالب من نسل الشيخ عبد العزيز البلداوي ثلاثة ايام في «الباب الاول» من «كتاب النكاح» ، فاعرضت عنه . مع ما يدعيه من اشارات غيب ، ولا يلحقه فيها عندهم عيب ، ويقول لكثير العوام من الطلبة : اذهبوا لأرضكم تدرسون ، ولا يصعب عليكم ما تستنبطون وتقيسون . فاذا بهم في غاية البلادة لا يفهمون ما يُقال ، وغرّوا بذلك إمّعة الرجال ، فلا يطيقون شيئا سهلا او بتكلف ، ومع ذلك «يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ» (80) .

وكان (81) يعمل أسواقا حافلة باجابة ما يقول على زعمه كافة ، ويعدهم بالدعاء في ذكره والفريضة والنافلة فكلّ يدفع مالا للظفر بما اراد ، وطلب وارتاد ، حتى يجمع من ذلك مالا وفيا «يَحْسِبُهُ الضَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً (82) » . وثمّت ناصحون لمن شك في الكرامات ، واستراب أقاويل الشيخ ، بمثابة السراب والريح الشمال أو الجنوبية أو

المواعد العرقوبية . وحكيت لي عنه فلتات وهنات ، ومثالب لمثله آفات ، هذا وقد قال الشيخ أحمد بابا في « **كفاية المحتاج الى ما غفل عنه صاحب الديباج** » ما نصه ــ لمّا ذكر الشيخ أحمد بن علي المنجور الفاسي وتآليفه وشيوخه وتلامذته وتبحره في العلوم [83] ــ : « ومع ذلك كان ينبذ بكبار الهنات . عفا الله عنا وعنه ! » [84] .

وقد كان السيد عبد القادر بن محمد بن سليمان السماحي ، ثم الحمياني ، المشهور بـ « **الشيخ** » ، له مثل هذا . وقد تعجب اهل الصحراء في نظريته ، وولايته ، ومكاشفته ، حتى كادوا يدعونه « **الاله** » [85] ، ولم يخافوا في انهماكهم ــ هذا ــ من الله . نسأل الله العافية ، وصفاء السريرة الصافية ! التي ليست بمدخولة ، ولا منحلة ، ولا حافية [86] .

وكان هذا « **الشيخ** » في اثناء القرن الحادي عشر [87] . وكان معاصره الشيخ الجليل ، العلّامة النبيل ، ذو المنصب الجلي . السيد أبو العباس أحمد بن ابي محلّي [88] ، المساوري دارا ، العباسي نِجارا ، المراكشي اقبارا ، شيخ الشيوخ ، وبقية أهل الرسوخ ، حتى ان الشيخ سعيد قدورة من جملة تلامذته ، فضلا عن قرابته وحفدته . وكان لم يعجبه ما يفعل السيد الشيخ المذكور . ويكاتبه باللجأ الى السنة التي عليها الدين يدور ، فجعل مواعظه نسيا منسيا ، ونبذها وراءه ظهريا . ولما أيس من ارعوائه وانزجاره ، واقباله على البدعة في اصعاده واصداره ، وقبضه ومراحه ، وغدوّه ورواحه ، ألّف فيه كتابين كانا من العجب العجاب ، يبهر العقول ويسحر الألباب ، اترعهما بالمواعظ والمقارع ، وسلّمهما البادي والبارع . سمّى احدهما « **الاصليت ، في قطع حلقوم العفريت النفريت** » وسمى الآخر بقوله : [89] « **منجنيق الصخور ، في هدّ بناء شيخ الغرور** » .أبدع فيهما غاية الابداع ، وقرع بهما الأفئدة والأسماع . فكان أجل من عمل بحديث رسول الاله ، وهو « إِذَا ظَهَرَتِ الْبِدَعُ وَسَكَتَ الْعَالِمُ لَعَنَهُ اللَّهُ » [90] . وقدْ قال ــ صلى الله عليه وسلم !ــ لخادمه أنس بن مالك : « كَيْفَ بِكَ إِذَا عِشْتَ حَتَى تَظْهَرَ الْبِدَعُ ، وَتَصِيرَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ الْحَسَنِ ، وَأَهْدَى سُنَنٍ فإذا تَرَكْتَهَا قَالُوا : هَذَا أَنَسٌ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ تَرَكَ السُّنَنَ ، فَيَعِيبُونَكَ بِمَا هُوَ لَكَ حَسَنٌ ؟! » .

وقد ظهر ما أشار إليه رسول الله [91] ــ صلى الله عليه وسلم !ــ بعلم الغيب ، بلا شك ولا ريب ، في الأعصر التى كثرت فيها البدع واللجاج ، لاسيما في زمن الأمير الحجاج ، ألا ترى إلى الغلام الذي دخل عليه وأواه إليه ، وأجلسه بأشرف مكان ، لكونه كان [92] يحب أهل القرآن ، ثم قال له : اسمعني شيئا من تلاوتك وصوت قراءتك ، فقال : «أعوذ بالله من الشيطانِ الرجيم » .«إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ

النَّاسَ» ـ يخرجون ـ «من دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً» [93] . فقال له الحجاج : أفسدت ـ يا غلام ـ «يَدْخُلُونَ» ، فقال له : نعم ، كانوا يدخلون في دين الله في زمن رسول الله ـ ﷺ ـ وزمن أصحابه المهديين [94] وأما في زمنك ـ هذا ـ صاروا يخرجون ، ولا يعودون . فبهت الحجاج ولم يدر ما يقول . انتهى (نسأل الله العافية [95]) .

ومنهم : شيخنا الذي ارتدى بالنزاهة يافعا وكهلا ، وكان للتلقيب بـ «**شيخ الاسلام**» أهلا . أمجد النظار ، السيد أحمد بن عمّار ، عالم الجزائر ، أمنها الله من سوء الدوائر ! كان غاية في الحديث والأدب ، ينسلّ اليه من كل حدب ، تولى بها زمنا الخطابة والفتوى والامامة ، ثم عزفت له بها الاقامة ، فرحل للحرمين الشريفين ، ذوي ظلال الشجرتين الوريفتين ، بعد ماأخرج بالجزائر الأساتيذ من التلاميذ والفقهاء النحارير ، والعلماء الجماهير ، وقد جعل علىٰ (أحمد) الخفاجي [96] حاشية عاطرة الأنسام ، قبلتها ثغور أزهار العلوم في افترار وابتسام ، المنظومة في سلك التحقيق عقدا مكنونا ، الجارية بفنون الافادة في بحورها فلكا مشحونا ، فتقلدت بعلومها كاعب الدنيا وتحلت وألقت اليها أرض البلاغة ما فيها وتخلت ، كيف لا ؟! وهي من تآليف ذي القدح المعلى ، ولكماله التاج المحلى ، حبر الأكارم ، وبحر المكارم ، تاج المفاخر ، وقليل «**كم ترك الأول للآخر**» . علا بعلمه واعتز ، وماثل في الأدب ابن الخطيب وابن المعتز ، وفك فيها بذكائه كل عويص جليل ، وشابه بذكائه اياس بن معاوية والخليل ، وألقت إليه رئاسة العلوم زمامها ، ووقفت الأعلام دونه بمراحل ، فصار امامها ، لازالت تتلى من محاسنه التحقيقات ، وتتوالى عليه لطائف الترقيقات ، ولا برحت رياض علمه تفتر عن ثغر التحقيق مباسمها وتتأرج بالاخلاص نواسمها ، وزاد هلاله في أفق الفضائل سموا ، وفي جلاله نموا . واني أتمثل في حقه بما يقتضيه الأعز مقامه بانشاد عجيب قرير عطير [97] ، يستوقر الحليم عن وقاره ، ويستوقف الطير في الهواء [98] ورزق بنيه في منقاره ، وتذهل المجتاز [99] ، ولو كان علا أو فاز . وهي هذه [100] :

الْعَالِمُ الْعَلَمُ الَّذِي أَحْيَا لَنَا ... مَا قَدْ أَمَاتَ الدَّهْرُ مِنْ نَعْمَائِهِ [101]
لَعِبَ بِأَطْرَافِ الْكَلَامِ لِسَانُهُ ... وَالْفَضْلُ مَوْقُوفٌ عَلَى تِبْيَانِهِ
فَامْنَحْ إِلَيْهِ السَّمْعَ عِنْدَ حَدِيثِهِ ... تَسْمَعْ فَصِيحَ الْقَوْلِ مِنْ سَحْبَانِهِ [102]
أَوْجُلْ بِذِهْنِكَ فِي مَحَاسِنِ نَظْمِهِ ... تَظْفَرْ بِبَحْرِ الشِّعْرِ مِنْ حَسَّانِهِ [103]
مَا خَاضَ يَوْماً نُطْقُهُ فِي حِكْمَةٍ ... إِلَّا اخْتَفَى سُقْرَاطُ [104] بَيْنَ دِنَانِهِ
وَطَلَعْتَ فِي أُفُقِ الْفَضَائِلِ كَوْكَباً ... يَسْطُو بِجِنِّ الضُّرِّ أَوْ شَيْطَانِهِ
فَافْخَرْ أَبَا عَبْدِ الالَهِ وَجُرَّ مِنْ ... حُلَلِ الْبَيَانِ فَأَنْتَ مِنْ فُرْسَانِهِ
فَالْعِلْمُ أَنْتَ الْيَوْمَ خَائِضٌ بَحْرَهُ ... وَالشِّعْرُ أَنْتَ الْيَوْمَ رَبُّ عِنَانِهِ
لَا زِلْتَ ذَا شَرَفٍ وَعِزٍّ بَاذِخٍ ... يُضْفِي عَلَيْكَ الدَّهْرُ ظِلَّ أَمَانِهِ

وقد بقي في الحرمين حتى توفي فيهما . أسبل الله عليه ما يعطّر أردانه ، وأحله من رياض الفردوس حيطانه .

وقد [105] استفدت من الشيخ القاضي السيد محمد بن جعدون [106] بعض الفوائد ، وأنلت منه عوائد روائد ، فكان للفقه مشمرا وفي السن معمرا ، حكي لي أن طلبة (مدينة) الجزائر كلهم تلامذته ، وكذا بنوه وحفدته . رحم الله تربته ، وأزكى أوبته ، وأخلص توبته .

ومنهم : شيخنا العارف الرباني ، والهيكل الصمداني ، الشيخ محمد بن عبد الرحمن التلمساني القاضي الذي يطيب للخصماء به التراضي — من نسل عالم المذاهب الاربعة ، الشيخ احمد بن الحاج المانوي — علم تلمسان وعالمها ، وعاملها وقاضي الجماعة بها ، شيخ الاسلام ، الحبر الهمام ، الزكي الامام [107] ، بحر متلاطم الامواج ، منهل يعذب بقاع الفجاج . جمع متفرقات العلوم ، ومجهولها عنده كالمعلوم ، ذو عفة وصيانة ، ونزاهة وديانة . لم تعرف له قط صبوة ، ولم تحفظ له هفوة . فالمخفي في وصفه بغير المعروف الوارد ، انما يضرب في حديد بارد .

قد [108] رحل الى مصر في طلب العلم الظاهر ، وباطنه المتظاهر ، فاخذ عمّن يعيد ويبدي ، كالشيخ السمّان ومحمود الكردي ، وغيرهما ممن له تفصيل ومجاملة ، بعلمي المكاشفة والمعاملة ، حتى فتح مختومها ، واتقن معلومها ، وأوضح أشكالها ، وحلّ أقفالها . فهو وحيد الاوان ، وعلّامة الزمان . ما قرن به عالم الا رجحه ، ولا ألقى إليه مبهم الا وضحه . عدل في احكامه ، مراقب الى الله — تعالى ! — في فعله وكلامه . بحق الله قائم ، لا تأخذه فيه [109] لومة لائم . له نزاهة عن الدنيا ، وهمّة نيطت بـ«الثريا» . سمعت في درسه فوائد ، وأهدى لتلامذته موائد ، ولاسيما علم المعقول ، فما لأحد مثله فيه حصول . ألحق عوام تلمسان بالفقهاء ، وسفهاءهم بالنزهاء . رحمه الله ! وبرعايته تولّاه !.

ولما عزل عن القضاء والمناصب التي تحمد وترتضى ، سمت به همته ، ونمت به رفعته الى الرحلة الى المشرق ثانيا ، غير متكاسل ولا متوانيا ، ونبذ تلمسان نبذا كليا ، واتخذها وراءه ظهريا . وقد قيل له : ان للابهار باعا وضياعا وغلّة ، حتى الزيت لك منها خمس عشرة مائة قلة . ومسقط رأسك ، واصل نشأة ناسك ، فقال : هيهات ، قد طلّقتها بتاتا ، قائلا : فما قلبي اليها يرجع ويسفر ، وكم من مثلها فارقتها وهي تصفر .

فودّعها وداع من لا يعود ، واعرض عن العشائر والأقارب والأهل وأضرحة الجدود . فلله درّه ! ما أعظم أمره ! .

ولحق بالحرمين الشريفين ، وأخذ معه من العسجد اكثر من ألفين ، فضلا عن الورق

الوريق [110] الرقين ، فعبد الله فيهما حتى أتاه اليقين . أسعد الله منيته [111] ! وأنس في الضريح غربته !

فاعملوا مثله أيها المقيمون على الضيم الناسون ، بل لمثل هذا [112] «فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ» .

بعدما بلغ كل امل ، لقي [113] الله على خير عمل .

ومنهم : الكوكب الدرّي ، شيخنا الشيخ البيدري ، الأنجد الماجد ، ابن الشيخ [114] ، سيدي حامد ، أخذت عنه نبذة صالحة ، وأنفقت في سوقه تجارة رابحة .

وكذا : الشيخ النحوي السيد العربي بن قيزان ، أرجح الله علمه وعمله يوم تخف الأوزان ، ويلقى ما شان ويقبل ما زان ، كنز الأغانيم ، وعالم مستغانيم .

وكذا : الشيخ الماجد الابر الزكي السخي الولي العالم العامل الكامل الفاضل الحافل الواصل الأرضي الأمضي الأحظي الحليم ، السيد [115] أحمد بن عبد الحليم ، فخر القضاة ، الساعون [116] في الخيرات ، وما فيه مرضات .

ومنهم :شيخنا علم أعلام المعارف ، ومعظم حلل الدين والمطارف [117] ، انبسط في العلم بنباهته ، وانقبض عن العالم بنزاهته . انتفع به كثير ، وحصل له من القبول حظ كبير ، قمع الباحث الألدّ ، ومزج الهزل بالجد ، راقيا إلى سرادق [118] الأب والجد . محكم الأصول ، متقن الفصول ، وفيُّ الأغراض باختصار وايجاز ، ومأخذ ينسب الى الاعجاز ، مع قبول تنبيه [119] ، ولطف توجيه ، واصابة تنظير ، واجادة تنقير ، قلما ترى مثله في الأصول وأبرع ، وفي نقول الفروع وأبدع ، مع ما عنده من علم الطريق . وقد وفقه الله فيه أحسن توفيق ، وأصالة توثيق ، كأنه شيبان الراعي ، أو الجنيد الذي لساعات التهجد مراعي ، أو شقيق البلخي أو تلميذه حاتم الأصمّ ، أو تلميذ الأصم ابراهيم الخواص أو ابن أدهم ، أو ذو النون المصري ، الذي على سن الصحابة والتابعين يجري ، الذي هو في مقام المرسي أو الدبوسي . شيخنا ووسيلتنا الى ربنا أحمد بن عبد الله السوسي المغربي نجارا ، التونسي دارا ، ووفاتا واقبارا . ضاعف الله حسناته واحسانه ، وأحله من رياض الفردوس ميطانه ، وأتحفه بعرائس حور ، حسنات الخدود والنحور ، وقد قلت له يوما ــ سنة خمس ومائتين وألف [120] ــ : أحببت أن أكون من تلامذتك الراغبين في اجازتك ، وان لم أكن لذلك أهلا ، فيكون ذلك منك لنا وبلا [121] ، كي تهب عليّ نفحاتكم ، وسناء بركاتكم ، فأجازني في جميع ما يتعلق بالدين ووصائله وفروعه وأصوله ومسائله . وكتب لي بخط يده

حفائظ كأنها عقيان أو درر ، فهي عندي من نفائس [122] ما يقتنى ويدخر . وكان ـــ رضي الله عنه ! ـــ على قدم من متانة الدين والتحقيق بكثير من مقامات اليقين : كالورع والزهد ، والقيام بالحق على قدر الطاقة والجهد ، وقد ظهر على يده كثير من الكرامات المؤذنة ببلوغ سناء المقامات [123] ، مما لا يختلف فيه اثنان ، ولا يجهله من له خبرة بأحوال الأعيان . ممتع المجالسة ، طيب المؤانسة . ولولا المدد الوارد من تلك الحضرة ـــ وان لم يكن العبد له أهلا ، ـــ ما حام حول هذا المشرع ولا جال بمرجه خيلا ولا رجلا . فما هي الا نفحة من نفحاته وبركة من معهود بركاته ، وقطرة من سحائب [124] جوده الطيب ، ونسمه من روض [125] عراره الطيب ، كما قال الشاعر الحكيم أبو الطيب (أحمد بن الحسين المتنبي [126] .)

وَأَخْلَاقُ كَافُورٍ إِذَا شِئْتُ مَدْحَهُ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ تُمْلَى عَلَيَّ فَأَكْتُبُ

وقد أثنى على هذا الشيخ غير واحد من الأكابر ، وأرباب البصيرة والبصائر . فالبصيرة كالبصر ، أدنى شيء بغير النظر . ولما توفي ترك ألفي كتاب ومائتين [127] . رحمه الله !

ومنهم : الشيخ القاضي ، الذي فيه نهاية الرضى والتراضي . منبع التقوى ، صحيح الفتوى ، كثير الجدوى ، الذي كاد أن يكون فيها كابن يونس ، سيدي محمد بن قاسم [128] المحجوب عالم «**إفريقية**» وتونس ، العالم العامل ، المفيد الجامع الشامل الفاضل الحائل الكامل المشار إليه في سماء المعالي بالأنامل ، الصدر الأوحد ذو الأفعال والخلال السنية وسناء الخصال ، شيخنا ومولانا وملاذنا الامام عالم الأعلام . وحامل راية الاسلام ، الحسيب الأصيل ، الجميل الجليل . الحافظ المشاور المقدم الألمعي ، المكرم السند الراوية المرشد ، ذو اليد الطولى والطريق المثلى ، الراسخ السالك في كل مقام ضيق ذو الخصال التي كل ذي لب إليها شيق . أدام الله حراسته بدوام بقائه ، وأطلع على البسيطة «**إفريقية**» أشعة العلوم من تلقائه ! أحسن الله عنه الدفاع ، ونفع به أتم انتفاع . ولما أجلت النواظر في فتواه وحسن أصوله وترتيب فصوله ألفيته / في أرق المراتب وأعلى المنازل ، غير أن قلبي عن الاحاطة بجميل [129] أوصافه نازل ، لأنه أحاط بأشتات المحاسن وغرائب النوازل ، لا يقلقها عتيق البوازل أحرز خصلها ، وجمع فرعها وأصلها ،وكشف نقاب الشكوك [130] وأوضح نتائج الرسوم والصكوك ، المطلع على كل بديعة من علم القضاء والفتوى ، وكل ضيعة تمس لها الحاجة وتعم بها البلوى . وحشد عيون النصوص وخبّر [131] وجند ، ونشر ألويته على كل من درس في الفن وبنّد . فطارت محاسنه بالجناح ، ما بها وصم ولا جناح ، وقد [132] انتشرت

بالأحاديث الصحاح ، ولقد أجاد ونصح ، وأملى وأصلح . وكان للمسلمين بالمشهور والأرجح . وكان الموفق الرشيد ، ذا المنصب العتيد ، المؤيد المنصور ، الغالب بالله ، المتوكل على الله ، سيف السنة الأقطع ، وشهابها الألمع ، أجل من فاخر وتقدم وماشي ، السيد محمودا باشا ، كان [133] يعظّمه اتم تعظيم ، ويقدّمه أفضل تقديم . فهو الملك المظفر المولى ، أولاه الله من النصر والتمكين أضعاف ما أولى ! ووصل به حبل الخلافة ! ولا أرى للمسلمين والاسلام خلافة . فتح الله على يديه داني الأرض وقاصيها ! وملّكه صياصي [134] الكفرة ونواصيها !وأنفذ في مشارق الأرض ومغاربها نهيه وأمره ! ونمّى خيراته وأجره ! وأصلح به أواسط البلاد وأطرافها وأرجاء الممالك وأكنافها ! وذلل به معاطس المردة الفاسقين ، وأرغم به أنوف الفجرة المارقين ! ونشر ذوائب ملكه على القواعد والأمصار ! وأثبت [135] سراياه في سائر الأقطار ! وجعل الملك فيه وفي عقبه الى يوم الدين ! آمين .

وكنت انزلني عليه عمّ هذا الملك : حمّودة باشا : أتحفه الله بالرضوان ! والحفه [136] حلل الغفران ! كان جعله أحد مشيخة الاسلام ، الأيمة الأعلام ، المشاورين صحبة ركابه ، وعلى قصره المنصور وبابه . وها هو الآن بـ «افريقية» يقرىء ويعيد ، ويبدي ويعيد . أبقاه الله [137] للمسلمين والاسلام أسوة ! وحفظ عليه جملة [138] الولد والإخوة ! ونصر الله هذا الباشا وأيده ! على ما أطلق للرعية من المحاسن وقيّده ، ويبوح بشكره الحاضر والبادي ! والرائح والغادي !

ومنهم : شيخنا [139] الذي هو لكل ارمل وغريب مؤنس ، مفتي الحنفية بتونس : السيد محمد بيرم [140] ، كلأه الله ! وأرقى جانبه وأعلاه ! قرأت عليه فقه أبي حنيفة بـ «مختصر الكنز» [141] وغيره ، أذهب إليه في داره ومقره . وهو العلامة المحقق القدوة النظار ، الناظم الناثر الصالح البركة المتعبّد ، ذو خصوصية ولطافة ، حسن المفاكهة ، كثير البشرى والتودد ، نظيف البزة ، خير المنبت ، طلق الوجه ، طيب الحديث ، عارف بالأبواب ، ذو محبة للأشراف ، يمزج الدعابة بالوقار والفكاهة بالنسك ، والحشمة بالبسط ، عظيم المشاركة ، بارع الخطابة ، عذب التلاوة ، متسع الرواية ، مشارك في أصول وفروع وتفسير ، شيخ الشيوخ ، وبقية أهل الرسوخ ، حسن الشكل ، جليل القدر ، عظيم الشأن والأمر ، من الذاكرين الله كثيرا ، حسن الاقراء والتقرير ، ميمون النقيبة ، مليح الشيبة ، بحر في العلم زاخر ، و «خرّيت» [142] في طرقه ماهر ، قائم ناسك صائم ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، له القدم الراسخ ، والمجد الشامخ ، والمنصب الباذخ . الامام في الآداب والبيان والاعراب ، والتاريخ واللغة والأنساب ، والفرائض والحساب . أربى على الفحول في المعقول والمنقول ، وفاق في كل مقول : إمام الحقيقة ، وتاج الحنفية الذين هم من الأمة الحنيفية ،

وقطب رحاهم ، وشمس ضحاهم ، ومفخر مجادتهم ، وواسطة عقد قلادتهم ، وعالم عصرهم وعاملهم ، أحسنهم معنى ولفظا ، وأكثرهم في العلوم حظا .

وكذا : ابنه قاضي الحنفية أيضا . فنارت بهما — بتونس — الأرجاء ، فهما محل المنعة واللّجأ . عزهما قائم ، ونفعهما دائم [143] .

ومنهم : شيخنا ذو الرأي النير الصفيّ ، والمنصب الحفي ، والسرّ الخفيّ ، السيد عبد القادر بن عبد الله المشرفي : أخذ عن العلامة أبي عبد الله محمد المنور التلمساني الكثير من الفقه ، والأصول ، وعلم الكلام ، والنحو ، والبيان . وأجازه ، وأتقن علوما جمّة ، وبرع فيها . وله في التوقيع النهاية . وأقر له كل من رآه بالبراعة والكفاية ، ودفّت [144] له من الطلبة دافّة [145] ، وأذن له اهل عصره كافّة ، لاسيما سيرته الحميدة وعفّته ، ونزاهته الفريدة ، قليل التردد الى الامراء ، فضلا عمن دونهم من القواد والوزراء ، وناهيك من نزاهة ابتدعها ، حتى انهم ان طرحوا عليه خلعة سنية نزعها ، كأنه الامام الجنيد [146] ، أو عمرو بن عبيد [147] ، كان أبو جعفر العباس أمر بطرح طيلسان عليه ، فنزعه من ساعته ، فحلف عليه بالله أن يقبله ، فحلف عمرو بالله لا قبلته ، فقال ابنه : وليّ العهد : المهدي والد الرشيد : أتحنث أمير المؤمنين ، فقال له : يا ولدي أبوك أقدر على الكفّار مني ، ثم ذهب وعين أبي جعفر تتبعه ، ثم قال لجلسائه : «كلهم يمشي رويدا ، كلهم يتحيل صيدا ، إلا عمرو بن عبيد» . وشيخنا — هذا لا يقصر / عن مطاره ، ولا يكون ذهبه الموزون دون قنطاره ، فكان على جانب عظيم من الدين والأمانة ، والتحرّي ، وعزة النفس والصيانة ، لقد كان من الأفراد ، يغلب عليه حبس الانفراد ، وصبورا على الزمن وآفاته ، وقد تقدم لنا [148] تاريخ وفاته ، كان على قدم من الصلاح والورع والزهد وكثرة الصدقة يخضعون له القضاة وسائر الولاة ، ويهابونه ويرجعون إليه ودأبهم تعويلهم عليه في مهمات الدين وفي مصالح عباد الله المهتدين ، وعرض عليه القضاء مرارا فلم يلتفت إليه .ولا عرج عليه ، وانتفع به خلق كثير : شريعة وحقيقة وبرهانا وطريقة ، له دروس حسنة بسلس عبارة ، وألطف اشارة ، يرفع الايراد ، ويبلغ المراد ، ألحق العوام بالأفراد ، والأحفاد بالأجداد ، وتحامى سيرة الأبطال ،وتسامى الى ما يحمد عند الصوفية من المقال والفعال . وله كرامات خارقة ، ومناقب رائقة .

فمن ذلك : ما أخبرني به — رضي الله عنه ! — قال : بينما أنا أمشي عند الشيخ أحمد أمعاز ، واذا برجل لقيني : أحمر ، غليظ ، حاف [149] ، كأنه من رجال «**قلعية**» ، فقلت له : من أنت ، فقال : من الناس ، قال : فقلت له : أنت من عفاريت الجنّ ، أرسلك السيد العربي بن بركان المهاجي [150] إلى الحاج محمد بن مشرف لتضره [151] ؟ فاذا به رجع ثورا عظيما ، وعدا عدو الفرس ، وأنا أنظر إليه ، وذنبه على رأسه ، حتى توارى عني

بشجرة الشيخ اعمر بن عطاء ، كأنه قاصد [152] « **إيفكان** » [153] ، لأن الشيخ العربي به ، وكان في منافسه مع الحاج محمد المذكور ، لأن الحاج محمداً يغري عليه طلبة « **الحشم** » .

ومنها : أن آغة الخليفة « **هروال** » أخذ [154] قافلة شعير لبعض تلامذته [155] ، فبعث لـ « **هروال** » ، فلم ينصح ثم بعث [156] الى آغه : امّا ان تردّ (الفاظه) وامّا ان يأخذك الله بينك وبين الصبح ، « أَلَيْسَ [157] الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ » [158] . فرد ذلك ، فقلت له : فلو لم يردّ ، أينفّذ فيه القضاء كما قلت بلاشك ؟ قال : نعم [159] . **ومثل هذا** : وقع له بمحلّة بـ « **تاسالة** » لم يبيتوه ليلة مطر كثير ، وهو يقول : ضيف الله طائفا بالمحلّة ، فهلكهم الله [160] ، **ومنها** : أني ـــ زمن قراءتي للطلبة بموضعه ـــ سرقت لي نسخة (قرآن) جيدة ، فأخبرته ، فقال لي : تأتي عن قريب ، فوجدتها في حانوت/ بـ« **أم عسكر** » . **ومنها** : أن ظالما من « **الحشم** » سرق كباشا من حلّته ـــ يقال له : عبد الرحمن ـــ فذهب اليه [161] الشيخ ، فوجده يقسم لحمها [162] ، فلما رآه شتمه ، فقال له : يأخذك الله ، فلم تمض عليه جمعة الا وهو بسوق « **أم عسكر** » مقطوع اليدين والرجلين للصوصيّة أخرى ظهرت عليه . **ومنها** : أن قائد « **أم عسكر** » أتى بجماعة من المشارف محزومين من اوساطهم بحبل فذهب الشيخ للباي خليل ، فلم يسرحهم له ، فبنفس [163] ما خرج من عنده أصابه وجع ، كاد يموت منه ، فأمر بردّه ، فرجع ، وسرح المشارف ، وتضرّع له ، فعافاه الله من فوره .

ومنها : ما أخبرني به ثقة : أنه قال له زرته بريا ل[164] ، فوجدت بذلك اليوم سبع ريالات . **ومنها** : أن ابن عمه السيد عبد الله بن أحمد رجع كاتبا عند « الباي » ، فنهاه ، فلم يقبل ، وغلب عليه حب الدنيا ،فدعا عليه ،فلم تمض عليه جمعتان حتى مات . وكان حدثنا عن شيخه(محمد)المنور المذكور أنه كان بمجلسه ، فأتاه رجل ضلت له بقرة أو حمار ـــ قال ـــ فقال لي : يا سي عبد القادر ! ارسم كذا في ظفرك ، فكتبت ، فأراني الله ذلك . وما هذا إلا عجب . وشيخه ـــ هذا ـــ هو الذي وجد الشيخ الرماصي [165] يدرس في المنطق في : « كل الرجال » « يحملون الصخرة » ،فاعترض عليه ، وهذا سبب تأليف الرماصي في المنطق . وقد قيل له ما صدر عن المنور ، فقال ألم أقل العظيمة .**وحدثني أبي** : الشيخ المشرفي أنه ذهب لـ« **قرومة** » في طرف « **متيجة** » . وهي موضع علم ، فتعجبوا منه ، **وحدثني** : ـــ أيضا ـــ أنه ذهب لشيخه : الشيخ ابن الدين الأصغر ، وقلت له : إني أريد السكنى في موضع يقال له « **أبو العوينات** » ، قال ـــ فقال لي : ياسي عبد القادر ! السر في الساكن ، لا في المسكن . **قلت** : ومن هذا ما يحكى أن الزنبور سأل النحلة أن تعلمه نسج الشهدة ، فعلمته ، ثم صار ينافسها ، ويفاخرها ، ويقول لها : أنا خير

منك ، ونسجي خير من نسجك ، وما لك عليّ فضل ، فقالت : ان تساوينا في النسج أو فقتني فيه ، فأين العسل ؟ فسكت ،وتأمل في ذلك فاذا هو لم يقدر على عسل كعسلها ، فقالت له : يا زنبور [166] ! «**السرّ في الساكن ، لا في المسكن**» . أي السرّ في العسل الذي يسكن في الشهد ، لا في نسج الشهد ، فسلم لها ، (واعترف [167]) . وبالجملة فمآثرالشيخ المشرفي كثيرة ، ومزاياه كبيرة . ولما مات في التاريخ المار [168] أوصى أولاده عليّ ، فضيعوا وصيته بعد حولين . حسبهم الله ! قال عبد الله العرجي [169] ــ بفتح العين المهملة ــ ابن عمر بن عثمان بن عفان ــ رضي الله عنه ! ــ فقال [170] :

أَضَاعُونِي وَأَيُّ فَتًى أَضَاعُوا ... لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسَدَادِ ثَغْرِ [171]

وكان ــ رحمه الله ! ــ يوعدني [172] ــ على صغر سني ــ بالمراتب السنية ، والمناصب الزكية ، فبادره أجله ، تقبل الله عمله ! ورثيته بقصيدة من أعجب المناشد ، وتتيه على غرر القصائد ، غرّة شكل وتقصي ، كقصيدة ابن الأبار [173] في أبي زكرياء الحفصي [174] . وهي هذه [175] :

لَقَدْ كَانَ لِلاسْلاَمِ كَهْفاً وَمَلْجَئاً
تَرَاهُ فِي أَقَلِّ الشُّؤُونِ يُبَادِرُ [176]
لَهُ الْبَاعُ فِي كُلِّ الْعُلُومِ بِأَسْرِهَا
سَرِيعُ الْجَوَابِ عَنْهَا لَيْسَ بِضَائِرِ [177]
فَيَا لَوْ رَأَيْتَهُ بِدَرْسِهِ جَالِساً
وَحَوْلَهُ حَلْقَاتُ الأُسُودِ الْهَوَاصِرِ
كَأَنَّهُ قَمَرُ الأُفْقِ فِي غَيْهَبِ الدُّجَى
مِنْ بَيْنِ كَوَاكِبِ النُّجُومِ الزَّوَاهِرِ [178]
فَيَتْلُو فَرَائِداً عَلَيْهِمْ نَفِيسَةً
بِحُسْنِ بَيَانٍ وَاخْتِتَامٍ نَوَاظِرِ
فَتَلْقَاهَا أَنْوَارُ الْقُلُوبِ بَدِيهَةً [179]
كَنَقْشٍ فُصُوصٍ لِلْخَوَاتِمِ بَاهِرِ
يُذَلِّلُ صِعَابَ الْعُلُومِ لَهُمْ كَمَا [180]
يُقَرِّبُ قَاصِيَاتٍ عَنْهُمْ نَوَافِرِ
لَهُ خُلُقٌ كَمِثْلِ «أَحْنَفِ» الَّذِي [181]
غَرَائِبُهُ مَسْطُورَةٌ فِي الدَّفَاتِرِ
تَعَوَّدَ بَسْطَ الْكَفِّ فِي بُحُورِ النَّدَى [182]

لَقَدْ فَاقَ «هَرِماً[183]» وَ «مَعْناً[184]» وَ «عَامِرٍ[185]»
أَيَا تُرَى «الْكَرْطِ» كَيْفَ وَارَيْتَ سَيِّـداً[186]
مَآثِرُهُ مِثْـلُ الْبِحَـارِ الزَّواخِـرِ ؟!
لَقَدْ حَلَّ فِيكَ الْعِلْـمُ وَالْحِلْـمَ وَالتُّقَـى
فَحَسْبُكَ رَهْـنٌ مِنْ كَرِيـمِ الْعَشَائِـرِ
هُمَـامٌ ثَوَى ضُحَـى الْخَمِيسِ لِعَـاشِرٍ
مِنْ شَهْـرِ رَمَضَانَ الْهُـدَى وَالْمَغَافِـرِ[187]
مِنْ سَنَـةِ اثْنَيْـنِ وَتِسْعِيـنَ قَيِّـدُوا[188]
مِنْ بَعْدِ الْمِائَةِ وَالْأَلْفِ أَهْـلَ الْبَصَائِـرِ[189]

وهي طويلة ، وتتلوها أختها الكبرى ولدتها ذات المحل الأسرى ،وهي[190] قصيدة مرثية شيخنا منصور ، الذي هو في أول شيوخنا مذكور ، وكان تأخيري لها ـ هنا ـ لذكر الهيكل الرحماني والنور الرباني الشيخ المشرفي ، رحمهما الله ! ـ وهي[191] :

لَعَمْـرِي لَقَـدْ أَتَـى الزَّمَـانُ بِصَدْمَـةٍ[192]
وَأَمْـرٍ فَظِيـعٍ لَا يُقَـاسُ بِهِ سُخْـطُ
بِمَوْتِ إِمَـامِ الْـوَقْتِ فِي أَرْضِ غَرْبِنَـا
وَبَحْـرِ عُلُـومٍ لَا يَبِيـنُ لَهُ شَطُّ
أُسْتَاذُنَـا مَنْصُور الْمُنِـيبُ لِرَبِّـهِ[193]
كَكَـوْكَبِ سَعْـدٍ سَاطِـعٍ نُورُهُ يَسْطُـو
فِي نَقْطِ «الْهَاءِ»[194] و«الْوَاوِ»[195] يَاصَاحِ قَدْ ثَوَى
مِنْ بَعْدِ الْمِائَةِ وَالْأَلْفِ هَذَا الَّذِي خَطُّوا[196]
لَقَـدْ فُجِـعَ الْآنَامُ مِنْ أَجْـلِ فَقْـدِهِ
وَلَاسِيَّمَـا الْجِـدَارُ[197] وَالْمَغْـرِبُ الْـوَسْطُ
تَلَامِيـذُهُ يَبْكُـونَ مِمَّـا أَصَابَهُـمْ
بَنَاتُ الْهَوَى فِي خَدِّهِـمْ جُعِـلَتْ خَطٌّ[198]
فَكُـلٌّ مِنْهُـمْ قَدْ نَالَ مِنْ سَيْبِ عِلْمِـهِ[199]
فَهَـذَا لَهُ الْـقُصْوَى وَذَاكَ لَهُ الْـقِسْطُ[200]
لَهُ الْغَايَـةُ الْـقُصْوَى فِي مُقْـرِىءٍ نَافِـعٍ
فَلَـيْسَ يُدَانِيـهِ فِيهَـا أَحَـدٌ قَطُّ[201]
فَـ «وَرْشٌ» وَ «قَالُونٌ» وَ «أَزْرَقُ» كُلُّهُم

قَالُوا : قَدْ عَفَا مِمَّا لَنَا : الرَّسْمُ وَالضَّبْطُ [202]
وَلَمْ يَبْقَ لِي إِلَا حَشَاشَةُ مِقْوَالِ
تُصِيبُهُ ذَا الْأَوْهَامُ وَاللَّبْسُ وَالْخَلْطُ
فَقَدْ ذَهَبَ الْقُرَّاءُ مِنْ بَعْدِ عِلْمِنَا
وَقَدْ عَفَتِ الآثَارُ وَالشَّكْلُ وَالنَّقْطُ
يَظُنُّونَ ظَنّاً أَنَّهُمْ مِثْلُ «عَاصِمٍ»
وَهَلْ يَنْفَعُ الْمَشْرُوطُ إِنْ لَمْ يَكُنْ شَرْطُ
وَلَيْسَ صُقُورُ الطَّيْرِ مِثْلَ بُغَاثِهَا
وَطِيبُ الْعَرَارِ لَا يُسَوَّى بِهِ الْخَمْطُ [203]
فَآهاً وَآهاً ثُمَّ آهاً مُؤَكَّداً
عَلَى ضَجِيعِ تُرْبٍ يُقَالُ لَهُ «الْكَرْطُ» [204]
وَثُمَّ عَلَى أُسْتَاذِنَا مَنْصُورِ الَّذِي
بِهِ تَمَّ عِلْمُ الْمَقْرُوءَاتِ فَمَا يَسْطُو [205]
هُمَا كَانَا لِي [206] جَاهاً وَعِزّاً مُؤَزَّراً [207]
وَلِي مِنْهُمَا فِي ذَلِكَ الرُّكْنُ وَالشَّرْطُ
أَيَّامِيَ رَمَتْنِي بِالْخُطُوبِ وَأَرْسَلَتْ [208]
سِهَاماً لَهَا فِي قَلْبِ مَنْ قَدْ رَمَتْ وَخْطُ [209]
فَطَوْراً تَرَانِي – مِنْ غَزَارَةِ دَمْعَتِي –
تُخَدِّدُ أُخْدُوداً بِخَدِّي إِذْ تَخْطُو
عَلَى أَشْيَاخٍ أَضْحَتْ مَرَاسِمُهُمْ بَلَا [210]
وَصَارُوا بِعَاداً فِي الْمَنَازِلِ قَدْ شَطُّوا

وهي طويلة جداً ، كالتي قبلها . ولولا خوف الاطالة لأوردناهما على طولهما ، لكن خير الأمور أوساطها .

ومنهم : شيخنا الامام المشهور ، الذي هو في الاقطار معروف ومذكور ، سيف الله [211] الأمضى ، ووليه الأرضى ، ذو الرأي الأمضى ، والعزم الأقضى ، أبو الفيض الامام مرتضى ، الصالح الصوفي ، الحبر الحنفي ، العلامة الحجة ، الحافظ المحقق الكبير الثقة الثبت الواعظ الفقيه المجتهد النظار الذي طار صيته [212] في الاقطار كل مطار المصنف المُنصِف التقي الصالح الزاهد الورع البركة ، الخاشي الخاشع ، الأواب [213] المفسر المحدث الحافظ المسند الرواية النحوي الأصولي الفروعي اللغوي ، الذي عليه للحقيقة المدار ، وقد شرح

كتاب « **القاموس** » في عشرة اسفار ، وأشهر طريق الصوفية وأحيا ، شرح في خمسة عشر مجلدا كتاب « **الإحياء** » : الأستاذ المقرىء المجود البياني العروضي المتفنّن المحقق المتحلّي المتخلّي المتخلق ولي الله العارف به بلاريب أريب ، الآخذ من كل فنّ بأوفر نصيب ، وبالفرض ، والتعصيب ، الراتع من كل علم في مرعاه الخصيب ، المفتي السُّني السُّني آخر السادة الأعلام ، سليل الأكابر الأفاضل الامام ، ذو التحقيقات البديعة الأنيقة الغريبة الرقيقة [214] ، المتفق على علمه وصلاحه وهديه ، ممّن قل [215] أن يسمح الزمان بمثله ، صالح الأحوال ، صادق الأقوال والأفعال ، حامل لواء السنة ومشهرها ، مُدحض البدعة ومخمدها ذو الكرامات والاستقامات ، ممّن عظم نعمة الله به على خلقه ، فهو من جملة منائحه ورزقه ، معدن الصدق والعلم وزناد الفهم وكمياء السعادة ، وكنز الافادة ، الآية الكبرى في تحقيق العلوم ، مفرط الاطلاع على من هو على غيره غير معلوم .

أما الفقه فهو فيه النعمان [216] ولي فروعه حائز ، والحديث فالبخاري ، ولا حديث منه عائز . فلو رآه ابو يوسف [217] لقر به عينا ، وقال له : طالما دفعت عن المذهب عيبا وشينا والامام محمد [218] لكان معه يجارى ، او الامام زفر [219] لجاد له ومارى ، او الحسن بن زياد لمال الى غرره ، ولتطلّع على حقائق دُرَره [220] ، ولو رآه مجاهد لعلم انه في تفسيره مجاهد ، اومقاتل لقال : تقدّم ايها المقاتل ، او الزمخشريّ لقال : هذا كشاف النكت على الحقيقة ، ونحّى كتابه عن سلوك تلك الطريقة ، او ابن عطيّة ، لظهر له حكم الله من فضل وعطية ، او ابن مالك النبيل ، لقال : هذا احق مني [221] بتصنيف « **التسهيل** » ، او ابو حيان لاختفى منه في « **نهره** » ، ولم يسل له نقطة من « **بحره** » [222] مع الاحاطة بالمقولات ومعرفة متونها ونظم انواعها ووصف عيونها . فاليه الرحلة في رواية ودراية ، ومشكل حديث أو آية . وأما **الاصول** : فالعضد ينقطع معه ساعده ، والسيف يكل حده ولا يساعده . ولو رآه الزمخشري لتجلجل في قراءة « **المفصل** » [223] ، كالثمالي [224] في « تجسل » ، ولو رآه الرماني لرغب وارتاح ، وامتار وامتاح ، بل لو رآه الخليل لأثنى بكل جميل . وأما **البيان** : فلا يظهر للمصباح ضوء [225] مع ظهور الصباح ، ولا يهتدي لفتح صاحب المفتاح . فهذه مواهب الفتاح إلى علوم عديدة ، وفضائل عتيدة ، ومعارف سديدة . **وأما زهده وصلاحه** ، فسارت به الركبان ، والتفق عليه الثقلان ، فالوصف يقصر عن مزاياه ، ومحاسن سجاياه ، فهو الإمام العالم علماً ، جامع أشتات العلوم حفظاً وفهماً ، راسخ القدم ، رافع لواء الإمامة بين الأمم ، سليل الأشراف الصالحين ، وخلاصة مجد التقى والدين . وكان / مكتوب على خاتمه — مع صغره جدا — : « **محمد مرتضى يبغي الأمان والرضى غدا** » . وهو أوفى [226] **الخلق بالذمم** . **ومن مكاشفته** — رضي الله عنه ! — في

أمري [227] أني لما أبت من الحج وقرأت عليه مدة [228] «**البخاري**» ، و «**الكنز**» ، و «**مسلم**» ، و «**رسالة القشيري**» ، البعض من كل ، وأجازني في الباقي ، فقلت : أقيم عندك ، قال لي : لا ، بل أرجع لأهلك . ولم أدر لماذا ؟ فركبت البحر ، وسافرت بعد توديعه ودعائه لي [229] ، فسمعت بموته قبل خروجي منه [230] ففهمت ما أراد ، وذلك سنة خمس وَمَائتين وألف (هجرية) [231] رحمه الله ! وأسكنه من الجنان فسيحه ! ونفعنا وذريتنا ببركاته [232] !

وقد قلت فيه [233] — متمثلاً — [234] :

وَقُدْوَتِي مُرْتَضَى وَشَيْخِي وَمَوْرِدِي [235] ... إِمَامُ الْأَنَامِ الزَّاهِدِ الْمُتَعَبِّدِ
دَلِيلُ طَرِيقِ السَّالِكِينَ إِلَى الْعُلَا ... عَلَى حَضْرَةٍ يُحْظَى بِهَا كُلُّ مَسْعَدِ
أَبُو الْفَيْضِ ذُو الإِفْضَالِ وَالسَّعْدِ وَالْعَطَا ... إِمَامِي وَأُسْتَاذِي وَشَيْخِي وَسَيِّدِي
سَقَانِي كُؤُوسَ الْحُبِّ فِي قُدْسِ حَضْرَةٍ ... مُدَاماً بِهَا مِنْ سُكْرِهَا كَمْ مُعَرْبِدِ
لَهُ جُلِيَتْ فَيْضُ الْمَعَارِفِ فِي الْعُلَا ... تَعَالَى مَقَامِي فِي الثُّرَيَّا مُشَيَّدِ [236]
لَهُ عَلَامَاتٌ لِلْوِلَايَةِ وَالْهُدَى ... وَمَرْكُوبُ عِلْمٍ فِي رِوَايَةِ مُسْنَدِ
فَتَى عارف مَا لَيْسَ يَدْرِيهِ غَيْرُ مَنْ ... سَقَاهُ بِكَأْسِ الْحُبِّ مِنْ كُلِّ سَيِّدِ
لَهُ كَمْ خَطَتْ وَذُلِّلَتْ ثُمَّ عُلِّلَتْ ... عِنَايَةُ فَضْلٍ لَيْسَ تُدْرَكُ بِالْيَدِ
مُدَلٌّ وَمَحْبُوبٌ وَفِي كَفِّهِ الْغِنَى ... عَظِيمُ كَرَامَاتٍ وَجَاهٍ وَسُودَدِ
تَحَلَّى حُلَى يَزْهُو الْوُجُودُ بِحُسْنِهَا ... وَيَرْفُلُ فِي ثَوْبِ الْجَمَالِ الْمُمَجَّدِ
كَأَنَّ حُلَاهُ حُلَّةُ الْحُسْنِ مَعْلَماً ... بَهَاهَا عَلَى كَمِّ الزَّمَانِ بِعَسْجَدِ
مَشَى سِيْرَةً مَحْمُودَةً لَا يَسِيرُهَا ... سِوَى كُلِّ صَادِقٍ بِحِفْظٍ مُؤَيَّدِ
إِمَامٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ بَدْرٌ لِسَالِكٍ ... لَهُ حُلَّةٌ حَسْنَا وَسِيرَةُ مَرْشِدِ
مُرَاد وَمَحْمُودٌ بِفَضْلِ غِنَائِهِ ... لَهُ مَشْرَبٌ صَافِي الْهَنَا عَذْبُ مَوْرِدِ
فَذَاكَ وَلِيٌّ مَعْدَنُ الْجُودِ وَالنَّدَى ... وَذُو مَكْرُمَاتٍ فَوْقَ عَدٍّ مُعَدَّدِ
شِفَاءٌ لِذِي ظُلْمٍ رَبِيعٌ لِمُحْدَثٍ ... شِفَاءٌ لِضُرٍّ بَدْرُ دَاجٍ لِمُهْتَدِ
بِحَارُ النَّدَى كَمْ عُدِّدَتْ مِنْ وِصَالِهَا ... وَأَسْرَارِهَا أَكْرِمْ بِذَا مِنْ مُعَدَّدِ
إِمَامَةُ عِلْمٍ مَعَ مَقَامِ وِلَايَةٍ ... وَبُعْدٌ عَنِ الدُّنْيَا وَأَكْثَرُ عُبَّدِ
وَمِنْ بَعْدِهِ أَيْضاً بِدَوْرٍ مُنِيرَةٍ ... هُنَاكَ أَقَامُوا سَيِّداً بَعْدَ سَيِّدِ
فَتًى طَرَفَاهُ مَعْلَمَانِ كِلَاهُمَا ... تَرَاهُ فِي وَعْظِهِ كَسَيْفٍ مُهَنَّدِ [237]
أَصَالَةُ دِينٍ ذُو عُلًى وَوِلَايَةٍ ... لَهَا فِي ذُرَى الْعَلْيَاءِ مَنْزِلُ سُؤْدَدِ
وَأَكْرَمُ إِنْسَانٍ وَبَدْرُ دُجُنَّةٍ ... وَبَحْرُ عُلُومٍ مِنْ رُكُوعٍ وَسُجَّدِ
كَبِيرٌ وَمَشْهُورٌ مِنْ نَسْلِ أَكَابِرٍ [238] ... رُؤُوسِ هِضَابٍ كُلِّ قَرْمٍ مُوَلَّدِ

ومن نزاهته وعلو منصبه أن أمراء مصر يأتونه كثيرا ، فلا يكترث بهم ، ولا يقيم لهم وزنا [239] . وهذا من العجب . وأعجب منه أن السلطان سليم العثماني [240] بعث له ليأتي عنده ، فتعلل له بأنه مريض مسن لا يقدر على سفر ، وكتب له مكتوبا ، لا يمكن لأحد أن يملي أقله ويتدبر انشاءه وجواهر كلامه في ثلاثين يوما . واذا رأيت دوره ومجالسته حسبت زي الملوك . وكل هذا لا ينافي الزهد . قال الغزالي — في «الاحياء» — : الغنى لا ينافي الزهد .وقال بعض العارفين : الزاهد يجعل المال في يده ، لا في قلبه ، فكان عبد الله بن المبارك أغنى الناس وأزهد الناس .

ومنهم : شيح المالكية الشيخ محمد الأمير ،الذي دان له بمصر كل رئيس ووزير ، برع في الحديث وجميع فنون العلم ،وانتهت إليه الرحلة ، وحاز الرئاسة والسياسة بدوام الدراسة ، وقصده الأكابر ، وخطباء المنابر ، فكان — رحمه الله [241] ! — محط الرحال ، لا يخلو منهم في كل حال ، أتاه الرفاق من كل الآفاق ،وطار صيته في المغرب والشام [242] والعراق ، كان امام مصر بل سائر الأمصار ، وفقيه عصره في جميع الأقطار ، لم يخرج في إقليم مصر بعد الصعيد [243] ، من يدانيه ، فضلا عمن يساويه من بقية الأعيان ، وفقهاء الزمان ، بحرا في مناظرته ، فريدا في مجاورته ، علامة المتأخرين ، وخاتمة المحققين ، برع وفاد ، ودرس وأفاد ، خضعت له في العلوم رجالها وفرسانها ، شجرة المعارف التي زكت فروعها وأغصانها ، ورياض الآداب التي تنوعت أفنانها ، إن أخذ في التفسير كل عنه «**الكشاف**» واختفى ، وان أخذ في الحديث كان عنه مزيل الخفاء ، وكان في الفقه للنعمان شقيقا ، والنحو والعروض كان للخليل رفيقا ، ولو رآه النظام في علم الكلام لا ختل نظامه ، ولو أدركه العضد مؤلف «**المواقف**» لقال أنت في كل موقف مقدمه وأمامه ، ولو جادله في الأصول السيف الأمدي [244] لاختفى في غمده ، ورجع من هزله لجده ، أو الفخر (الرازي)لقال ما لأحد أن يتقدم بين يدي هذا البحر ولا مرية في ذلك ولا فخر . لازم المتون ، وبرع في الفنون ، وله في معالم الحج ما يلحق ب «**أرفق المسالك لتأدية المناسك**» ، للامام الشمني [245] ، مشى على طريقة السلف ، لما كل عنها غيره ووقف ، من أهل بيت في العلم والفتوى عريق ، وبالرياسة والنفاسة حقيق ، خدم العلم الى أن بلغ المنى ، فلا أحد يشير الى نفسه — في عصره — بـ «أنا» ، وأحي سنة التواضع والتقشف ، وترك القاموس وطرح التكلف ، سهل الباب ، خشن الأثواب ، لين الخطاب ، للدنيا في فخار ، للمكسر به انجبار ، تقصده الملوك والامراء ، وتتردد اليه الفضلاء والفقراء ، تصل اليه — لتواضعه — المرأة والمسكين والصغير ، ويهابه — لفرط دينه — الجبار والأمير ، ولم يزل على حاله الجميل ، في أحسن سبيل ، ما بين تأليف ومطالعة وافتاء ومراجعة ، الى ان اتى نعي الحمام ،الى دار السلام ، في الثالث

والثلاثين بعد الالف والمائتين [246] ، رحمه الله ! وأولاه ما اولاه ! وهو مازوني (جزائري) نجارا ، مصري منشأ ودارا ، وموتا واقبارا . ومن فيض علمه وولايته وصلاحه أن باشا مصر — على ضخامة سلطانه وعلوّ مكانته ومكانه — يأتيه للتبرك به في العيدين ، ساعيا على القدمين . وهذا شأن العلماء مع السلاطين والأمراء ، بل حتى الخلفاء ، الذين فوق الكلّ بلا خفاء . فقد أتى هارون الرشيد الذي للأمة مالك ، مع ابنيه الأمين والمأمون إلى مالك (بن أنس) وسار صلاح الدين (الأيوبي) السير الحثيث ، الى الاسكندرية ليروي على الحافظ (أحمد) السلفي الحديث ، الى غير ذلك من تواضع الملوك بين يدي العالم في زي المملوك .

ومنهم :شيخنا الأمجد الأنجد ، نظير اليافعي والرافعي ، السيد عبد الله الشرقاوي الشافعي [247] . كان اماما علامة كثير الفنون ، حافظ المتون/ ذا جلالة ظاهرة ، وحرمة وافرة . شيخ الجامع الأعظم بمصر المعروف بـ «الأزهر» ، الذي اختط سنة تسع وستين ، بعد الثلاث من المئتين [248] ، شيخ الزمان ، وواحد الأوان ، صاحب المعارف والكرامات ، والثقة والأمانات ، وأحوال اشتهرت ، ومعارف ابتهرت . ولما دخل الكفرة مصر [249] وألزموا المسلمين المحبوب [250] وبطاقة ، كان يدافع عنهم على قدر الجهد والطاقة ، ولم يأل نصحا ، ولم يطو — دونهم — كشحا ، بل سعى سعي الكرام ، الى أن فرج الله بعد ثلاثة [251] من الأعوام ، والناس فيها في وصب وأوام . وقد اشتهرت مدافعته عن المسلمين ومصالحته ، فله في ذلك العجب العجاب ، فكان للمسلمين الجناب ، وكف كثيرا من النصارى بايجاز كلام واطناب . وكان يقول — كابن قفل — : «من شاء [252] أن يكون من الأبدال ، فليحول خلقه الى خلق الأطفال» .

وبالجملة فهو علامة ، صالح ، زاهد ، وليّ كبير ، وإمام شهير ، له أدب كبير ، ومنظوم ومنثور كثير ، إزدان [253] به هذا الزمان ، وانتفع بإقرائه الأنس والجان ، وأتقن العربية ففاق الأقران ، بل الشيوخ ، وتفرّد به خلق فصاروا من أهل الرسوخ ، وانفرد بالنوادر الأنيقة ، والمباحث الدقيقية ، جاء بالبيان وحبّره ، وحقق الكلام وحرّره ما حوت مصر بمثله أقليمها ، ولاحت شيبة فضله قديمها ، له فضل مشهور ، وعلم مأثور ، الصدر الكبير الثقة المحدث المحقق بقية المحدثين ، وامام الحفظة الأقدمين ، سيد وقته ، وامام عصره ، وورع زمانه ، وفاضل اقرانه ، أعجوبة الوقت ، المبرأ عن وصم ومقت ، ذو الأخلاق المرضية ، والاحوال السنية ، والافعال الصالحة الزكية ، حجة اهل الفضل وخاتمهم ، ورحلة النقاد وخلاصتهم ، ورئيس [254] المحققين وقادتهم ، السيد العزيز ، والذهب الابريز ، تاج المحدثين ، وقدوة المحققين البيت الكبير ، والفخر الاثير ، ومعدن الفضل الكثير ، شديد الشكيمة في

الحق ماضي العزيمة ، له بالعلم عناية تكشف العماية ، ونباهة تكسب المزاية ، ذو الشيم الكريمة ، والمحاسن العظيمة ، علامة دهره ، وخلاصة عصره ، وعين زمانه ، وانسان اوانه ، رحمه/ الله ! وجعل الجنة مثواه ومأواه !.

ومنهم : شيخنا العلامة الجلي ، السيد عثمان الحنبلي (255) ، ذو المعاني الفائقة ، والتدقيقات الرائقة ، ان تأمل متؤمل بعين الانصاف (256) ، عرف ما اشتملت عليه محاسن الاوصاف ، حاز قصب السبق في مضمار الاجادة ، وميدان الاصابة والافادة ، قد دلّت على جودة منشئها وانظار. مبدئها نسائم الاسعار تشرق من رونق معانيه ، وعظائم الأمور تستعار من معاليه ، راسخ القدم واسع الاطلاع (كامل التجلي في العلوم والاصلاح) (257) ، رقي في سماء المعارف الى اعلى المنازل ، وورد من مناهلها أعذب المناهل ، لسان التحقيق قد نطق بفضله .

وحاكم الانتقاد قد قضى برفعة محلّه ، فلله درّه فيما ابدى ، وأتحف بجواهر فكره واهدى ، فلقد اجاد فيما افاد ، واحسن فيما اورد واراد ، فالله يُجزيه عن صنوف (258) عمله الأنيقة ، وتصاريفه التي هي بمناطق الكمال خليقة ، وبمصادر الجمال حقيقة . وقد تجمل الوجود بوجوده ، وأسبغ عليه ملابس نعمه وجوده . لازال كاله منصوبا على المدح ، ولا برحت أكفّ الداعين له مبنية على الفتح . أصلح الله له خلله ، وغفر زلله ، فضحك له وجه الدار الآخرة ، وأقبل وبكى على فراقه مذهب الامام احمد بن حنبل ، جمع من فقهه اللباب ، والقول الرائق المسبطاب ، حاز معظم فقه ابن حنبل وسلك فيه اوضح مسلك وأنبل ،يعترف بفضله الحسود ويغترف من بحره كل من اراد أن يسود . وهل ينكر ضوء الشمس في وسط النهار . أو يخفى نور الصبح على اولي الابصار ؟ ! كثير الحفظ والرواية ، الى ان بلغ النهاية . لا يسابق في ميدان علم ، ولا يسبح معه أحد في بحر علم وفهم . جعل الله علمه من متقبل الأعمال ، ونفع به بجاه النبيء والآل . فانه قرّر وأوضح ، وأسفر صبح دليله واتضح . فله زبدة العلم وأبابه ، وضيع فيه زمانه وشبابه ، حتى لبس حللا من نسائج فهومه ، واكتسى رونقا من نتائج علومه .

ومنهم : شيخنا اللوذعي الألمعي ، الشيخ اعماره العلاف/ الينبعي ، أصاب في الحديث وأجاد ، وأحرز وافاد ، وأغنى وأقنى ، واوضح جهتي المبني والمعني . فهو احد حملة الحديث . في القديم والحديث ، صاحب انصاف واسعاف ، جامع للمتون حيث حصل بينها (259) اختلاف . نفى ما فيه من تهوين وضريع ، بحيث لا يلحقه ضالع ولا ضليع ، احد الأئمة المبرزين ، والحفاظ المعتبرين ، والأعلام المشهورين ، قوى الايمان ، ناصع الايقان ، علم

الأعلام ، وفخر الاسلام ، وسلالة الاولياء ، وخلف الأتقياء المسند الرواية ، العلامة المتفنن الحافل الكافل ، القدوة الصالح ، السنّي السُّنيّ ، أحد الأدباء المتقدمين ، والأولياء المعتبرين ، رحمه الله آمين [260] !

ومنهم : شيخنا العالم الأجل ، الفقيه الأكمل الأمثل الأحفل الأقبل الأنبل الأجمل الأفضل الأقضى الأمضى الأرضى ، التقي النقي الزكي الولي الصالح الصوفي العارف المسالك المبدي الرحلة المفيد ، أحد رجال الطريقة وينابيع الشريعة والحقيقة ، بحر العرفان والايقان ، منبع الحديث والقرآن : الشيخ عبد الرحمن التادلي أصلا ونجارا ، المكيّ منشأ ودارا ، ووفاتا واقبارا . أتحفه الله بالرضى والرضوان ، والحفه حلل المنى والاحسان ، وأمطر على ضريحه شآبيب الغفران فهو الوالي بلا ريب ولا ريث ، المستشفع به من كل نازلة وريب وديث ، المستمطر به لنزول الغيث ، الذي يهابه — لفرط صلاحه — النمر والليث ، المستغاث به في كل وعث وعيث ، معرض عن الدنيا ، حال بالمرتبة العليا ، التي نيطت بالثريا [261] ، بعيد من الخلق ، قريب من الحق ، مواظب على الصيام ، والتهجد والناس نيام ، اتخذ مكّة وطيبة دارا ، فاز بجوار المصطفى وما اكرمه جارا ! وحصنا ووجارا ! الى ان جاءه الرسول من ربّه بالبشرى والارتحال من دار الدنيا الى الدار الأخرى ، فكان بالفضل احق وأولى وأحرى . فتحت له أبواب القبول والاقبال ، ومنح المنح التي لا تمرّ شواردها على البال ، ومسدّد نبال السرّ والاهتبال في الادبار والاقبال ، وسعادة الاجتماع والاستقبال الى بلوغ الآجال ، وتسح عليه سحائب الرحمة بالاسترسال ، الذي كان يبادر للخيرات مبادرة/ فرض صلاة [262] الجمعة بسنّة الاغتسال ، فورث المزايا [263] الشريفة والخلال في الأقوال والأعمال والأفعال . وحمى السروج من الاهمال ، ودرس السنة وذيل ما نقص بالاكمال ، واهتدى واقتدى ببلوغ الآمال وسعادة المآل ، ذو الدعاء الرفيع الجلال الكريم الخلال ، والنصر المسجلة عقوده بعد الاستثقال ، والعز المديد الظلال ، والصنع الرائق الجمال لازال بدره بعد الاهلال ، محفوظا عليه وصف الاستكمال ، كتب الله له أعيان المقاصد من صلاح الأحوال ، وعرفه عوارف النوال من قبل السؤال . وقد كنت عليه قرأت (شرح) [264] ابن عباد : شارح « **الحكم** » ، وختمناه بمكة المشرفة تحت « ميزاب الرحمة » في « الحجر » .

ومن شيوخنا : الشيخ عصمان الشامي ، لقيناه بالمدينة المشرفة ، على صاحبها أفضل الصلاة ، وأزكى التحية والسلام !

ومنهم : الشيخ عبد الغني ، مفتي الشافعية بمكة ، كان على قدم عظيم : علما وورعا ونزاهة وأكمل نباهة ، هيّأ له التوفيق اتفاقه ، ومد عليه السعد رواقه ، شديد الضيق على مؤخره ، وثابر حبه على مرجح فخره ، آوى العلم الى ايالته ، واستظل بظل جلالته ، ونتائج

مظاهر مقامه تلتحم ، وعقود مجد العلم في لبته (تلتئم) [265] وتنتظم ، والقلوب على محبته تأتلف [266] والألسن بحقه الواجب تعترف ، والطلبة بوفودها [267] على بابه [268] تقف ، كفى الله مقامه ببلوغ الأمل ، وانجاح العمل ، وأدت حقه الحفدة والبنون ، وصارت [269] تجني من غرسه ما تقربه العيون . قابله السعد بوجه مشرق الأسرة ، وضاحكه اليمن بالثغور المفترة ، والتبشير الدائم السعيد ، الذي تيسر به الأمل البعيد ، ذو الحكمة البالغة ، والنعمة السابغة . تعظمه الأعوان والظهراء ، والأصحاب والوزراء ، والأمثال والنظراء ، وفقه الذي فتق [270] رتق الأكوان ، على اختلاف الصور والألوان . وقد تعاقب الملوان ، وأعطى كل شيء خلقه من الجماد والنبات والحيوان ، العالم النبيل ، الحسيب الأصيل ، الذي قدر علوم [271] الآداب ورتبها ، ورفض الفواحش واجتنبها ، وانتقى المراشد وانتخبها ، ذو بداهة/ ونقل ، وفراسة وعقل ، قبل ورد ، وشهر ورجح ، وباري بحسن القياس ونجح [272] ، وحسّن ما حسّن الشرع وزين ، وأوضح ما اوضح . وبين وهيّن . رحمه الله ! وعنّا وعن ذريتنا أرضاه [273] .

ومنهم : شيخنا الشيخ عبد الملك الشامي ثم القلعي ، ذو الجانب المرعي ، الذي ليس فضله يخفى ، الامام الحنفي ، مفتي مكة المشرفة ، والدوحة ذات الظل المورّفة ، الناشيء بين «**طيبة**» و «**منى**» و «**عرفة**» ، اعتبط ذروة الشرف وافترعها ، وعجل الكرّة واسرعها ، واستخلص بذرة العلم الذي انتجها والده بعد ما زرعها ، يتناقلون رتب الشرف الصريح كابرا عن كابر ، ويروي مسلسل المجد ، عن بيتهم الرفيع النجد ، كل حريص [274] عن عوالي المعالي مثابر ، فالكف عن صلة ، والاذن عن حسن ، والعين عن قرة ، والقلب عن جابر ، حيث الانوف الشمّ ، والوجوه الغر ، والعزة القعساء [275] والنسب الحر ، ومسائل العلم في هدف الصون كأنهن الدرّ ، فلهم اذا خفيت المعالم مذكور ، وطمست للفخر المراسم ظهور ، في نبل وفضل مشهور . ولم تزل الملوك الكرام تستدعي العلماء الى صدور المجالس ، وتزين عقود المحافل بدررهم النفائس ، وتشركهم في المآكل والمراكب والملابس ، وتجعل توقيرهم الى استخلاص ضمائر المسلمين ذريعة ، وكلمتهم لديهم مطيعة ، توفرت رغبات الاعلام بالعروة الوثقى ، وسمت منهم الهمم الى المحل الأرقى ، فتبادر الفضلاء والأعيان ركضا الى المنافسة في قربهم سبقا ، ابتغاء لما عند الله . «وما عند الله خير وأبقى» [276] ، واغتباط بالعلوم التي من ظفر بها أحرز الفخر بها [277] حقا ، أبقى الله اعلامهم سامية ، وبركاتهم هامية ، وآمال مجدهم مترامية .

ومنهم : شيخنا المفتي الحنبلي ، بمكة ، ذو المنصب الجلي ، النازل بمولود أمير المؤمنين علي ، في «**شعب أبي طالب**» ، لما تحالفت بنو لؤي بن غالب ، أنجح الله له الأماني ، وأسكنه دار التهاني ، وجعله ملجأ للملهوف والغاني [278] .

ومنهم : شيخنا مفتي مكة : السيد الحسين المغربي الذي كان لكل غريب ناصحا ، فقد استفدت منه طرفا صالحا ، جزاه الله احسن ما جزى ، عالما عن علمه ، وعمله ، وتلميذا عن تعليمه ، صريح العلم ومشكله .

ومنهم : شيخنا [279] في علم المعقول [280] ، وتلميذنا في الفقه المنقول ، الذي كل علم اليه يقصد وينحو : الشيخ عبد القادر بن السنوسي بن دحّو ، الحافظ اللافظ ، الصالح الناصح ، فقيه نبيه ، جيد النظر/ ، سديد الفهم ، وعاء من أوعية العلم له لكل علم وصول : من حديث وفقه ونحو وأصول ، (كان) عالما عاملا ، عارفا [281] كاملا ، متعبدا [282] فاضلا ، حاجا مبرورا ، لقي في حجه فضلاء اهل علم ودين متين ، وانتفع بهم على طريقة فضلاء السلف ، ومن قفاهم من الخلف ، ذو عقل ثاقب ، وفهم صائب ، وتحقيق وتدقيق ، وبحث سري رقيق ، لا تدري من أين أخذه وجلبه ، ولو ناظر الشيطان لغلبه ، رحل لمصر لطلب العلم ، فاخذ بها عن ابي الفيض مرتضي الحنفي [283] ، وشيخ المالكية [284] محمد الامير وغيرهما ، وتصدّر لحواش على «الخراشي» ـــ الا انها لم تكمل ـــ في بحث عجيب ، وتدقيق غريب ، وطار صيته بمصر حتى صار نخبة أهل العصر ، وسيقت اليه به أزمة ذوي المقادر ، ولقبوه بـ «الشيخ عبد القادر» فلست ترى احسن من نقائه ، ولا أصح من القائه ، فهو ممن يحصل الفخر بلقائه ، راسخ القدم في الأصول والعلل ، وذوق سليم يضرب به المثل ، ذو التقارير العديدة المفيدة ، والمزايا العتيدة [285] الحميدة ، منصفا في البحث جنوحا الى الصواب ، صدوقا في النقل ثبتا ، قوى الادراك ، صحيح الذهن ، لا يطرق نبّه وهن . أخذ عنه جماعة من اصحابنا علم الفقه والنحو ، وكذا [286] المعقول ، واعترفت بفضله وغزارة مادته الأئمة الفحول ، لايجارى في مضمار ، ولا يشق له غبار ، قرأت عليه «الألفية» ، قراءة بيّنة بالنقول وفيّة ، من أولها الى نصف الاضافة ، ابتكارا لا الى غيره مضافة ،ففتح الله عليّ فيها ببركاته فتحا عظيما وخيرا عميما ، وقال لي : يكفي هذا ، وستبلغ به [287] أعلى المراقي ، وأجازني بالباقي ، «قد قال سعد الدين التفتازاني [288] : الذكي يفهم بمثال واحد ألف مثال ، والغبيّ لا يظفر من ألف مثال بمثال» . فلا يقال لفضل الله ذا بكم ، بل هي المواهب لم أشدد لها زيم ، بفضل هذا البحر الذي بحور العلم في فؤاده تتموج ، نافذ فيها نفوذ سهم غير متعوّج .وقد آن لي أن أذكر تقريضه [289] لبعض تآليفي لا عجابه بي وبتصانيفي اقتداء بالامام جلال الدين [290] السيوطي ، فقد ذكر في «**تاريخ مصر**» [291] قصيدة مطولة ، مدحه بها أحد جهابذة الشعراء . ونصه ـــ رحمه الله ! في آخر ترجمة من كان بمصر من الشعراء ـــ : «القادرى الشيخ شمس الدين محمد بن أبي بكر الأنصاري ، السعدي ، الدنجاري [292] : شاعر العصر ، اشتغل بالعلم على جماعة من

الشيوخ مع ذكاء مفرط ، قال الشعر ، فأكثر ، وبرع في فنون الأدب نظما ونثرا ، وهو — الآن شاعر الدنيا على الاطلاق . ومن نظمه وانشاده عندي في الاملاء — قوله فيَّ — باديا بالتغزل ، رضي الله عنه [293] ! حيث قال — ما نصه — [294] :

شَجَاكَ بَرَبْعِ «الْعَامِرِيَّةِ» مَعْهَدُ ... بِهِ أَنْكَرَتْ عَيْنَاكَ مَا كُنْتَ تَعْهَدُ [295]
تَرَحَّلَ عَنْهُ أَهْلُهُ بِأَهِلَّةٍ ... بِأَحْدَاجِهَا غِيدٌ مِنَ الْحُورِ خُرَّدِ
كَوَاعِبُ أَتْرَابٍ حِسَانٌ كَأَنَّهَا ... بُدُورٌ بِأَغْصَانِ النَّقَا يَتَأَوَّدُ
وَمِمَّا شَجَانِي فَوْقَ عُودٍ حَمَامَةٌ ... تُرَجِّعُ أَلْحَاناً لَهَا وَتُغَرِّدُ
كَأَنَّ بِدَمْعِي الْكَفُّ مِنْهَا مُخَضَّبٌ ... وَبِالْحُزْنِ مِنِّي الْجِيدَ مِنْهَا مُقَلَّدُ
وَبِي غَادَةٌ كَالشَّمْسِ فِي أفقِ حُسْنِهَا ... نَاءَتْ وَبِقَلْبِي حَرُّهَا يَتَوَقَّدُ
وَلَوْ هَدَّدَتْ «رَضْوَى» بِتَبْرِيحِ هَجْرِهَا ... لَأَمْسَى مِنَ التَّهْدِيدِ وَهْوَ مُهَدَّدُ
خَفِيفَةُ أَعْطَافٍ نَشَاوَى مِنَ الصِّبَا ... ثَقِيلَةُ أَرْدَافٍ تُقِيمُ وَتُقْعِدُ
مِنَ النَّافِثَاتِ السِّحْرَ فِي عُقَدِ النُّهَى ... بِنَجْلَاءَ عَنْهَا سِحْرُ «هَارُوتَ» يُسْنَدُ
وَعَيْنِي تُرَوِّي عَنْ مَعِينٍ دُمُوعُهَا ... وَسَمْعِيَّ عَنْ عَذْلِ الْعَذُولِ مُسَدَّدُ
وَأَعْجَبُ مِنْ جِسْمٍ حَكَى الْمَاءَ رِقَّةً ... يَقِلُّ بِطِيبٍ قَلْبُهَا وَهْوَ جَلْمَدُ
مُحَيَّا كَبَدْرِ النَّجْمِ فِي جُنْحِ طُرَّةٍ ... وَعَيْنٌ بِهِ دَعْجَاءُ سَيْفٌ مُهَنَّدُ
وَجَنَّاتُ وَجَنَاتٍ بِمَاءِ نَعِيمُهَا ... عَلَى النُّورِ نَارٌ أَصْبَحَتْ تَتَوَقَّدُ
مَهَاةٌ إِذَا اسْتَنَّتْ بِعُودِ أَرَاكَةٍ ... عَلَى مَتْنِ سِمْطَيْ لُؤْلُؤٍ يَتَرَدَّدُ
تُرِيكَ ثَنِيَّاتِ الْعَقِيقِ بِبَارِقٍ ... جَلَاهُ النَّقَا مِنْهُ الْعُذَيْبُ الْمُبَرَّدُ
كَأَنَّ بِفِيهَا مِنْ سَنَا الْعِلْمِ جَوْهَراً ... جَلَاهُ «جَلَالُ الدِّينِ» فَهْوَ مُنَضَّدُ
إِمَامُ اجْتِهَادٍ عَالِمُ الْعَصْرِ عَامِلٌ ... بِجَامِعِ فَضْلٍ نَاسِكٌ مُتَهَجِّدُ
وَيَحْسُدُ طَرْفُ النَّجْمِ بِالْعِلْمِ طَرْفَهُ ... إِذَا بَاتَ لَيْلًا فِيهِ وَهْوَ مُسَهَّدُ
يَقْدَحُ زَنْدَ الْعَزْمِ زَنْدُ ذَكَائِهِ ... فَيُصْبِحُ مِنْهُ فِكْرُهُ يَتَوَقَّدُ
وَمِنْ مَدَدِ الْمَوْلَى وَعَيْنِ عِنَايَةٍ ... وَتَوْفِيقِهِ يَحْيَا وَيَحْمَى وَيَحْمَدُ
وَمُجْتَهِدٍ قَدْ طَالَ فِي الْعِلْمِ مُدْرِكًا ... وَبَاعًا فَفِي كُلِّ الْعُلُومِ لَهُ يَدُ
وَمُسْتَنْبِطٍ مِنْ آيَةٍ بَعْدَ آيَةٍ ... تَلِي «آيَةَ الْكُرْسِيِّ» مَعْنَى يُخَلَّدُ
فَوَائِدُ أَشْتَاتِ الْبَدِيعِ الَّتِي بِهَا ... تَفَرَّدَ فِيهَا جَمْعُهُ فَهْوَ مُفْرَدُ
وَأَنْوَاعُهَا عِشْرُونَ مَعْ مِائَةٍ وَقَدْ ... تَوَحَّدَ فِيهَا بِالذَّكَا فَهْوَ أَوْحَدُ
وَلَمْ يَكُنْ لِلْمَاضِينَ فِي الْجَمْعِ مِثْلُهَا ... فَسُحْقًا لِمَنْ لِلْفَضْلِ فِي النَّاسِ يَجْحَدُ
فَحَقَّ لَهُ دَعْوَى اجْتِهَادٍ لِأَنَّهُ ... هُوَ الْبَحْرُ عِلْمًا زَاخِرُ اللُّجِّ مُزْبِدِ

عَلِيمٌ بِآلاتِ اجْتِهَادِ أُولِي النُّهَى ... أَئِمَّةِ دِينِ اللَّهِ مِنْ حَيْثُ تُقْصَدُ
فَمِنْ ذَاكَ عِلْمٌ بِالْكِتَابِ وَسُنَّةٍ ... تُبَيِّنُ مَا فِي بَحْرِهِ فَهْوَ مُورِدُ
وَمَا فِيهِمَا مِنْ مُجْمَلٍ وَمُفَصَّلٍ ... وَمِنْ مُطْلَقٍ يَنْفَكُّ عَنْهُ الْمُقَيَّدُ
وَفَحْوَى خِطَابٍ ثُمَّ مَفْهُومُ مَا بِهِ ... يَدُلُّ عَلَى مَفْهُومِهِ حَيْثُ يُوجَدُ
وَمَعْرِفَةُ الْاجْمَاعِ فَهْيَ لِدِينِنَا ... ثَلاثٌ عَلَيْهَا بِالْخَنَاصِرِ يُعْقَدُ
وَبِاللُّغَةِ الْفُصْحَى مِنَ الْعَرَبِ الَّتِي ... بِهَا نَزَلَ الذِّكْرُ الْعَزِيزُ الْمُمَجَّدُ
وَمَعْرِفَةُ الْأَخْبَارِ ثُمَّ رُوَاتِهَا ... عُدُولًا وَمَنْ بِالطَّعْنِ فِيهِ تَرَدُّدُ
وَبِالْعِلْمِ بِالْفَرْقِ الَّذِي بَيْنَ وَاجِبٍ ... وَنَدْبٍ وَمَا فِيهِ الْأَبَاحَةُ تُقْصَدُ
وَمَا بَيْنَ حَظْرٍ مُوبِقٍ وَكَرَاهَةٍ ... وَتَقْيِيدِهَا وَالْعِلْمُ نِعْمَ الْمُقَيِّدُ
وَفِي النَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ لِلْمَرْءِ عِصْمَةٌ ... مِنَ اللَّحْنِ فَاللَّحَّانُ بِاللَّحْنِ مُكْمَدُ
وَمَعْرِفَةُ الْأَعْرَابِ أَرْفَعُ مُرْتَقَى ... فَطُوبَى لِمَنْ يَرْقَى إِلَيْهِ وَيَصْعَدُ
وَعِلْمُ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ كِلاهُمَا ... مَرَاقٍ إِلَى عِلْمِ الْبَدِيعِ وَمَصْعَدُ
وَسُلْطَانُ مَنْقُولِ الْفَقِيهِ مَتَى يَجِدْ ... وَزِيرًا مِنَ الْمَعْقُولِ فَهْوَ مُؤَيَّدُ
وَإِنَّ الْجَلالِيَّ السُّيُوطِيَّ لِلْهُدَى ... كَكَوْكَبِ عِلْمٍ بِالضِّيَا يَتَوَقَّدُ
وَقَدْ جَابَ سَيْبُ الْعِلْمِ رَوْضَةَ أَصْلِهِ ... فَطَابَ لَهُ بِالْعِلْمِ فَرْعٌ وَمَحْتِدُ
وَذِي حَسَدٍ مُغْرًى بِبَغْدَادَ فَضْلُهُ ... عَلَى نَفْسِهِ يَبْكِي أَسًى وَيُعَدِّدُ
فَلَوْ أَبْصَرَ الْكُفَّارُ فِي الْعِلْمِ دَرْسَهُ ... وَقَدْ شَاهَدُوا تَقْرِيرَهُ لَتَشَهَّدُوا
فَخُذْهَا جَلالَ الدِّينِ فِي الْمَدْحِ كَاعِبًا ... لَهَا جِيدُ حُسْنٍ بِالنُّجُومِ مُقَلَّدُ (296)
وَلَا تَبْتَئِسْ مِنْ قَوْلِ وَاشٍ وَحَاسِدٍ ... فَمَا بَرِحَتْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ / تُحْسَدُ
وَمَنْ لَحَظَتْ مَسْعَاهُ عَيْنُ عِنَايَةٍ ... فَطَرْفُ أَعَادِيهِ مَدَى الدَّهْرِ أَرْمَدُ (297)
وَحَيْثُ وَهَى ثَوْبُ اجْتِهَادٍ فَذُو الْعُلَا ... يُقَيِّضُ فِي الدُّنْيَا لَهُ مَنْ يُجَدِّدُ
بِمَنْ أَخْبَرَ الْمُخْتَارُ عَنْهُمْ وَأَنَّهُمْ ... لَطَائِفَةٌ بِالْحَقِّ لِلدِّينِ تَعْضُدُ
بِإِخْلاصِهِمْ لا يَهْجُرٌ يَوْمًا يَسُوءُهُمْ ... وَلا سَرَّهُمْ مَدْحُ الَّذِي رَاحَ يَحْمَدُ
وَهَذَا اعْتِقَادُ الْمُؤْمِنِينَ أُولِي النُّهَى ... لَهُمْ مَوْعِدٌ بِالْفَوْزِ مَوْعِدُهُ غَدُ (298)
وَإِنَّ جَلالَ الدِّينِ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ ... بِيُمْنَى عُلُومِ الدِّينِ سَيْفٌ مُجَرَّدُ
وَإِنَّ الْقَوَافِي ضِقْنَ ذَرْعًا عَنِ الَّذِي ... لَهُ مِنْ تَصَانِيفٍ فَلَيْسَتْ تُعَدَّدُ
وَإِنَّ الْفَقِيرَ الْقَادِرِيَّ لَعَاجِزٌ ... عَنِ الْمَدْحِ فِي عَلْيَاهُ إِذْ يَتَقَصَّدُ
وَقَاهُ إِلَهُ الْعَرْشِ مِنْ كُلِّ مِحْنَةٍ ... وَمَا أَضْمَرَتْ يَوْمًا عِدَاهُ وَحُسَّدُ
بِجَاهِ رَسُولِ اللَّهِ أَحْمَدَ مُرْسَلٍ ... بِأَمْدَاحِهِ جَاءَ الْكِتَابُ الْمُمَجَّدُ
عَلَيْهِ مَعَ الْآلِ الْكِرَامِ وَصَحْبِهِ ... صَلاةٌ عَلَى طُولِ الْمَدَى تَتَجَدَّدُ

وها انا اشرع فيما مدحت به ، باديا بمدح شيخنا وتلميذنا المذكور ، فمن ذلك تقريضه شرحنا ، المسمى بـ «**الآيات البينات ، في شرح دليل الخيرات**» ، وهو قوله — رحمه الله ! ورضي عنه ! آمين [299] ! — :

هَنِيئاً لَكُمْ بِشَرْحِكُمْ لِلدَّلَائِلِ ... فَخَرْتُمْ بِهِ عَلَى فُحُولِ الْأَوَائِلِ
لَقَدْ أَسْبَكَتْ أَنْظَارُكُمْ فِقَراً بِهِ ... فَأَزْرَى بِدُرٍّ فِي نُحُورِ الْحَلَائِلِ
وَلَمَّا أَفَضْتُمْ سَلْسَبِيلَ عُلُومِكُمْ ... أَجَدْتُمْ وَجُدْتُمْ دُونَ سُؤْلٍ لِسَائِلِ
وَجُلْتُمْ بِمَيْدَانِ الْمَبَاحِثِ فَاعْتَلَتْ ... سُيُوفُكُمْ عَلَى طِوَالِ الْحَمَائِلِ
«أَبَارَاسٍ» فَافْخَرْ فَالْفِخَارُ مُتَوَّجٌ ... عَلَى رَأْسِكُمْ حُزْتُمْ عَمِيمَ الْفَضَائِلِ
نَشَرْتُمْ رَمِيمَ الْفِقْهِ مِنْ بَعْدِ لَيْتِهِ ... دُهُوراً بِرَمْسِ الْجَهْلِ رَثَّ الْمَسَائِلِ
نَحَوْتُمْ لَصَيْدِ النَّحْوِ وَالنَّاسُ نُوَّمٌ ... فَصَبَّحْتُمْ عَوِيصَهُ فِي الْحَبَائِلِ
وَنِلْتُمْ صِحَاحَ الْجَوْهَرِيِّ بِغَوْصِكُمْ ... بِقَامُوسِ عِلْمٍ لَا يُرَامُ لِنَائِلِ
وَحَصَّلْتُمُ الْأَخْبَارَ أَخْبَارَ عَادِهَا ... وَيَاجُوجَ بَلْ أَخْبَارَ كُلِّ الْقَبَائِلِ
وَحَدَّثْتُمُ وَلِلْأَحَادِيثِ رَوْنَقٌ ... بِتَمْيِيزِ ذِي التَّصْحِيحِ مِنْ ذِي الْعَلَائِلِ
وَحَطَّيْتُمُ [300] مِنْ بَعْدِ ذَاكُمْ رِحَالَكُمْ ... لِذِي خَاتِمِ الْأَرْسَالِ زَيْنِ الشَّمَائِلِ
شَرَحْتُمْ صَلَاةَ اللَّهِ وَالْخَلْقِ بَعْدَهُ ... عَلَيْهِ عُمُوماً فِي خُصُوصِ الدَّلَائِلِ
فَكَانَتْ / لَكُمْ سَعَادَةٌ ثُمَّ ذِمَّةٌ ... مِنَ الْمُصْطَفَى فَالْزَمْ شَرِيفَ الْوَسَائِلِ
عَلَيْهِ صَلَاةُ اللَّهِ مَا مَرَّ نَاظِمٌ ... بِغَفْرِ الذُّنُوبِ وَاغْتِنَامِ الْجَلَائِلِ

ثم قال [301] : هذه الأبيات قرضت بها «**شرح دلائل الخيرات**» للعلامة الفقيه [302] البياني اللغوي النحوي المؤرخ المحدث ، قاضي القضاة بـ «**الراشدية**» سيدي أبي رأس ، وبه عرف ، واسمه [303] محمد بن الناصر بن أحمد بن عبد القادر الناصري ، حرس الله مهجته ، وأدام وجوده ورفعته ، وأنا الفقير إلى مولاه عبد القادر بن السنوسي بن عبد الله بن دحو ، أمن الله روعته في الدارين ! آمين [304] !

قلت : وكان هذا الأستاذ دينه قويم ، وطريقه مستقيم ، وحسبه صحيح ، وسلفه في العلم قديم ، ومعروفه عميم ، ووصفه حليم ، ومنصبه عظيم . ومما مدح به — رحمه الله ! ورضي عنه [305] ! — كتابنا المسمى بـ «**الدرة الأنيقة ، في شرح العقيقة**» [306] قوله [307] :

لِلَّهِ دَرُّكَ فِي نَظْمِ الْعَقِيقِ بِمَا ... أَبْرَزْتَ مِنْ دُرَرٍ حَارَتْ لَهُ النُّظَمَا
مَا أَحْسَنَ الدُّرَّ وَالْعَقِيقَ إِذْ نُظِمَا ... فِي سِلْكِ حُسْنٍ يُفِيدُ الْحُسْنَ لِلْعُظَمَا

وَلَيْسَ مُسْتَغْرَباً لَطِيفَةٌ مِنْكُــمُ ... فَكَمْ لكم مِنْ مَزَايَا أَعْجَزَتْ عُلَمَا
فَفِي «أَبِي رَاسٍ» الْهُمَامِ قَدْ جُمِعَتْ[308] ... لَهُ الْمَكَارِمُ فِي سَمَا الْمَعَالِي سَمَا

وقال ابنه الأمجد الأنجد ، وما أشبه الشبل بالأسد ، فرع أنسه ، وجني غرسه ، وبضعة نفسه ، وفخره في يومه وأمسه ، من أفاض الرحمن عليه مواهبه بمنه ، على صغر سنه ، لفنون العلوم والآداب جامعا ، مذ كان مراهقا ويافعا ، من أعطي نجابة العبدوسي ، ونزاهة الحسن اليوسي ،تلميذنا العلامة السيد السنوسي ، ونصه : «ومما وجد من كلام والدنا العلامة الماهر أخي العلمين في الباطن والظاهر : محي الدين سيدي عبد القادر بن السنوسي في مدح» شرح الفقيه الأديب : الامام الفقهي ، النجيب ، النحوي ، البياني ، الأصولي ، المؤرخ : أبي المآثر والتآليف العديدة المفيدة ،مولانا ، أبي الطاهر سيدي محمد أبي راس الناصري أمده الله بمنه وكرمه ! آمين ! . وقد تأملت مدح والدنا ، و «الشرح» وما فيه ، فوجدته يستجلب الذوق ولا ينافيه ، فمدحته ـــ أنا عبد الله أيضا [309] ـــ بما نصه [310] :

يَا دُرَّةً جَذَبَتْ مِنْ خَالِصِ الدُّرَرِ ... وَنُظِّمَتْ بِعَقِيقٍ أَشْهَى فِي النَّظَرِ[311]
أَذْهَلَتْ طُرّاً عُقُولَ النَّاسِ إِذْ نَظَرُوا ... إِلَيْكِ فِي جِيدِ ذَاتِ الْخَالِ وَالْحُوَرِ
لَوْلَاكِ مَا طَمَحَتْ نَفْسٌ إِلَى حَسَنٍ ... وَلَا بَدَا حُسْنُ تِلْكَ الْخُدُودِ الْغُرَرِ[312]
فَخَرْتِ إِذْ سَبَكَتْكِ رَاحَةٌ شَرُفَتْ ... يَدَ الْامَامِ «أَبِي رَاسٍ» عَلَى بَصَرِ
أَدَامَهُ اللَّــهُ لِلْأَنَــامِ مُعْجِــزَةً ... يَعُمُّ فَضْلُهُ أَهْلَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ
تَجْـلُو الْعُلُومُ بِفِكْــرِهِ وَفِطْنَتِــهِ ... نَفْعَ الْبَرِيَّةِ مَا يُرْجَى مِنَ الْمَطَرِ

قلت : لله در الوالد ونجله ، وبلاغة كل ونبله [313] ، في هذا التقريض والالماع [314] ، نظير ما لابن العربي وابنه في شهادة السماع ، وللابن [315] ـــ أيضا ، أسكن الله والده من الجنان فسيحه ، ومن أعالي الفردوس بحبوحته [316] ! ـــ ما نصه [317] :

[illegible] ... [illegible] بواسع العطايا
فَانْهَضْ بِهَا فِي نَحْوِهِ حَثِيثاً ... نُهُوضَ سِرْبِ الْبَــازِ وَالْقَطَايَــا
فَإِنْ لَحِـقْتَ عَالِمــاً مفيــداً ... أَبَتَ بِغُنْــمٍ وَلَا خطايــا
فَاهْنَأْ بِهِ عَيْشاً وَقَــرَّ عَيْنــاً ... قَدْ نِلْتَ مَا نِلْتَ بِلَا بَطَايَا
أَنــا نَهْ إِيَّــاكَ ذُو الْمَعَالِــي ... مَنْ لَهُ وَعْرُ الْعِلْمِ كَالْوَطَايَــا
فَإِنْ تَجِــيءْ لَهُ بِمُــعْضِلَاتٍ ... كَشَفَ عَنْهَا الرَّانَ وَالْغَطَايَــا
ذَاكَ «أَبُو رَاسٍ» نَاصِرُ الدِّينِ ... النَّــاصِرِيُّ طَلَّاعُ الثَّنَايَــا
إِنْ صَعِـدَ الْكُــرْسِيَّ تَعْرِفُــوهُ ... فَاطْلُبُــهُ قَبْــلَ طَلَبِ الْمَنَايَــا

وَلَا تَسِرْ إِلَيْــــهِ ذا تَوَانٍ   كَمْ مُتَــــوَانٍ حُرِمَ الْعِنَايَــــا
بَلْ لَا تَسِرْ إِلَيْــهِ إِلَّا جِدّاً   تَفِدْ وَتُــكْسَ حُلَــلَ الْهَنَايَــا
فَهُوَ الْمُجَدِّدُ مِنْ غَيْرِ مَيْنِ   أَصْلَحَ مَا كَانَ مِنَ الْجَنَايَــا [319]
عَوَّضَنَــا اللَّـــهُ بِهِ السَّيُوطِــي   فَاعْتَدْنَا مِنْــهُ شِيمــاً سَنَايَــا
أَمْلَى وَأَلَّـفَ مَا لَيْسَ يُحْصَى   وَهَــذَّبَ الصَّرِيــحَ وَالْكِنَايَــا

ولوالده المذكور في شرحنا الكبير ، المسمى بـ « **الحلل الحريرية ، في بيان المقامات الحريرية** » — لله درّه ! من فصيح ، وما أبلغه ! في كل علم رجيح [320] / — ما نصه :

أَيَا مَقَامَاتِ الْفَتَــى الْحَرِيــرِي   بُشْرَى لَكُــمْ بِحُلَّــةِ الْحَرِيــرِ [321]
نَسْجَ الْأَدِيبِ اللَّوْذَعِيِّ الْفَاضِلِ   النَّــاصِرِيِّ هِبَّــةَ النَّصِيــرِي
ذَاكَ « أَبُو رَاسٍ » أَخُو الْمَزَايَا   حَقَّ إِلَيْهِ الْجِدُّ فِي الْمَسِيــرِ
فَيَا لَهَا مِنْ « حُلَّةٍ » بَهِيَّــةٍ   تَرَصَّعَتْ بُدُرِّهَــــا النَّثِيــــرِ
بِهَا « الْمَقَامَاتُ » ارْتَقَتْ وَرَاقَتْ   كَرَوْضَةٍ - بِزَهْرِهَــــا النَّظِيــــرِ
أَوْ حُرَّةٍ غَنِيَّــــةٍ أَسَرَّتْ   بِسِرِّهَـــا لِخِلِّهَـــا السَّمِيــرِ
وَإِنْ تَشَأْ فَقُلْ مَقَالَ صِدْقٍ :   أَمِيــرٌ اسْتَــوَى عَلَــى سَرِيــرِ
لِحُسْنِهَـــا جَدِيــرٌ أَنْ تُسَمَّــى   بِنُزْهَـــةِ الْأَمِيــرِ وَالْوَزِيــرِ

وقد خمسّها ولده المذكور بما يسحر الألباب ، ويزيل عن البلاغة الحجاب ، حتى يسفر منها الجيد والنقاب ، ما يفخر به عند أهل الآداب [322] ، وهي هذه — ما نصه — : [323]

حَمَامَــــةُ يَالَكِ مِنْ هَدِيــرِ ؟!   أَذْكَرْتِنِي سَلْمَى لَدَى الْأَمِيــرِ
جِئْتُ وَأَنْشَدْتُــهُ فِي التَّبْشِيــرِ   أَيَا « مَقَامَاتِ » الْفَتَى الْحَرِيرِي
— بُشْرَى لَكُمْ بِـ « حُلَّةِ الْحَرِيرِ —   يُمْنِيَّةِ الْكَسْبِ حُلَى الْأَفَاضِلِ
إِن برزت نرامي أَوْ تُناضِل   وضعتهم [illegible]
نَسْجَ الْأَدِيبِ اللَّوْذَعِيِّ الْفَاضِلْ   — النَّــاصِرِيِّ هِبَــةِ النَّصِيــرِ —
وَهِبَــــةٍ لِسَائِــــرِ الْبَرَايَـــا   تَكَرُّمــــاً وَصَانَــــهُ الرَّزَايَـــا
لَا تَعْجَبْــن لِحُلَّـــةِ الْخَفَايَـــا   ذَاكَ « أَبُو رَاسَ » أَخُو الْمَزَايَا
— حَقَّ إِلَيْهِ الْجِدَّ فِي الْمَسِيرِ —   حَازَ الْبَيَــانَ شِيمَــةً سَنِيَّـــهْ
وَافْتَضَّ مِنْ حُرُوفِــهِ الْعَلِيَّـــهْ   مِنْ بَعْدِ مَا حَلاهَا عَبْقَرِيَّـــهْ
فَيَالَهَــا من « حُلَــةِ » بَهِيَّــةْ   ترصّعَتْ بِدُرِهَــــا النَّثِيـــــرِ
وَاقْتَبَسَتْ مِنْ نُورِهِ وَذَاقَتْ

غُسَيْلَةَ الْفَخْرِ بِهِ فَفَاقَتْ   حُلَلَ غَيْرِ مَتَى تلاقتْ
بِهَا « الْمَقَامَاتُ » ارْتَقَتْ وَرَاقَتْ   — كَرَوْضَةٍ بِزَهْرِهَا النَّظِيرِ —
أَوْ كَسَمَاءٍ ضَحِكَتْ فَافْتَرَّتْ   عَنْ سَبْعِ أَنْيَابٍ وَقَدْ أَقَرَّتْ
بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ بِهَا تَسَرَّتْ   أَوْ حُرَّةٍ غَنِيَّةٍ أَسَرَّتْ
— بِسِرِّهَا لِخِلِّهَا السَّمِيرِ —   لَا وَالَّذِي أَحْسَنَ بَدْعَ الْخَلْقِ
لَفِي نِظَامِهَا طِرَازُ الْحَقِ   تَغْدُو وَتَأْتِي بِقُلُوبِ الْعشق
وَإِنْ تَشَأْ فَقُلْ مَقَالَ صِدْقِ   — أَمِيرٌ اسْتَوَى عَلَى سرير —
أَعْظِمْ بِهَا مِنْ « حُلَّةٍ » قَدْ تَمَّا   شَبَابُهَا نَاهِدَةً وَنما
بِهَا شَذَا الْمِسْكُ وَقَدْ أَعَمَّا   لِحُسْنِهَا جَدِيرٌ أَنْ تُسمى
— بـ « نُزْهَةِ الْأَمِيرِ وَالْوَزِيرِ » —

ثم قال [324] — أيضا — مُنح المجد والعلى ، والتحفة السنية من الحلى ، في الآخرة والأولى — ما نصّه : « ولكاتبه عبد ربّه الراجي عفوه ورضاه ، السنوسي بن عبد القادر ، أمّنه الله ! آمين ! — في مدح هذا الكتاب الذي أعجز بيانه وتبيانه فحول المنشئين والكتاب ، من فحول التصانيف والتآليف والآداب [325] .

مَا كُنْتُ أَحْسِبُ قَبْلَ هَذَا أَنْ أَرَى   جَنَّاتِ عَدْنٍ دَاخِلَ الْأَوْرَاقِ [326]
حَتَّى تَصَفَّحْتُ لِلْأَمَامِ النَّاصِرِي   « حُلَلَ الْحَرِيرِي » جَلِيَّةَ الْإِشْرَاقِ
فَعَلِمْتُ أَنَّهَا جَنَّةٌ حَصْبَاؤُهَا   دُرَرٌ وَأَرْضُهَا مِنْ تِبْرٍ [illegible]
زُفَّتْ لِقَارِئِ بَابِهَا مَشْغُوفَةً   حُورَ « الْمَقَامَاتِ » بِالْجَمَالِ [illegible]

وللعلامة الماهر ذي المسكنة في العلم : الباطن والظاهر ، وللأمارة والهوى قاهر ، تلميذنا السيد الطاهر ابن شيخنا السيد عبد القادر المشرفي ، ذي السرّ الخفي [illegible] الجلي [325] ، نخبة الأئمة ، وإمام الأئمة ، مقدم الترجمة — عمّنا [illegible] ومنحنا [326] حركاته — ما نصه : « لنا في مدح كتاب شيخنا علّامة الزمان وفريد [illegible] والأوان السيد أبي راس هذان البيتان :

وَفِي سِلْكٍ مِنْ حَرِيرِ   نُضِّمَتْ دُرُّ الْحَرِيرِي
لِأَبِي رَاسٍ الْأَمِيرِ   حُجَّةِ الْمَوْلَى الْقَدِيرِ

وكتبه بتاريخ أواسط ربيع الثاني سنة 1211 [329] هـ الطاهر بن عبد القادر [illegible] لطف الله به ! آمين ! .

وله ـ أيضا ـ في مدح شرحنا : « **الآيات البينات لدلائل الخيرات ، في الصلاة على صاحب الآيات** »[330] **ما نصّه :**

يَاقَارِئَــا دَلَائِــلَ الْخَيْــرَاتِ   فَالْزَمْ ـ يَاصَاحِ ـ بَيِّنَ الآيَاتِ[331]
لِشَيْخِنَا الْهُمَامِ ذِي الْمَآثِرِ

أَبِي رَأْسِ الْمَعَالِي ذِي الثَّبَاتِ   تَحْظَ بِمَا رُمْتَ مِنَ الْفَوَائِدِ
مَعْ درَجِ الْفَوْزِ لَدَى الْمَمَاتِ   قَدْ رَوْنَقَ الطُّرُوسَ بِالْفَوَائِدِ
شَرْحاً بَدِيعاً لَطِيفَ الآيَاتِ   ذَا نُكَتٍ رَائِقَه غَرِيبَةْ
حَوَى الْمَحَاسِنَ مِنَ الْجِهَاتِ   مُرَصَّعاً بِدُرَرِ الْيَوَاقِيتِ
تَلُوحُ فِي الْآفَاقِ نَيِّرَاتِ   مُنَظَّماً ذَا نَقْرٍ سَبِيكَةْ
فَيُبْدِي لِلْأَفْكَارِ « الْمُحْسَنَاتِ »

ومدح كتابنا المذكور ـ أيضا ـ كبير العلماء العاملين والجهابذة الفاضلين ، الذي لا يتحرك الا بقلب حاضر ، ولسان ذاخر ، عظيم القدر ، رفيع الذكر ، العالم الاصفى ، والتقي الأضفى ، تلميذنا الشيخ مصطفى بن عبد الله بن دحّو ، أنجب من كل من حثوا في طلب العلم وحبوا ، جليل متفنن حفيل[332] ، عدل ماجد ، كاتب بارع ، ناظم ناثر ، ذو المعاني والاعراب ، والفنون والآداب ، والكرم والفضائل ، مع الحسب الاصيل ، والمعارف والتحصيل ، نشأ على عفاف وطهارة ، وحسن سمت وشارة[333] ، مجتنب المواضع الأريبة ، حتى توفي في حال الشيبة[334] . قال الشيخ أبو حيان في الامام سيبويه ـ رحمهما الله ! وأرضاهما (عنا) ! آمين ![335] ـ : (ما نصه :)[336] :

قَضَى نَحْبَهُ شَرْخَ الشَّبِيبَةِ لَمْ يُرَعْ   بِشَيْبٍ وَلَمْ تُعْقَدْ بِذَمٍّ مَعَاقِدُهُ[337]

ألف كتابا في فتح « **وهران** » ، لم يسبق اليه . وله كتابات على أسئلة كبار ، كأنها من « الدرر » أو « المعيار »[338] ، ومناظرات وأجوبة مع العلماء وأئمة[339] وله ـ أيضا ـ[340] في مدح رسول الله ـ ﷺ ! ـ قصائد فيها من البلاغة عجائب وغرائب . وبالجملة اني لم ار من يخلفه في الغالب ، فهو خاتمة ذوي التحقيق والتدقيق ، يعجز عن أوصافه الحميدة كل نطيق ، مع عقل وديانة ، وعفاف وكفاف[341] وصيانة . ولما نظم القطعة التي نأتي بها ، امر بعض نجباء[342] تلامذته بكتبها .

ونصّه : « ومما مدح به العلامة الأبر ، الجهبذ الأشهر ، حائز رئاسة « **وهران** » و« **أم عسكر** » ، الاستاذ النحرير ، ذو الاتقان والتحرير ، المؤيد بالله ابو عبد

الله سيدي [343] محمد المصطفى بن عبد الله هذا التأليف ومؤلفه وهو شيخه أنجب الاكياس ، ذو النور فوق نور النبراس ، الشيخ محمد «**أبو راس**» ، أمننا واياه من الشيطان الماكر الغادر الوسواس . قدّس الله روحه وأسكنه دار الفراديس أعلى بحبوحة (وهو قوله) :

لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أرَى مِنْ نَصِيرِ ... مُنْصِفٍ لَمَجْدِ الْكِرَامِ الْأَفَاضِلْ
يُطْنِبُ الْقَوْلَ فِي امْتِدَاحِ فَقِيهِ/ ... لَاحَ نُورُهُ فِي سَمَاءِ الْفَوَاضِلْ
«أَبَارَاسٍ» لِلْعُلَمَاءِ [344] أَنْتَ عِمَادٌ ... أَنْتَ نَجْمُ الْهُدَى شِفَاءُ الْعَرَاقِلْ
لَمْ تَزَلْ عَاضِدَ الْفِقْهِ مُنْذُ زَمَانٍ ... كَكَوْكَبِ سَعْدٍ مِنْهُ حِينَ تُنَاضِلْ
فَثَنَيْتَ عِنَانَ نُصْحِكَ لِلنَّحْوِ ... وَفِيهِ شَفَيْتَ كُلَّ غَلَائِلْ
وَرَقِيتَ مِنَ الْحَدِيثِ مَنَاراً ... قَصُرَتْ عَنْهُ هِمَّةُ الْمُتَطَاوِلْ
فَانْتَضَيْتَ يَمَانِيّاً كَوَمِيضٍ ... فَلَقَ الصبْحَ عَنْ شُرُوقِ الدَّلَائِلْ
إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ منك عُجَابٌ ... فَكَيفَ رَكِبْت دليل الدَّلائِل
فلازلت من الخليقة تدعى ... قوّالَ حَقّ دامغا للأباطل

ومنهم : صاحبنا الشيخ السيد السنوسي بن السنوسي ، شقيق الشيخ عبد القادر المتقدم ، قد أنجبَ في العلوم بـ «**المغرب الأوسط**» مثل ابن الامام ، والصفاقسي واخيه ابراهيم الهمام ، كنت قرأت عليه المنطق والبيان ، وقرأ ـــ هو وحده ـــ عليّ الفقه ، ولجلالته وعلّو منصبه أفردته عن الطلبة في القراءة لكثرتهم جدا حتى يضيق عنهم الجامع ورحابه : الا ترى ان ابا عبد الله الشريف التلمساني كان يقرأ عليه ابن عبد السلام في داره مدّة اقامته بتونس . وكان هذا السيد [345] علامة محققا ، قدوة حافظا ، نظارا أصوليا ، لغويا نحويا ، بيانيا صالحا سنيا باحثا حجة ، من أفراد [346] محققي العلماء الأثبات ، وأكابر معتني [347] الأئمة الثقات ، ذو القدم الراسخ في العلوم والامامة العظمى في الفنون : فقها ، وأصولا ، وتفسيرا وعربية واعرابا ، مع تحقيق عظيم ، وتحرير عميم ، وفوائد كثيرة ، وقواعد ثيرة ، محررة غزيرة ، وقدم راسخ في الورع والعفة واتباع السنة وتجنّب البدع والشبه ، شجاعا جوادا سخيا مجاهدا ، قتل مجاهدا في معركة عظيمة بين المسلمين ونصارى «**وهران**» ، فكان بينهما حرب لم تنسج الأزمان على منوالها ولا أتت الأيام الحبالى بمثل أجنة أهوالها من قاسها بـ «**حرب الفجار**» أفك وفجر ، ومن شبهها بـ «**حرب داحس**» و «**الغبراء**» فما عرف الخبر ، ومن / نظرها بشعبها يوم جبلة ، فهو [348] ذوبلة ، أو عادلها بـ «**بطن عاقل**» : فهو غير عاقل ، أو احتج بـ «**يوم ذي قار**» فهو في المعرفة ذو افتقار ، أو ناضل بـ «**يوم الكديد**» ، فسهمه غير سديد ، انما كان مقاما غير معتاد ، ومرعى لنفوس لم يف بوصفه لسان مرتاد ، وزلزال جبال أوتاد ، أعلم [349] فيه البطل الباسل ، وتورد الأبيض [350]

الفاتر وتأوّد الأسمر [351] العاسل ، ودوّم [352] الجملد المتكاسل ، وانبعث من حدب الحنية الى هدف الرمية الناشز الناسل ، ورويت طرسلات السهام المراسل ، ثم أفضى أمر الرماح الى التشاجر والارتباك ، ونشبت الأسنة في الدروع نشب السماك في الشباك ، ثم اختلط المرعى بالهمل [353] ، وعزل الرديني [354] عن العمل وعادت السيوف من فوق المفارق تيجانا بعد أن شقت غدر [355] السوابغ خلجانا ، واتحدت جداول الدروع فصارت بحرا ، فلا ترى الا نحرا يلازم نحرا ، وعناق وداع ، وموقف ذي انصداع ، واجابة مناد الى فراق الأبد وداع ، وموقف ذي انصداع ، واجابة مناد الى فراق الأبد وداع ، ثم استخلص العزم صفوة اللباب ، وكاد لسان النصر أن يقول أوصدوا [356] عليهم الباب ، فأصبحت طوائف الكافر ، حصائد مناجل الشفار ، ورؤوسهم محطمة [357] في غير مقام الاستغفار ، وعلت الرايات على الابراج والأسوار ، ورفرف على المدينة جناح البوار ، لولا الانتهاء الى الحد والمقدار [358] ، فخرج الى النزال ، صفر السبال ، وكثرت الزماجر ، وبلغت النفوس الحناجر ، فحمل العلامة صاحب الترجمة حملة ابن مكدّم ، بعدما اوصى الفقيه أخاه المتقدم ، على الاهل والولدان ، والعشيرة والاحوان ، وباع نفسه الغالية ، بقصور الجنّة العالية ، فاستشهد — رضي الله عنه [359] ! — مقبلا غير مدبر ، مخلصا للنية مكبّر ، كيوم الامام الكلاعي العصيف ، أو قاضي « **غرناطة** » بوقعة « **طريف** » . ثم ان الجيش راض بالاجتثام والانتساف زروعها وربوعها في كرات ريّاح/واعتساف ، فتهيأ له لوكِ طِعمتها وارث نقمتها ، ثم كانت عن موقفها الافاضة من بعد نحر النحور ورمي جمار الدمار على العدو المدحور ، وألححنا على بساتينها الحاح الغريم ، وعوّضناها المنظر الكريه من المنظر الكريم ، وطاف عليها طائف من ربنا « فأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ » [360] ، ورياح الغارات لا تذر من شيء أتت عليه الّا جعلته كالرميم ، وانطلقت ايدي الفرصة بالانتهاز ، فعم الاكتساح والاستباح جميع الاحواز ، ثم قفلنا بالعلامة الشهيد الى اهله وحله ورحمه ، ودفناه في تربة جدّه بكسوته ودمه . رحمه الله ! وجعل الجنة مأواه ! آمين ! [361] ثم اني نختم [362] هذا الباب الابدع ، الأرفع الانفع ، الأسطع [363] بما مدحت به مصريتنا التي هي بيت المذاهب الأربع . ولولا سبق قصيدة متممّ [364] وابن البراء للمجالس والمراصد ، لسميت ام القصائد ، لولا ما فيها من قليل انتحال من القصيدة المكتوبة بقصر أبي الحجاج السلطان يوسف [365] بـ « **غرناطة** » ، وهي الى الآن بمرأى من الكفرة ، وهذه مكتوبة في بيت كتبنا في بهوها بخط بعض تلامذتنا ، وهي هذه بحمد الله تعالى ! وحسن توفيقه : [366]

فَلِلَّـــهِ قُبَّـــةٌ يَعَـــزُّ نَظِيرُهَـــا ... وَبَهْوُهَا قَدْ حَازَهُ جَاهِـي مَبَاهِيـاً [367]
يَكَـادُ يُغَطِّي الجَوُّ مِنْ طُولِ قَدِّهَـا ... تَرَى الْـحُسْنَ فِيها مُكْتَسِيـاً وَعَارِيَـا
تَمُدُّ لَهَـا الْجَـوْزَاءُ كَفَّ مُصَافِـحٍ ... وَيَدْنُـو لَهَـا بَدْرُ السَّمَـاءِ مُنَاغِيَـا

تَقُولُ لِمَنْ يَأْتِي إِلَيْهَا مُنَزِّهاً ... تَأَمَّلْ جَمَانِي تَسْتَفِدْ شَرْحَ حَالِيَا
بُنَيْتُ لِخِدْمَةِ الْعُلُومِ وَبَثِّهَا ... لِمَنْ يَرُوحُ نَحْوِي وَمَنْ هُوَ غَادِيَا [368]
فَسَلْ عَمَّا شِئْتَ تَسْتَفِدْهُ مُعَجَّلَا ... أَنَا «الْفَرا» كُلُّ الصَّيْدِ جَوْفِي حَاوِيَا [369]
فَقَدْ فُقْتُ قُبَّةَ ابْنِ نَصْرٍ وَنَاصِرٍ ... وَإِنْ جَاوَزْتَا فِي الْمِراءِ كُلَّ الْمَشَاهِيَا [370]
فَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الَّذِي شُيِّدَ نُزْهَةً ... وَمَا فَضْلُهُ مُحْصِى وَلَا مُتَنَاهِيَا
وَأَيُّ شَيْءٍ كَالْعِلْمِ قَدْرًا وَرِفْعَةً [371] ... تَرَاهُ مُخَيِّماً بِأَرْجَاءِ ثَاوِيَا
يَبُثُّهُ مَوْلَايَ «أَبُو راسٍ» الرِّضَى [372] ... فَيُعْطِرُنِي بِهِ وَيُعْطِرُ نَادِيَا
مُؤَلِّفُ هَذَا الْعَصْرِ غَيْرُ مُدَافِعٍ ... وَسَاقِي زُلَالَ الْعِلْمِ مَنْ كَانَ صَادِيَا
مُؤَرِّخُهُ نَحْوِيُّهُ وَإِمَامُهُ ... وَحَافِظُهُ الَّذِي لَهُ السَّبْقُ بَادِيَا
بِذَا شَهِدَتْ أَعْلَامُ شَرْقٍ وَغَرْبِنَا ... وَأَهْلُ الْمَذَاهِبِ الْهُدَاةُ الْهَوَادِيَا
عَلَيْهِ سَلَامُ اللهِ مَا ذَرَّ شَارِقٌ ... وَدَامَ عَلَى الْأَنَامِ وَالْأَرْضِ ضَاوِيَا

وقد بناها الملك الأصفى، والخليل الأوفى، والمحب الأضفى، السيد البايْ مصطفى. بردّ الله ضريحه، وأسكنه من الجنان فسيحه. وإني بعثت إلى ضريحه بـ «لمدية» [373] مع بعض تلامذتنا بما نصه: «« عليك أتم [374] السلام، أيها المولى الهمام، الذي عرف فضله الإسلام [375]، وخفقت بنصر عزه الأعلام، وتنافست في إنفاذ أمره ونهيه السيوف والأقلام، قسمت زمانك بين حكم فصل، وإمضاء نصل، وإحراز خصل، وعبادة قامت من اليقين على أصل. السلام عليك يا مقرر الصدقات الجارية، وكاسي الظهور العارية، وقادح زناد العزائم الوارية، ومكتب الكتائب والسرايا السارية. السلام عليك يا حجة الصبر والتسليم، والقلب السليم، وسامع الحديث والذكر الحكيم، كرّم الله تربتك وقدّسها، وطيّب روحك وأنسها، فلقد كنت للمستجير مجيرا، وللمظلوم وليا ونصيرا، ولقد كنت في المواكب بدرا، وللمواهب بحرا، وعلى البلاد والعباد ظلّا ظليلا وسترا، بنى الله لك بيتاً في الجنّة، كما بنيت لنا بيت الكتب بلا أذى ولا منّة، نفعك الله بصدق اليقين، وأعلى درجتك في عليين. وحشرك الله [376] مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين».

ولما اردت تجديد تبييضها [377] وترميمها وتقييضها ذكرت ذلك [378] للباي الأسعد الاقعد الأمجد الأنجد الأوحد، عزيز النصر، ونخبة العصر، وريحانة الدهر، العادل على الرعية الأمن والأمان، البايْ/ السيد محمد بن عثمان [379]، أتحفه الله بالرضى [380] والرضوان، وألحفه مطاريف التكريم فى الجنان — فبعث لي مع «ساقيه» [381] مائة ريال بوجوهها، قامت أوفى إقامة بترميمها وتبييضها، وذلك قبل أن أحج عنه — رحمه الله! —

فوفّرني أحسن وفارة جعل الله ذلك القتل له كفارة . ولما أبتُ من الحج سنة سبع وعشرين أعطاني مائة محبوب ، جعله الله — يوم القيامة — مقربا ومحبوبا ، أنس الله غربته ، وأزكى تربته وذريته ، وجعل ذلك الحج المبرور في ميزانه ، وراجح أوزانه ، وتقبل الله دعاءنا له [382] في تلك المشاهد ، التي ينتفع بها الغائب والشاهد .

وما انفقنا من نفقة — هناك — : كبيرة أو صغيرة ، الا عوّضه الله عنها حسنات كثيرة أثيرة .

ولما قبر قمت وذهبت الى ضريحه ، وترحّمت وبكيت ، وقلت : «السلام عليك أيها الامام ، الثاوي في دار السلام ، كأنك لم تعرض الجنود ، ولم تنشر على رأسك البنود ، ولم تبسط العدل الممدود ، ولم تعامل بفضلك الركع والسجود توسّودتَ الثرى ، وأظلت الكرى ، وشربت الكأس التي يشربها الورى ، وأصبحت ضريع [383] الخد ، كليل الجد ، سالكا سنن الأب والجد . ولم تجد بعد انصرام املك ، إلا صالح عملك ، ولا أصحبت لقبرك ، الا رابح تجرك ، فنسأل الله أن يؤنس اغترابك ، ويصلح في الآخرة ما في الدنيا رأيك ، أعطاك الله الوسيلة ، وتمم مقاصدك الجميلة ، ومنحك الزلفى الجزيلة ، واني لم أجد مكافأة الا التضرع [384] تبدعائي لله برحمتك ، وتعفيرَ الوجنات في تربتك ، والاشادة بعد الممات بمجدك وكرمك .

منحك الله المغفرة الصيبة ، والتحية [385] الطيبة مدى الدهر وأباده وترواحه وتغاديه ، وأسكنك من الجنان بحبوحه [386] . آمين ! يا رب العالمين [387] .

هوامش

(1) في جميع النسخ : العارضين (وهو لا يلائم السياق) .
(2) ب : كل .
(3) زبر الكتاب : حبّره وكتبه .
(4) هو : أبو العباس ، أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن خلف ، القرشي ، البكري ، الصدّيقي ، المعروف عند العلماء بـ « **الشريشي** » : كان علّامة زمانه في شتى العلوم والفنون ، من مؤلفاته : « **أسرار الرسالة ، ورسالة الأسرار** » ، في أصول الدين « **شرح الجزولية** » : في النحو . « **شرح المفصّل** » للزمخشري ، في النحو أيضاً « **عوارف الهدى ، وهدى العوارف** » . توفي سنة 641 هـ - 1244 م.
(5) من البحر الطويل ، والبيتان من القصيدة والمسماة بـ « أنوار السرائر ، وسرائر الأنوار » وهي تحتوي على 140 بيتاً .
(6) في (ب) ابتدىء بالبيت الثاني ، وثني بالأول .
(7) ب : الاسكندري
(8) هو : أبو الحسن ، علي بن احمد بن مكرم الصعيدي العدوي : أحد أعلام الفقه المالكي بمصر ، من مؤلفاته : « شرح كفاية الطالب الرباني ، لرسالة أبي زيد القيرواني » . توفي سنة 1189هـ 1775م .
(9) في حاشيته على شرح الخرشي لـ « **مختصر الشيخ خليل** » .
(10) « اني » : ساقط من (ب) .
(11) ج : وذلك
(12) سورة « البقرة » ، الآية : 253 .
(13) سورة « الانفطار » ، الآية : 1 .
(14) ب : ولم أقرأ حروف الهجاء .
(15) « ما تحتها » : ما بعدها من الحروف الهجائية .
(16) « بنقشها » : أي : بتصويرها على اللوح المصلصل بوساطة ذيل القلم القصبي . وهذا شيء معروف في الكتاتيب القرآنية .
(17) ج : المؤقتة .
(18) ب : ابن القا ...ج : أبي القاسم .
(19) ج : المشتهر .
(20) الموافقة لسنة 1706م .

(21)
(22) في جميع النسخ : أروهم (والتصويب من قلمنا) .
(23) في جميع النسخ : فيهم (التصويب من قلمنا) .
(24) أي : شرح منظومة محمد ابن جزري في فن القراءة والتجويد . المتوفي سنة 833 هـ — 1430م .
(25) ب : وقد ذهبت .
(26) ب ، ج : فاذا هو قوالة .
(27) أي : مشدود بعضها ببعض .
(28) ب : المصنّف (والمراد به مختصر الشيخ خليل) .
(29) ب :لا يبالي .
(30) اقتباس من الآية الثالثة والعشرين من سورة « مريم » .
(31) لفظة عامية مفردها كسرة ، وهي قطع الخبز .
(32) « السيد » : ساقط من (ب) .
(33) « وقد » : ساقط من (ب) .
(34) « الرباني والهيكل الرحماني » : ساقط من (ب) .
(35) « التصريف » : لغة إقليمية في الشحاذة وطلب المعروف من البيوت . واستعمال لفظة « **التصريف** » خاص بالطلبة ، ولاسيما طلبة الغرب الجزائري .
(36) أي : في الجزء الثاني من « مختصر الشيخ خليل » .
(37) الزيادة من (ب) .
(38) في جميع النسخ : لا يتعداهم (والتصويب من قلمنا) .
(39) في جميع النسخ : سواهم . (والتصويب من قلمنا) .
(40) في جميع النسخ : عليهم . (والتصويب من قلمنا) .
(41) في جميع النسخ : فيهم . (والتصويب من قلمنا) .
(42) هو : عبد القادر بن عمر البغدادي : كان علما من أعلام الأدب ، والتاريخ ، والأخبار ، وكان يتقن اللغة الفارسية ، والتركية . من مؤلفاته « **خزانة الأدب** » ، و « **شرح شواهد المغنى** » لابن هشام . و « **تعريب تحفة الشاهدي** » ، و « **حاشية على شرح بنات سعاد** » . توفي سنة 1093 هـ — 1883م .
(43) هو أبو العباس ، أحمد بن محمد بن منصور بن أبي القاسم مختار ابن أبي الجذامي ، المعروف بـ « ابن المنير » الاسكندري ، المالكي : أحد فقهاء الاسكندرية ، وقضاتها وخطبائها ، من مؤلفاته : « البحر الكبير ، في بحث التفسير » ، و « ديوان الخطب المنبرية » ، والانصاف ، فيما تضمنه الكشاف » ، من الاعتزال . توفي — قتيلا — سنة 683 هـ — 1284م .
(44) في جميع النسخ : ذهبوا (والتصويب من قلمنا) .
(45) في جميع النسخ : لخصلهم . (والتصويب من قلمنا) .
(46) في جميع النسخ : فافتنوا . (والتصويب من قلمنا) .
(47) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حيّان والبيهقي في حديث طويل ، وقال الترمذي : لا يعرف الا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة ، وانما يروي عن عاصم بن رجاء بن حيوة عن داود بن جميل ، عن كثير بن قيس ، عن أبي الدرداء عن النبي — ﷺ ، وهذا أصح .
(48) قال السيوطي — في « الدرر المنتثرة ، في الأحاديث المشتهرة : لا أصل له .
(49) سورة « آل عمران » ، الآية : 50 .
(50) ب : فانما .
(51) قال رسول الله — ﷺ ! في حديث طويل — : « ... وان العلماء ورثة الأنبياء ، ان الأنبياء لا يورثوا دينارا ولا درهما ، انما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

(رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والبيهقي كلهم عن ابي الدرداء) .
(52) «لنا» : ساقط من (ب) .
(53) لعله يشير الى عبد الحميد بن يحي بن سعد العامري ، بالولاء ، المعروف بـ «عبد الحميد الكاتب» . المتوفي سنة 132 هـ - 750م .
(54) أي : كثير السرد لمختصر الشيخ خليل ، لأن «الدويلة» ـــ بالتصغير ـــ هي الحصة التي يسردها الطالب من مصنف الشيخ خليل في كل درس ، وهي لهجة اقليمية عرفية في الشمال الافريقي .
(55) هو «مختصر الشيخ خليل» في الفقه المالكي .
(56) ب : الذي ليس به توان ولا وسن ولا كسل .
(57) ج : أمهاتهم .
(58) ب : أنفق .
(59) هو : مختصر الشيخ خليل بن إسحاق المالكي .
(60) «سردات» : ختمات .
(61) ب : فلم .
(62) أي : النصف الثاني من «المختصر» .
(63) «لله درّه» : ساقط من (ب) .
(64) من البحر الطويل .
(65) «الخطّيّ» : الرمح ، المنسوب الى «الخط» ، وهي جزيرة بالبحرين ، ترأبها السفن . و «وشيجه» : القنا الملتف في منبته ، واحدته وشيجة .
(66) «قال رؤبة» : ساقط من (ج) .
(67) من بحر الرجز .
(68) «انما» : ساقط من (ج) .
(69) ب : وانما يعرف تأويل الكتابة قاريها .
(70) ب : المختصر (والمراد بـ «المصنف» مختصر الشيخ خليل بن اسحاق المالكي) .
(71) الزيادة من (ب ،ج) .
(72) ب : عن أجل .
(73) ب : غيره سواه .
(74) ج : رضي الله عنه .
(75) ب : مجلس .
(76) ب : السيد .
(77) أي : في القسم الثاني من «مختصر الشيخ خليل» .
(78) ج : كخبزة .
(79) «في» : ساقط من (ج) .
(80) سورة «البقرة» ، الآية : 273 .
(81) «وكان» : ساقط من (ب) .
(82) سورة «النور» ، الآية : 39 .
(83) ب : وبحر علومه .
(84) فيه تورية بسحبان بن زفر بن اياس ، الوائلي ، خطيب العرب وفصيحها في الجاهلية وفي الاسلام ، توفي سنة 54 هـ - 674م .
(85) فيه تورية بأبي الوليد ، حسان بن ثابت بن المنذر ، الخزرجي ، الأنصاري ، الصحابي ، أحد المخضرمين وشاعر الرسول ـــ ﷺ ! ـــ توفي سنة 54 هـ - 674م .

(86) ب ، ج : عافية .
(87) الموافق للقرن السابع عشر للميلاد .
(88) كان صوفيا ثائرا على البدع والخرافات ، ولكن ادعى أنه «المهدي المنتظر» . وكان يقول لأتباعه : أنتم أفضل من الصحابة ، لأنكم قمتم بنصر الحق في زمن الباطل ، وهم قاموا بنصره في زمن الحق . قتل سنة 1023 هـ - 1613م .
(89) «بقوله» : ساقط من (ب) .
(90) لم نعثر على نص هذا الحديث في كتب الحديث ، وانما روي ابن عساكر عن معاذ بن جبل أن رسول الله ـ ﷺ ! ـ قال : «إِذَا ظَهَرَتْ الْبِدَعُ وَلَعَنَ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَوَّلَهَا ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ علم فَلْيَنْشُرْهُ فَإِنَّ كَاتِمَ الْعِلْمِ يَوْمَئِذٍ كَكَاتِمِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ» .
(91) «رسول الله» : ساقط من (ب) .
(92) «كان» : ساقط من (ب) .
(93) سورة «النصر» ، الآية 1 ، 2 .
(94) ب : وأصحابه الخلفاء الأربعة من بعده .
(95) الزيادة من (ب) .
(96) أي : حاشية على «شرح الشفا» لأبي العباس أحمد الخفاجي ، المتوفى سنة 1069 هـ - 1659م .
(97) «عجيب قرير عطير» : ساقط من (ب) .
(98) «في الهواء» : ساقط من (ب) .
(99) ب : وكذا تستوقف المجتاز .
(100) «وهي هذه» : ساقط من (ب) .
(101) من البحر الكامل .
(102) هو : سحبان بن زفر بن اياس الوائلي فصيح العرب وخطيبها . توفي سنة 54 هـ - 674م .
(103) هو : أبو الوليد ، حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي ، الأنصاري : صحابي جليل وشاعر المخضرمين . توفي سنة 54 هـ - 674م .
(104) ج: سقراه .
(105) «قد» : ساقط من (ب) .
(106) توفي حوالي سنة 1205 هـ - 1790م . وقد هاجر الى الحرمين سنة 1172 هـ - 1759م .
(107) ج : الهمام .
(108) «قد» : ساقط من (ب) .
(109) ب : في الله .
(110) «الوريق» : ساقط من (ب) .
(111) ب ، ج : ميتته .
(112) ب : لمثل فعله .
(113) في جميع النسخ : القى . (والتصويب من قلمنا) .
(114) ب : أخونا ابن الشيخ...
(115) ب : سيدي .
(116) ج : المسرعون .
(117) ج : والمعارف .
(118) ب ، ج : مراق .
(119) ج : نبل تنبيه .

(120) الموافقة لسنة 1790 — 1791م .
(121) ب : من أنفس .
(122) ب : من أنفس .
(123) «المقامات» : هي مراتب الأولياء العليا .
(124) ب : سحاب .
(125) ب : روضة .
(126) من البحر الطويل .
(127) أي : كانت هذه الكتب تحت ملكه ، وليست مؤلفاته .
(128) هو : أبو عبد الله محمد بن الشيخ قاسم المحجوب التونسي ، تقدم للفتيا مع أبيه أيام الباشا علي بن حسين باي رئيس المفتين . توفي سنة 1243 هـ — 1827م .
(129) ب : بمجمل ، ج : تحمل .
(130) ب : المشكوك .
(131) «وخبر» : ساقط من (ب) .
(132) «وقد» : ساقط من (ب) .
(133) «كان ساقط من(ب) .
(134) «صباحي» : ساقط من (ج) .
(135) ب ، ج : وثبت .
(136) ب : والحقه الله .
(137) «الله» : ساقط من (ب) .
(138) ب : جميع .
(139) «ومنهم شيخنا» : ساقط من (ج) .
(140) هو : محمد بن حسين بن أحمد بن محمد بن حسين بن بيرم الحنفي ، التونسي أقام مفتيا بتونس خمسا وأربعين سنة . من مؤلفاته : «**اختصار أنفع الوسائل ، في تحرير أنفع المسائل**» للطوسي ، في الفقه الحنفي . و «**رسالة في السياسات الشرعية**» . توفي سنة 1214 هـ — 1800م .
(141) «الكنز» : هو «كنز الدقائق» في فروع الحنفية ، للشيخ الامام أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود ، النسفي ، الحنفي ، المتوفي سنة 710 هـ 1310م . وهذا الكتاب مختصر لكتاب «الوافي» للنسفي أيضا .
(142) «الخريت — بكسر أوله وكسر ثانيه المشدد — : جمع خراريت ، وخرارات ، وهو : الدليل الحاذق الذي يهتدى به الى أخرات المفاوز وطرقها الخفية ومضايقها . وفي ج : «خريب» . (وهوتصحيف) .
(143) ب ، ج : وسعدهما ونعيمهما دائم .
(144) دف يدف دفا ودفيفا : تحرك وسعى ، ومشى .
(145) «الدافة» : الجماعة من الناس ، تقبل من بلد الى أخرى ، سائرة سيرا لينا .
(146) هو : أبو القاسم ، الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز : من كبار الصوفية ، وأحد اعلام الدين ، كان أبوه يعرف بـ «القواريري» ، نسبة لعمل القوارير ، وكان هو يعرف بـ «الخزاز» لكونه يعمل الخز . قال أحد معاصريه : ما رأت عيناي مثله ، الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه ، والشعراء لفصاحته ، والمتكلمون لمعانيه . وهو أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد . وقد وصفه ابن الأثير بـ امام الدنيا في زمانه» ، وعدّه العلماء شيخ مذهب التصوف ، لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة . ومن كلامه : «طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة ، من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدي به» . توفي سنة 297 هـ — 910م .
(147) هو : أبو عثمان ، عمرو بن عبيد بن باب ، التميمي بالولاء البصري : شيخ المعتزلة في عصره ومفتيها ، كان أحد الزهاد المشهورين بالعلم والزهد . وفيه قال المنصور العباسي : «كلكم طالب صيد ، غير

عمرو بن عبيد» . من مؤلفاته «تفسير القرآن» . و «الرد على القدرية» . توفي سنة 144 هـ - 761م . ورثاه المنصور . ولم يسمع بخليفة رثى أحد من رعيته سواه !.

(148) «لنا» : ساقط من (ب) .

(149) في جميع النسخ : حافيا . (والتصويب من قلمنا)

(150) ب : المهاج .

(151) ج : لتنصره .

(152) ج : وعد .

(153) «ايفلان» : اسم مكان .

(154) «أخذ» : استولى .

(155) الضمير يعود على الشيخ عبد القادر المشرفي .

(156) ب : قال فبعث .

(157) سورة «هود» ، الآية : 81 .

(158) من «ثم بعث» حتى «رقريب» : ساقط من (ج) .

(159) «قال : نعم» : ساقط من (ب) .

(160) «فهلكهم الله» : ساقط من (ب) .

(161) ب : له .

(162) في جميع النسخ : لحمهم (والتصويب من قلمنا) .

(163) «فبنفس» : لغة اقليمية ، معناه : فبمجرد .

(164) «الريال» : لفظة اسبانية ، تدل على قطعة من الدراهم .

(165) هو : أبو الخيرات ، مصطفى بن عبد الله بن موسى الرماصي ، المازوني الجزائري : أحد أعلام الفقهاء والمحققين ، أخذ عن الخرشي والزرقاني ، من مؤلفاته : «حاشية على شرح الشمس التتائي» على «**مختصر الشيخ خليل**» موصوفة بالغاية في الجودة والتحقيق . توفي سنة 1136 هـ - 1724م .

(166) «يا زنبور» : ساقط من (ب) .

(167) الزيادة : من (ب) .

(168) أي سنة 1192 هـ - 1778 م.

(169) هو : أبو عمر ، عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان ، الأموي ، القرشي : أحد شعراء الغزل المطبوع ، كان ينحو في شعره نحو عمر بن أبي ربيعة وهو معدود من الأدباء الظرفاء والفرسان الأسخياء وهو صاحب مسلمة بن عبد الملك في وقائعه بأرض الروم ، توفي في سجن والي مكة محمد بن هشام سنة 120 هـ - 738 م .

(170) ب : وعن الجميع ، حيث قال

(171) من البحر الوافر .

(172) ج : يعوّدني .

(173) هو : أبو عبد الله ، محمد بن عبد الله ابن أبي بكر القضاعي البلنسي ، المعروف بـ « الأبار » : أحد أعلام التاريخ والأدب ، رحل عن « بلنسية » (بالأندلس) ، لما احتلها الأفرنج ، واستقر بتونس ، فقرّبه صاحبها السلطان أبو زكرياء يحيى الحفصي ، وولاه كتابة « علاة » في صدور الرسائل . وله أشعار في هذا السلطان ، ومن شعره القصيدة السينية التي أنشدها بين يديها ، ومطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً ... أن السبيل إلى منجاتها درساً

إلى أن يقول :

هذي رسائلها تدعوك من كثب ... وأنت أفضل مرجوّ لمن يئسا
توم يحيى بن عبد الواحد بن أبي ... حفص ، مقبلة من تربه القدسا

وهي القصيدة التي عناها محمد أبو راس . ومن مؤلفات ابن الأبار « الحلة السيراء » ، في تاريخ أمراء المغرب ، و « التكملة لكتاب الصلة » في تراجم علماء الأندلس ، و « أعتاب الكتاب » ، في أخبار المنشئين . قتل على يد المستنصر ابن أبي زكرياء سنة 658 هـ – 1260 م.

(174) هو : أبو زكرياء ، يحيى بن عبد الواحد ابن أبي حفص ، الهنتاتي ، الحفصي ، هو أول من استقل بالملك ووطد أركانه بتونس على عهد الدولة الحفصية ، واستولى على الجزائر ، وتلمسان ، وسبتة ، وطنجة ، ومكناسة ، وسجلماسة ، وخافه « فريدريك » الثاني ، وكان كاتباً شاعراً ، محبا للعلم والعلماء ، وقد أنشأ داراً للكتب ، جمع فيها ستة وثلاثين ألفاً من المجلدات . توفي بـ « بونة » (عنابة) سنة 647 هـ – 1249 م .

(175) من البحر الطويل .

(176 ، 177 ، 178 ، 185 ، 187 ، 189) الشطر الثاني مختل الوزن .

(179 ، 180 ، 181 ، 182 ، 186 ، 188) الشطر الأول مختل الوزن .

(183) هو : هرم بن سنان ، ممدوح زهير بن أبي سلمى ، كان أجود العرب وأشجعهم . توفي سنة 15 ق هـ – 608 م .

(184) هو : معن بن زائدة الشيباني ، أشهر أجود العرب وفصائحهم وشجعانه) م . توفي سنة 151 هـ – 768 م .

(190) « وهي » : ساقطة من (ب) .

(191) من البحر الطويل .

(192 ، 193 ، 199 ، 207 ، 208 ، 210) الشطر الأول مختل الوزن .

(194) «الهاء» : ترمز الى خمسة في اصطلاح عدد الحروف الجمل .

(195) «الواو» : ترمز الى ستة في اصطلاح عدد الحروف الجمل .

(196 ، 201 ، 205) البيت مختل الوزن .

(197) «الجدار» : تلمسان ، وقد ذكر ذلك في شعره أبو حيان الأندلسي ، حين هجا تلمسان ، فقال :

أهلا «تلمسان» ذما أن حللت بها ... حول «الجدار» وما قد حوت الجدر
قوم إذا استطعموا لم يطعموا أحدا ... لم يلق خيرا بها موسى ولا الخضر

(198 ، 200) في الشطر الثاني خروج عن القواعد النحوية .

(203) «الخمط» الرائحة الكريهة .

(204) الشطر الثاني مختل الوزن .

(206) يراد بالتثنية عبد القادر المشرفي ، والشيخ منصور الممدوحان بهاتين القصيدتين : الرائية والطائية .

(209) «الوخط» : الطعنة بالرمح والسهم ونحوهما .

(211) «الله» : ساقط من (ج) .

(212) ب : الطائر صيته .

(213) ب ، ج : الأوّاه .

(214) ب ، ج : الرفيعة .

(215) ج : قال .

(216) هو : أبو حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفي ، المتقدمة ترجمته .

(217) هو : أبو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم تلميذ أبي حنيفة وناشر مذهبه ، المتقدمة ترجمته .

(218) هو : محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة وخادم مذهبه .

(219) هو : أبو الهذيل ، زفر بن الهذيل بن قيس العنبري أحد أصحاب الإمام أبي حنيفة وتلميذه وناشر مذهبه . توفي سنة 158 هـ – 775 م .

(220) ب : والتطلع إلى درره .
(221) «منّي» : ساقط من (ب) .
(222) «النهر» ، و «البحر» : كل منهما تفسير لأبي حيان الأندلسي .
(223) «المفصل» : كتاب في النحو للزمخشري .
(224) هو : أبو حمزة ، ثابت بن دينار ، الثمالي ، الأزدي بالولاء : أحد أعلام التفسير والحديث ، وأحد الرجال الثقات عند الامامية . من مؤلفاته «تفسير القرآن» ، «الزهد» ، «النوادر» . توفي سنة 150 هـ - 767 م .
(225) «ضوء» : ساقط من (ب) .
(226) «أوفى» : ساقط من (ج) .
(227) «في أمري» : ساقط من (ب) .
(228) ب : مسودّة ، ج : مرّة .
(229) «بعد توديعه ودعائه لي» : ساقط من (ب) .
(230) «منه» : الضمير فيه يعود على «البحر» .
(231) الموافقة لسنة 1791 م .
(232) من «رحمه الله» حتى «ببركاته» : ساقط من (ب) .
(233) «فيه» : ساقط من (ب) .
(234) من البحر الطويل .
(235) الشطر الأول مختل الوزن .
(236) «مشيّد» : خرج عن القواعد النحوية .
(237) الشطر الثاني مختل الوزن .
(238) الشطر الأول مختل الوزن .
(239) «وزنا» : ساقط من (ب) .
(240) هو : سليم الثالث ، والسلطان الثامن والعشرون من سلاطين الدولة العثمانية . في عهده حمل «بابوليون بونابرت» على مصر . توفي سنة 1222 هـ - 1807 م .
(241) «رحمه الله» : ساقط من (ب) .
(242) ب : والمشرق .
(243) هو : علي بن أحمد ، الصعيدي ، العدوي ، المالكي ، المتوفي سنة 1189 هـ 1775 م .
(244) هو : سيف الدين أبو الحسن ، علي الآمدي ، صاحب «إحكام الأحكام . في أصول الأحكام» . توفي سنة 631 هـ 1233 م .
(245) هو : تقي الدين : أبو العباس ، أحمد بن كمال الدين محمد بن محمد بن حسن بن علي ، التميمي ، القسنطيني الأصل ، الاسكندري المنشأ : كان أحد كبار المفسرين والمحدثين ، وأحد أعلام الفقهاء الأحناف . من مؤلفاته : « كمال الدراية ، في شرح النقاية » شرح مغني ابن هشام « ، » أوفق المسالك ، لتأدية المناسك » . توفي سنة 872 هـ - 1468 م .
(246) الموافق لسنة 1817 م وكانت وفاته ــ على الأصح ــ سنة 1232 هـ - 1816 م .
(247) هو : عبد الله بن حجازي بن ابراهيم الشرقاوي الأزهري ، الشافعي : أحد كبار علماء مصر ، وفقهائها ، من مؤلفاته : « التحفة البهية ، في طبقات الشافعية » ، من سنة « تحفة الناظرين في من ولي مصر من السلاطين» ، « فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدي » . توفي سنة 1227 هـ - 1812 م .
(248) الموافقة لسنة 1006 م .
(249) يشير إلى حملة نابليون بونابارت على مصر سنة 1203 هـ - 1789 م .

(250) «الجبوب» : نوع من الدنانير .

(251) في جميع النسخ : ثلاث . (والتصويب من قلمنا) .

(252) في جميع النسخ : من شان .

(253) ج : ازداد .

(254) ج : ورئيس .

(255) لعله هو : عثمان بن عبد الله بن عثمان بن أحمد بن بشر النجدي ، الحنبلي : أحد فقهاء نجد ومؤرخيها . من مؤلفاته : « عنوان المجد ، في تاريخ نجد » . « فهرس طبقات الحنابلة » . توفي سنة 1290 هـ - 1873 م .

(256) ب ، ج : الأوصاف .

(257) الزيادة من (ج) .

(258) ج : فنون .

(259) ج : بينهما .

(260) «أمين» : ساقط من (ج) .

(261) ب : مبعد .

(262) «صلاة» : ساقط من (ب) .

(263) ج : المراتب .

(264) المسمى : «غيث المواهب العلية ، بشرح الحكم العطائية» .

(265) الزيادة من (ب) .

(266) ج : تأنف .

(267) «بوفودها» : ساقط من (ب) .

(268) ب : ببابه .

(269) «وصارت» : ساقط من (ب) .

(270) ج : قد .

(271) «علوم» : ساقط من (ب) .

(272) «وباري بحسن القياس ونجح» : ساقط من (ب) .

(273) ب : ونفعنا وذريتنا به ، آمين .

(274) ج : صريح .

(275) [illegible]

(276) سورة «القصص» ، الآية : 60 — سورة «الشورى» الآية : 36 .

(277) «بها» : ساقط من (ب ، ج) .

(278) الزيادة من (ب) .

(279) «شيخنا» : ساقط من (ب) .

(280) ب : في منطق المعقول .

(281) ب ، ج : عاقلا .

(282) ب : متفننا .

(283) هو : مرتضى الزبيدي ، المتقدمة ترجمته .

(284) أ ، ج : الأمير .

(285) ج : المعتبرة .
(286) «وكذا» : ساقط من (ب) .
(287) ب : بها .
(288) هو : سعد الدين ، مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني : أحد أعلام العربية والبيان والمنطق من مؤلفاته : «**تهذيب المنطق**» . «**المطول**» ، في البلاغة . «**شرح تلخيص المفتاح**» ، في البلاغة . توفي سنة 793 هـ - 1390م .
(289) ب ،ج. : تعريضه .
(290) «جلال الدين» : ساقط من (ب) .
(291) هو : حسن المحاضرة .
(292) هو شمس الدين أبو عبد الله ، محمد ابن ابي بكر بن عمر بن عمران بن نجيب ، الأنصاري السعدي ، الدنجاري : أحد فحول الشعراء بمصرفي عصره ، وعلم من علماء الأدب . قال السيوطي — في «**حسن المحاضرة**» —: «وبرع في فنون الأدب نظما ونثرا ، وهو —الآن — شاعر الدنيا على الاطلاق ، لايشاركه في طبقته أحد» . توفي سنة 903 هـ - 1498م .
(293) ب : وأرضاه عنا وعن ذريتنا ، آمين .
(294) «حيث قال — مانصه —»: ساقط من (ب) .
(295) من البحر الطويل .
(296) ب : مقيّد .
(297) في كتاب «**حسن المحاضرة**» — بعد هذا البيت — :

وبالعلـــم من يأمـــن وعيـــد إلهه   فَإنَّ بوعد الفـــوز موعـــده غد

(298) في كتاب «حسن المحاضرة» :

فلايك في هذا الديك تردد

(299) ب : ونفعنا وذريتنا ببركاته — آمين — ما نصه :
(300) أي : وخططتم .
(301) ج : قلت .
(302) «الفقيه» : ساقط من (ج) .
(303) «واسمه» : ساقط من (ب) .
(304) ب : بجاه امام المرسلين ، آمين ، آمين ، آمين ، ج : آمين ! آمين ! .
(305) «رضي عنه» : ساقط من (ب) .
(306) «العقيقة» قصيدة أدبية طويلة النفس من مؤلفات أبي عثمان سعيد بن عبد الله ، المنداسي ، ثم التلمساني . وقد شرحها — قبل ابي راس أحمد بن محمد بن علي الشريف ، الغريسي ، ثم المعسكري . وتوجد نسخة من هذا الشرح الأخير — بخط مؤلفه — في مكتبة «دار الكتب» بالقاهرة ، تحت رقم (12160ز) ، يحتوي على 278 ورقة .
(307) من البحر البسيط .
(308) الشطر الأول مختل الوزن .
(309) ب : فمدحته بما يستحقه ويهدى اليه .
(310) من البحر البسيط .
(311 و 312) الشطر الثاني مختل الوزن .

(313) ج : كل نبيه .
(314) ج : والاضلاع .
(315) ج : وله .
(316) ب : رحمه الله وارضاه عنا وعن ذريتنا آمين .
(317) «ما نصه» : ساقط من (ب) .
(318) من بحر الرجز .
(319) ب : الخبايا .
(320) من «لله دره» الى «فصيح» : ساقط من (ب) .
(321) من بحر الرجز .
(322) «ما يفخر به عند أهل الآداب» : ساقط من (ب) .
(323) من بحر الرجز .
(324) ب : وقال .
(325) من فحول التصانيف والتآليف والآداب : ساقط من (ب) .
(326) من البحر الكامل .
(327) «واللطف الخفي» : ساقط من (ب) .
(328) «ومنحنا» : ساقط من (ب) .
(329) الموافق لتاريخ أواسط أكتوبر سنة 1796م .
(330) «في الصلاة على صاحب الآيات» : ساقط من (ب) .
(331) الزيادة من (ب) .
(332) ب : جميل .
(333) ج : وحسن سننها وبشارة .
(334) ج : الشبيبة .
(335) «رحمهما الله ، وأرضاهما عنّا آمين» : ساقط من (ب) .
(336) الزيادة من (ب) .
(337) من البحر الطويل .
(338) يشير الى «**الدرر المكنونة ، في نوازل مازونة**» لمؤلفها أبي زكرياء يحي بن عمران المازوني ، المتوفي — بتلمسان — سنة 883 هـ 1478م . وفي «المعيار المعرب ، عن فتاوى إفريقية والمغرب» لمؤلفه أبي العباس ، أحمد بن يحي الونشريسي التلمساني المتوفي سنة 914 هـ - 1508م .
(339) ب : ومناظرات مع العلماء الكبار ، ومراجعات الجهابذة الأخيار .
(340) «أيضا» : ساقط من (ج) .
(341) «وكفاف» : ساقط من (ب) .
(342) «نجباء» : ساقط من (ب) .
(343) «سيدي» : ساقط من (ج) .
(344) ب : المعلوم .
(345) أي : الشيخ السنوسي بن السنوسي .
(346) ب : من الأفراد .

(347) ب ، ج : متقي .
(348) فهو : ساقط من (ب) .
(349) يقال : أعلم الفارس نفسه ، اذا وسمها بسيماء الحرب .
(350) المراد بـ «الأبيض» : السيف . وفي ج : البيض الفاتر .
(351) «التأوه» : الأعوجاج ، و «الأسمر» : الرمح .
(352) «دوم» : دار ، وحوم . وفي ج : الجاهل المتكاسل .
(353) «الهمل» : — مفرده هامل وهاملة —: كلّ ماشية تركت سدي ، مسيبة ليلا ونهارا ، دون راع يرعاها .
(354) «الرديني» : الرمح ، نسبة الى امرأة اسمها «ردينة» اشتهرت بتقويم الرماح .
(355) «الغدر» — بضم اوله وثانيه ، وسكون ثالثة أيضا —: والغدران ، والأغدرة : مفرده الغدير ، وهو : النهر أو القطعة من الماء يتركها السيل في مكان ما .
(356) ب ، ج : ادخلوا .
(357) ب : محطومة .
(358) ج : الى الحد والحقد .
(359) «رضي الله عنه» : ساقط من (ب) .
(360) سورة «القلم» ، الآية : 20 .
(361) «رحمه الله ، وجعل الجنة مثواه ، آمين» : ساقط من (ب)
(362) ب : ثم — ان شاء الله ! — نختم ..
(363) «الأسطع» : ساقط من (ب) . وفي ج : الأبدعي ، الأرفعي ، الأنفعي الاسطعي .
(364) هو : أبو نهشل متمم بن نويرة بن جمرة بن شداد ، اليربوعي التميمي : أحد فحول الشعراء ، وأجلاء الصحابة ، وأشهر شعره في رثاء أخيه «مالك» . ومنه قوله :

«وكنا كندماني جذيمة حقبة — من الدهر حتى قيل : لن يتصدعا»

و «ندمان جذيمة» : مالك وعقيل . توفي حوالي سنة 30 هـ = 650م .
(365) هو : أبو الحجاج ، يوسف بن اسماعيل بن فرج بن اسماعيل الأنصاري الخزجي النصري : سابع ملوك بن نصر بن الأحمر بغرناطة في الاندلس وهو من أذكى وأشهر ملوك بني نصر ، توفي سنة 755 هـ = 1354م .
(366) «هذه بحمد الله تعالى وحسن توفيقه» : ساقط من (ج) .
(367) من البحر الطويل .
(368 و 370) الشطر الثاني مختل الوزن .
(369) البيت مختل الوزن .
(371 و 372) الشطر الأول مختل الوزن .
(373) «لمدية» : عاصمة اقليم تيطري ، تبعد عن مدينة الجزائر 84 كلم .
(374) «أتم» : ساقط من (ب) .
(375) ب : في الاسلام .
(376) «الله» : ساقط من (ب) .
(377) ب : بعضها .

لأحمد بن هطال التلمساني ، بتحقيقنا

(380) «بالرضى» : ساقط من (ب) .

(381) ب : ساقي .

(382) ب : اليه .

(283) ج : ضارع .

(384) ب : التقرب .

(385) ب : والتحيات .

(386) «وأسكنك من الجنان بحبوحه ، آمين ! يا رب العالمين» : ساقط من (ب) .

(387) «لي» : ساقط من (ج) .

الباب الثالث

في رحلتي للمشرق والمغرب وغيرهما ، ولقاء العلماء الأعلام ، وما جرى لي معهم من المراجعة والكلام

وأسوتي في ذلك رحلة الجهابذة النحارير ، والأسانيد الجماهير : كرحلة الامام ابن رشيد السَّبتي [1] ، والخطيب ابن مرزوق [2] ، ورحلة الشيخ ابي سالم عبد الله بن محمد العياشي [3] ، نسبة لقبيلة « **أيت أعياش** » من البربر ، بازاء « **تافلالت** » . وقد سمى ابن رشيد رحلته « **ملء العيبة ، في طول الغيبة ، الى مكّة وطيبة** » في ستّة أسفار . وكذا رحلة الشيخ أحمد بن الناصر [4] ، وغيرهم .

فأول رحلتي للجزائر (العاصمة) ـــ صَانها الله من سوء الدوائر !ـــ **فلقيت** : بها الفقيه المسمى الشيخ القاضي المفتي السيد محمد بن جعدون ، **فقال لي** [5] : من هو شيخك ؟ **قلت** : المشرفي ، **قال** : كان في زمن ماض قدم عندنا ـــ هو ـــ وشيخه محمد المنور . **فقلت له** : كيف وجدت شيخه لما باحثته ؟ **قال لي** : لا نظير له في تحقيق « الكبرى » [6] . وسكت ، ولم يرد شيئاً . وضيفني ، ثم قال لي ـــ بعد العشاء ـــ : ما معنى قول المصنّف « ومن قوته الا دون إلا لشح » ؟ **فقلت له ما** حضرني . وبقي في قلبه شيء . ولما طالع الكتب علم وطاب خاطره . **ولقيت** : قاضيها ـــ اذ ذاك ـــ الفقيه الدارك ، الشيخ محمّد بن مالك ، فضيفني ، وجمع العلماء عليّ [7] ، وتمادوا وسألوني أسئلة صعاب عظيمة ، فتفاوضنا فيها مفاوضة كبيرة الى قرب الفجر ، وان كل ما سددت [8] عليهم بابا فتحوا لي آخر الى ان اظهرني الله عليهم ، وسألوني باجمعهم ، ورفعوا قدري ، وبجّلوا أمري . ثم حضرنا قاضي « **قرومة** » السيد الهادي . وكان قد غاب عن العوام في لبس الحرير ، فسألني عن ذلك [9] فقلت له : كان [10] الشيخ ابراهيم بن عبد الله النميري

الغرناطي [11] رخّص في لبس الحرير ، قال : من ذكره ؟ قلت : ذكره الشيخ احمد بابا في كتابه « **كفاية المحتاج ، لمعرفة ما ليس في الديباج** » . وفي صبيحة تلك الليلة جلست في **حانوت بعض الطّلبة** [12] ، **فجاء عالم جليل ، شيخ فاضل ، مشار اليه** [13] ، **يقال له : السيد عبد الرحمن البدوي القرومي** [14] ، **فقال من حضر : « هذا من نجبائنا » . ففاوضته** (وسألته عن أشياء فقهية وأصولية ونحوية ولغوية وتوحيدية ، فبهت) ولم يجب بشيء ، **فقلت : كان أهل « دار الضرب » شكَوْا إلى الصاحب اسماعيل بن عباد وزير معزّ الدولة ابن بويه الديلمي : بأن كتبوا له في أمر طلبوا منه ان يرغب السلطان ليخففه عنهم** [15] . **فقال** الكاتب في آخر المكتوب : « والسلام على سيدنا الوزير [16] ! من جميع جماعة الضرابين » ، فأوقع الوزير [17] تحته « في حديد بارد » . ودفع المكتوب للذي ناوله له ، فضحك الطلبة ، وضحك القرومي/ ، وفهم معنى الكلام ، ولم يتكلم . **ولقيت : العلامة الامين مفتي الجزائر** وخطيبها السيد الحاج علي ابن الامير ، **فوجدته يدرس في خطبة الامام** [18] **خليل ، وقد** [19] **ذكر فيها لواء الحمد ، فقال ، قضيبه من زمرّدة خضراء ، ففهم انه من نوع العقيق ، فقلت** : (أيها السيد ! ليس الامر كما عبّرت ، وانما المراد به) [20] الزّبرجد ، لأن الاخضر من **الياقوت ، يقال له : « زبرجد » ، والأحمر يقال له : « البرهان » ، والأبيض يقال له** « النميط » ، **لأن أمور الآخرة أجمل من نفائس أمتعة الدنيا : من ياقوت وجوهر ، وذهب ،** وفضة ، وسندس .

ألا ترى ان [21] « **إرام ذات العماد** » — على القول بها — ما وصف فيها العلماء . وهي من انشاء مخلوق ، فكيف بما كونه الخالق ؟ ! وتأمل ما أخبر به القرآن . **ولقيت** : — ايضا — : شيخنا العالم المشارك ، في انواع العلوم الدارك ، الواسع الرواية ، الحسن الدراية ، صاحب الرحلة الجمّة الفوائد ، حلوة الموائد ، عذبة الموارد ، الجليل القدر ، المستوعي لما **يفوت الحصر** ، سلس اللسان [22] والعبارة ، مليح التصريح والاشارة ، امجد النظار السيد احمد بنّ عمّار ، عالم الجزائر ، محط رحال المستفيد والزائر ، قال لي — [illegible] الحديث في داره ، بمقصورة بلصق وجاره ، في رحلته لتونس ، التي بها كل مستوحش يستأنس [24] ويؤنس ، — : « سألني أحد علمائها ، وكبير زعمائها — وانا في زيارة غوث كلّ ملهوف ، ولاجيء ، الشيخ عثمان القطب ابي سعيد الباجي — **عن قوله** — تعالى — : « إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ » [25] ، قائلا : سألني عن ذلك بعض الطلبة ، ونقل لي عن الشيخ زاده الحنفي في حواشي البيضاوي : أن الاثمين : إثم العزم ، وإثم الفعل . هذا حاصل كلامه . قال لي : فقلت له : ان الطالب الذي نقل لك عن الشيخ زاده أمين في النقل أم لا ؟ فاني ارتبت في صحة هذه النسبة ، لأن ظاهر هذا الكلام يقتضي أن العزم

المنضم اليه الفعل يكتب إثما مستقلا ـ زيادة على اثم الفعل ـ . ونصوص السنة بخلافه . ففي الحديث الشريف : «مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ عَلَيْهِ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَلَيْهِ سَيِّئَةً» . نعم ، ان هم بالفعل ثم منعه مانع غير خوف الله كتبت عليه سيئة ، كما يشهد له مفهوم قوله في الحديث الآخر «إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جرائي» . فسكت ذلك الفاضل ، ثم قال لي : أنا اجبت ذلك السائل بجواب آخر ، وهو : أن الاثمين ـ على ما ظهر لي ـ هما حق الله وحق العبد ، فقلت : هذان الاثمان ـ على فرض وتسليم انهما اثمان مستقلان ـ ينبغي أن يكونا على القائل ، فما وجه اضافة احدهما الى المقتول ؟ فقال لي : الاضافة تكون بادنى ملابسة ، فقلت له : وأي ملابسة ها هنا ؟ فقال لي : لأن المقتول سبب مراجعته في بيان السيئة ، فلم ينفصل عن شيء ينبغي ، ثم قال لي : فما تقول ـ أنت ـ؟ فقلت له : أما الكلام بالنقل فلم يكن ـ الآن ـ بذهني منه شيء ، وأما بطريق (الفكر) [26] والاستنباط ـ مع الجري على القواعد العلمية ـ فيمكن ، فقال لي : استنبط ، فقلت له : (يمكن) ان يكون المراد بـ «الاثم» الذي اضافه المقتول ـ وهو «هابيل» ـ الى نفسه هو ما عسى ان يكون اكتسبه قبل ذلك ، لأنه غير معصوم ، اذ لم تثبت نبوءته ، كما ثبتت لأخيه «شيث» ابن آدم ـ عليه السلام ! [27] أو على سبيل اتهام النفس [28] وعدم تزكيتها ، جريا على اسلوب قول نبي الله يوسف المعصوم : «وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبِّي» [29] . أو قال ذلك على ضرب من التوسع في الكلام ، لادخال الروع وتربية المهابة ، حتى اذا [30] كانت ذنوبه التي تطرح عليه تحمل على قاتله . فقال له ذلك تخويفا وتحذيرا ليكف [31] عن العداء ، أو انه يبوء باثمه حقيقة ، لأن ذنوب المجني عليه تحمل على الجاني اذا لم يكن له حسنات يأخذ منها ، كما في «**المدخل**» وغيره . ويؤيد هذا الوجه أن هذا الذنب عظيم يستوعب جميع حسنات الجاني ويزيد بطرح سيئات المجني عليه على الجاني يرشحه قوله ـ تعالى ! بعده ـ «مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ ، فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً» [32] . ثم وقع الانفصال على هذا الجواب . قال : ثم اجتمعنا من الغد بمشهد الولي الكبير [33] المذكور ، فأبديت لذلك العالم جوابا آخر ، ظهر لي بعد الافتراق ، وهو : أن يكون الكلام جاريا/على أسلوب مجاز الحذف بتقدير مضاف ، أي : باثم قتلتي ، من إضافة المصدر الى مفعوله ، أي : باثم قتلتك إياي ، فعارضني بأن عبد الحكيم [34] قال في «**حواشي المطول**» : لا يسوغ ارتكاب المجاز الا عند تعذر الحقيقة ، فاستهجنت تخصيص نسبة ذلك لعبد الحكيم ، وانما ينسب القول لقائل خاص ، إذا انفرد به : بأن يكون ابتكره [35] او يكون نقله عمّن لم يطلع على كلامه ، أي : بواسطة [36] . وأما ما شاع

وذاع ، وامتلأت منه الاسماع ـــ كهذا ـــ فلا ينبغي ان ينسب الى قائل دون قائل ، ولا ان يخص به واحد دون آخر ، وأيضا المسألة أصولية ، وليست بيانية ، وان ذكرت في كتب البيان ، فانما هي على سبيل الاستطراد فنسبتها الى كتب الاصول أمس بالمقام على ما لا يخفى على من خدم العلوم وحرّر مسائلها . وعارضته بأن ذلك انما هو في مقام الاستدلال واستنباط الأحكام . وأما في المقامات الخطابية والأساليب البلاغية فالمجاز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح . ثم قال لي : يمكن أن يوجد ارتكاب المجاز ها هنا والعدول على الحقيقة بضيق الوقت كما قالوا في قول الصياد «غزال» ، فعارضته بأن ذلك انما ذكروه في أحوال المسند اليه : أعنى أن توقف الحذف على مثل النكتة المذكورة انما يكون في احد طرفي الاسناد الذي هو ركن في الكلام . وأما في هذا المقام من حذف المضافات والمتعلقات التي هي فضلات فيكفي في الحذف قصد الاختصار مع ظهور المعنى وسهولة حضور ذلك المحذوف بالبال . وأنت خبير بانه لا يمكن هذا التوجيه ، لأن المقام ـــ هنا ـــ مقام اطناب ، اذ هو مقام وعظ ومناشدة وتخويف ، فالمناسب فيه عدم الحذف . ثم ظهر لي ـــ بعد ـــ أنه يمكن ان يوجه الحذف ويحسن بنكتتين ، **احداهما** : معنوية ، **والأخرى** : لفظية ، **فالأولى** : استفادة العموم مع حذف المضاف ، لأن الاضافة ترد لماترد اليه اللام : من قصد العهد ، والجنس ، والاستغراق ، وهذا الأخير هو الأنسب في المقام ، أي : اني أريد أن تبوء بكل اثم هو [37] لي ، وهو داخل في باب الارهاب والتخويف من قوله : باثم قتلني ، فانه اثم واحد ، وان كان عظيما ، وضعيفان . يغلبان قويا ، فكيف بأكثر ، **والثانية** : حصول الازدواج والمعادلة بين طرفي الكلام ، بخلاف ما لو ذكر المضاف . =

ولما حصل هذا القدر في الجواب ، وتحرر هذا الكلام بتوفيق ملهم التحقيق والصواب ، امسكت عن البحث [38] والخوض ، واكتفيت بمنهل [39] من ذلك الحوض ، ولم يكن من نيتي استقصاء جميع ما تحتويه [40] الآية الكريمة ، ولا من عزيمتي استمطار [41] تلك الديمة ، واقتصرت على ما يتعلق بالسؤال من النقول ، وأحلت على علم عالم الغيب والشهادة ذي الطول ، علما منّي ان هذا البحر لا قعر له ولا ساحل ، وان تكلف المتكلف وأحيى للعالم النحرير بالفكر والرياضة الرسم الماحل ، حتى بلغني عن ذلك العالم السائل عن تلك المسائل وغيره من اهل العلم والتحصيل وارباب التفريع والتأصيل [42] أنهم جمعوا عدّة تفاسير وأطالوا في البحث عن المسألة والتنقير [43] الى ان استقصوا الكلام ـــ بزعمهم ـــ فيها ، وزعموا [44] ان الغائص بعدهم لا يجد نكتة في المقام ولا يلفيها وأنه قد انسدت ـــ بعد ما ذكره [45] المفسرون ـــ طرق الكلام لمن رام ، ولم يبق (بعد) [46] ما حرروه مرمى لرام ، وأبلغوني ذلك على لسان الثقات الراقين من الصدق في مرقات كالرادعين لي عن ان أسلك

للخوض في ذلك سبيلا ، والمحذرين من ان أسيم [47] فيه وأرعي — بزعمهم — مرعى وبيلا ، ففهمت غرضهم وما استنوا فيه من ذلك المستن وما علموا ان مثلي لا يقعقع له بالشن . ثم بلغني عن بعض جلساء هذا الملك السعيد الموفقين ، وعلماء دولته المباركة الميمونة المحققين — زاده الله واياهم [48] توفيقا وتحقيقا ، ولا أراه واياهم في دنياه ودنياهم تشديدا ولا تشقيقا — أنهم تشوفوا — حفظ الله كماله وكمالهم ، وأثبت في ديوان الأبرار اعماله واعمالهم — الى ما جلبناه في الآية الكريمة/ وطلبوه ، وما ذاك الا لأن الله طهّر قلوبهم من الحقد [49] والحسد فقهروا الشيطان بالمنافسة وغلبوه . وأن الملك السعيد — حرس [50] الله مهجته ، وجعل في سبيل مرضاته لهجته ، وزاد حسنا ونظارة بهجته — تشوّف الى ذلك — أيضا — والسلطان سوف تجلب اليه البضائع ، ولا تكدس لديه ولا لدى جلسائه الأحرار الكرام النفائس والروائع . والفضل لذوي الفضل ليس بخامل ولا ضائع ، فحركت تلك الدواعي كامن القريحة وأتعبت [51] الفكرة المستريحة ، فعزمت على استقصاء ما ينتجه الفكر الصحيح ، ويقتضيه العلم الصحيح . والله الهادي وعليه اعتمادي واليه استنادي . هذا وقد كان بعض الحذاق من الطلبة [52] ذكر لي عن تفسير الجلالين (أن) الكلام في الآية على تقدير «لا» النافية قبل «أريد» ، أي : اني لا أريد أن تبوء بإثمي ، فعارضته بان بلاغة القرآن تستغني عن مثل هذا التكلف والتقدير الذي هو على خلاف [53] الأصل . ثم قررت له ان المراد — والله أعلم —: أني أريد أن تبوء أنت باثمي ان قتلتني ، دون أن ابوء أنا باثمك ان قتلتك دفعا عن نفسي ، اذ لا ينجيني منك الا الدفع بالقتل [54] ، وقد اضطررتني اليه» . انتهى .

ولقيت — أيضا بالجزائر — فقيهها وعالمها وخطيبها ومفتيها ، واسع الرحاب والأكناف ، الشيخ السيد محمد بن الخفاف ، وقد قال لي — بمجلس حكمه — [55] ما تقول في النسخة التي يقول [56] فيها : «العبد الفقير المضطر لرحمة ربه» ؟ **قلت** : فالمضطر — على هذه النسخة — يجوز أن يكون نعتا للعبد أو للفقير ، لقول (السمين [57] في «اعراب القرآن» ان الشيء اذا نعت بنعت وأوتي بعده بنعت أخص جاز أن يكون نعتا للأول أو الثاني . وأما «الفقير» — في [58] هذه النسخة — فهو نعت قطعا لما قبله وقول التتائي : « صفة مبالغة عطف بيان أو بدل» — الخ — هو جرى منه [59] على غير الغالب في أنهما قد يكونان مشتقين ، كما صرح بذلك ابن عصفور في الاول ، والأزهري في الثاني . فلا يتم ردّ الشيخ مصطفى عليه» . انتهى .

ولما سمع هذا مني زاد في اكرامي ، واعترف لي — هو — وأهل مجلسه بالنبل والفضل — رحمه الله ! — ولقبوني بـ «**الحافظ**» ، أصدقهم الله في ذلك ! **ولقيت**/بها [60] — أيضا — العلامة الفهامة الدراكة [61] الاديب ، الذي في كل علم (له) أوفر نصيب ،

ورعى فيه مرعى خصيب، وأخذه بالفرض والتعصيب، زائد الفوائد، عذب الموارد، حجّة الغائب والشاهد، السيد الحاج محمد ابن الشاهد، عالم الجزائر وعاملها، وقطب رحاها، وشمس ضحاها، فقيه علّامة، حافظ بارع، نظار، مفت، مدرس، محقق، صدر، قدوة، أسوة، أصيل، جليل، نبيل، نزيه، فقيه، خاشع، خاش، سني، سُنّيّ، حضرت له يدرس «**الموطأ**»، وقد كشف عنها كل غطاء، ووطأ به كل لفظ أو معنى أبي، واستوعب فيه كل «**قبس**»[62] ابن العربي. وقد جرينا في فنون، والحديث شجون، حتى وقعنا في قوله ـ تعالى ـ: «**أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ**»، **فقلت** ـ بحضرة مجلسه بجامع الجزائر الأعظم، محطّ أهل التنسك[63] المخبتين الوافين، الذي بناه أبو تاشفين[64] لم لا التفات في هذا الأسلوب من الخطاب الى الغيبة؟ فوقف، **فقلت**: المراد ـ والله أعلم ـ أن هذا وقع من جانب الأدب، لأن النعمة وقع بها الخطاب، ولا يناسب الخطاب بالغضب، الا ترى الى قول الخليل: «**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي**»[65]. ثم قال: «**وَإِذَا مَرِضْتُ**»[66]، ولم يقل: أمرضني، تأدبا، مع أن المرض والشفاء من الله وحده، ومنه «ومن عصاني» ولم يقل: من عصاك، تأدبا، وهذه أساليب القرآن التي ليست في طوق البشر. فترافعنا ساعة، وافترق المجلس. وكنت نازلا عند العلامة الدارك، الشيخ الكبير[67] السيد محمد بن مالك، فأمرني من الغد بالذهاب معه للجامع، فشرع في المسألة كسيل منهمر وبحر يمدّه ـ من بعد ـ سبعة ابحر، لم يدع فاذة الا أدرجها، ولا شاذة الا استخرجها، فعرفت أن الحسن للنشب، وانه وعاء من أوعية العلم المرصود، فقد وفّى بالمقصود وفوق المقصود. ومثل ذلك ان السلطان أبا عنان المريني[68] أمر الشريف التلمساني[69] بتدريس حديث «**إِذَا وَلَغَ الْكَلْبُ فِي إِنَاءِ أَحَدِكُمْ**... «الخ، فقرره باسانيده ورجاله وعلله ولغته، وذكر كلّ من تكلم فيه، فقال السلطان: «اني رأيت العلم يخرج من منابت/ شعره». وقد نزل على دست ملكه، وحضره المقّري (الجدّ) والفشتالي، وغيرهما. **ولقيت**: علماء البليدة وجرى لي ذكر «الجزولي»، ففتحت جيمه، فقال لي أحد تلامذة صاحب الترجمة: سمعت شيخي يضمّ الجيم، ولا أدري أهو رأي نقلا عن ذلك أم لا؟ فبقي ذلك معمويا به قلبي، ومشتغلا به لبّي، وكثر سؤالي على ذلك وبحثي، حتى طالعت بـ «**قسمطينة**»[70] «تاريخ العلامة اليافعي»، فوجدته نص على ضمّ الجيم. ألا ترى ان ابا الحسن الصغير[71] ردّت عليه ـ ببجاية ـ كلمة[72] لحن فيها، وقد قيل له: هي في «**فصيح ثعلب**»، فحفظه في ليلة واحدة. وهذا شأن العلماء في حرصهم على العلم، ويبحثون عليه الزمن الطويل. قال القرافي: أقمت ثمان سنين أطلب تحقيق الفرق بين عدل الشهادة وعدل الرواية، الى غير ذلك من أخبارهم وارتحالهم، ولو لمسألة واحدة[73]. ألا ترى أن جابر بن عباد الأنصاري ـ رضي الله عنه! ـ رحل الى عبد الله بن أنيس الجهني من المدينة الى مصر في «حديث القصاص»، فلما بلغ باب داره أناخ راحلته، فأملى عليه ذلك

الحديث، ثم طلبه للقرى، فأبي، ولم يمكث، ورجع[74] من فوره للمدينة، رضي الله عنهم! وأرضاهم عنا وعن ذريتنا![75] آمين[76]! وللعلامة الشيخ الحاج علي بن الأمين المتقدم في مدحنا ومدح شرحنا لـ «**المقامات**» ما نصه: «يا من له وبه، ومنه وإليه المحامد! كيف أحمد، وله المحجة البالغة، لا يسأل عما يفعل، كيف لا أحمد؟ اللهم صل على صنعك الجميل! إمتثالًا لأمرك لي[77] الكفيل أحمد فكل حامد أنت له ومنه أحمد. إن الله وملائكته يصلون على النبي! كيف أصلي؟ يا صاحب هذا التجلي! وقد بدأت بنفسك، كيف لا أصلي؟! اللهم صل وسلم[78] عنّا عليه! فإنك أدرى بذلك التجلي، وعلى الآل والأصحاب المصلي منهم والمجلي[79]!

وبعد: فقد تصفحنا «**الفتوحات الناصرية، بمفتاح العلوم الحريرية**»[80] وصافحنا من نفحاتها المسكية ركناً يمانياً أميناً، فجسنا خلال الديار من أقطار سمائها الابريزية بخيل الأحداق شمالًا ويميناً، وكشفت (عن ساقها لما رأت صرح أوراقها تحسبها لجّة الاغراق يقيناً، فنمقت بالبلاغة والبراعة، معدناً وزيناً، فبرزت منه هلالية الحواجب على كرسي من التركيب الحواجب للخط تزييناً، تخالها بخالها بنت ابن مقلة التراجم بالرمز والنقط، طائفة الخطط، أسدية المطط، فراتية الخط والشط، تمريناً، ففجرت أنهاراً من البلاغة وعيوناً سلسلية السلك، ابريزية السبك،لجينا مالكية الحظ، كسائية اللفظ، تجويداً مكيناً، تتلو «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً»[81]، فصادفت أسرارِ البلاغة من معاني البيان في أصدافها لؤلؤاً مكنوناً، ومصباح الفصاحة في سرّ الصناعة دراً مصوناً، ونبراس الصياغة في تلويحها ــ الخيالي ــ درّياً مبيناً، واستهلال البراعة في «**الحلل الحريرية**» سيف مسلولًا مسنوناً، فتحلقت[82] «**المقامات الحريرية**» أنواراً، وملئت أسراراً، وأحيت أفكاراً، فتجلّت عرباً أتراباً أبكارا، وجليت على منصة كرسي الاعراب المرصّع بيواقيت العجائب والأغراب، المتجانس بسليقة الأعراب ، وتمنطقت بمقتضى الحال اعتباراً ، السادلة على ذلك أستاراً ، شعر[83] .

أُخْت الْغَزَالَــةِ إِشْرَاقــاً وَمُلْتَفَتــاً لِسِحْرِهَا يَسْجُدُ[84] السَّحَّارُ وَالْحَبْرُ[85]
لَوْلَا محاسِنِها عليهِمْ انْـبَسَطتْ لَمْ يَتَصَدَّعْ فِي تِلْكَ «**الْمَقَامَاتِ**» لَهُمْ أَثَرُ[86]

متوحشة بالمحسنات البديعية فقرا ، من بديع الزمان ، ومتقلدة بسيوف الفوائد من حافظ الزمان ، ومترشحة بالآداب الناصرية دررا كعقد الجمان ، وتوجت بمن غدا تاج الادب وسار فضله سير المثل السائر ، سيدي ووددادي السيد الحاج محمد اباراس ، حافظ العصر بالعيان . اللهمّ خلد دوحة الذكر بنشر علوم غضاه مثمرة النفع بالقبول والأجر كما تحب وترضى ، وردني واياه رداء القبول ، وأمددنا[87] بمدد الرسول . وقد ختمت بمسك الختام العاطر من مفتي الجهلاء بمحروسة الجزائر حماها الله من بغي البغاة وكلّ ماكرعات ! بحماية

حامي [88] الذمار ، نبينا ابن عبد الله [89] محمد المختار ! اللهم ياقدوس ، ياسلام ، أدخلنا/ دار السلام واخرجنا من الدنيا بسلام ! وقد أفاق طؤطؤ القلم من خمراته ، وسكن من صفراته ، اوائل جماداته ، من رابع عشر سنواته ، قاله ورقمه علي بن عبد القادر بن الامين . لطف الله به وبالكاتب عبد القادر [90] آمين . فله كلام مشتمل على تحرير قواعد ، وتحقيق مهمات الفوائد .

ولما دخلت «**قسمطينة**» نزلت على محط رحال الأفاضل ، ومنبع الفضائل [91] والفواضل ، عالم تلك الدرّة وعاملها ، وصالحها وناصحها ، وزاهدها ورائدها ، وذروة شرفها وبركة سلفها ، وأنجب خلفها ، الأمجد الانجد ، الأسعد الأصعد ، العلّامة الشيخ سيدي محمد ابن الشيوخ ، اولي النهي والرسوخ ، منهم : القطب الكبير ، الغوث الشهير ، السيد عبد الكريم محمد الفكون ، وعبد الكريم — هذا — قال الشيخ أحمد بابا : هو [92] تلميذ من ازدهي به الزمان وزان ، الشيخ ابي عبد الله الوزان . والذي في «**نفح الطيب**» ما نصّه : «عالم قسمطينة [93] وصالحها وكبيرها ومفتيها ، سلالة العلماء الجماهير وارث المجد كابر عن كابر : الشيخ عبد الكريم الفكون» . وقد قال في مخاطبته الشيخ أحمد المقري مؤلف «**نفح الطيب**» المذكور في مكاتبات بينهما : وقد اتصل بيدي جوابكم ، أطال الله في العلم بقاءكم ، وأصلح عشيرتكم [94] وأقرباءكم [95] ، فرأيت من البلاغة والعذوبة ما يذهل من العلماء فحولها . ومن أشهر اسلافه العلامة الشيخ ابي علي حسن بن الفكّون ، أحد أشياخ العبدري ، صاحب «**الرحلة**» . وله قصيدة وحيدة مفيدة ، مشهورة عند علماء المغرب ، وهي من در النظام ، وحر الكلام والامر الخارق ، من عند الخالق ضمّنها ذكر البلاد التي رآها من قسمطينة الى مراكش ، منها [96] — ما نصّه في أول مطلعها : [97]

وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ طُرّاً   سِوَى زَيْدٍ وَعَمْرٍ وَغَيْرُ شَيٍّ

إلى أن قال في آخرها :

وَلَوْلَا اللَّهُ متُّ هَوىً وَشَوْقاً   وَكَمْ لِلَّهِ مِنْ لُطْفٍ خَفِي [98]

والقصيدة التي آخرها [99] الياء المكسورة المشدّدة من أصعب الشعر وأشقه . ولذا قال الملك الكامل [100] سلطان مصر لكاتبه : ابحث لي عن ذلك/ ، فلم يجد من يحسن ذلك ، غير بن الفارض القطب المشهور ، فبعث له قصيدة من ذلك ، فبعث له بمال ، فلم يقبله ، وطلب رؤيته ، فأبى .

ولما سمع بي علماء البلد أتوني للسلام — جزاهم الله خيرا ! — منهم : قاضي الجماعة

الونيسي ، الشيخ الحاج [101] الشهير السيد علي الونيسي ، كان فقيها علامة حافظا بارعا نظّارا أنجب أهل عصره ، ومن مفاخر قطره ، مدرس محقق ، بدر علم منير ، وصدر فنون شهير ، قدوة أعدل أنزه صالح ، محقق أفقه . له فوائد كثيرة ، وزوائد اثيرة وعوائد كبيرة . فتذاكرنا في العلوم والفنون ، والحديث شجون ، حتى ذكرنا الانبياء عليهم الصلاة والسلام ! — [102] بالاسم والوصف الكافي — عين العين — وهل تزوج أحد منهم من الحور العين ، **فقلت** : سئل الشيخ علي بن محمد الشهير بـ « **المصري الحنفي** » : هل ذكر أحد أن حوراء من حور الجنة تزوّج بها نبيّ ؟ أجاب : ذكر ذلك بعض شراح « **الفصوص** » [103] ، ونصه : « وجاء في الخبر أن آدم — عليه السلام ! لما مرض مرض الموت تمنّى ثمرة من ثمار الجنة ، فقال لابنه شيث : أدعُ الله يرسل لي شيئا منها ، فقال له شيث : ادعُ الله أنت . ألست نبيه وصفيّه ؟ ! قال : اني أستحي منه يا ولدي ، فدعا شيث ، فرأى حوراء من حور الجنة على رأسها طبق من ثمارها ، فأكل منها آدم — عليه الصلاة والسلام ! [104] — وزوجت تلك الحوراء من شيث نبي الله ، وهي أول من تكلم بالعربية في الأرض . ومن نسلها إدريس ، ولهذا صعد إلى السماء . قال الله العظيم : (وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِياً . [105]) . انتهى من كتاب (الأسئلة)له . ووجد بخط الشيخ عبد الكريم المذكور ، قال : (أخبرنا صاحبنا الفقيه أبو محمد عبد الله المغربي [106] — حين رجع من حجه — أنه وقف على بعض شروح أسماء النبي — صلى الله عليه وسلم ! — أن اسمه في الجنة عبد الكريم) ، قال : (فحصل لي من السرور ما لم يكن .) . وتذاكرنا فيمن اختلف في نبوءته ، فصفا لنا أنهم أربعة ذكور ، وهم [107] : ذو القرنين ، والخضر ، ولقمان ، وخالد بن سنان . وذكر ابن خلدون حنضلة بن مكدم . ومن النساء : حواء وسارة ، وآسية [108] ، وهاجر ، ويوفخذ [109] ، أم موسى ، ومريم [110] ، وكلدى ، ودفوراء ، وحبشى [111] ، أم مريم . والشيخ الونيسي — هذا — حدثني بقصة محمد بن نمير بن قحاف الهلالي وصاحبه بشر بن عبد الله ، يعرف بـ (**الأشتر**) مع محبوبة الثاني جيرة [112] ، ذكرناها في (**فتح وهران**) ، وذكرها الخرائطي . وقد قمت من مجلس الشيخ السيد محمد ومعي العلامة الدراكة الفهامة ، الولي الصالح النزية ، الأنبل الأقبل الوجيه ، واسع العلم ، فصيح القلم ، سريع الفهم ، كريم الخلق ، حلو المنظر ، بعيد من التصنع ، أرق الناس طبعا ، وألطفهم عبارة ، كثير الأوراد والتلاوة ، جميل الهيئة معرض عن الملوك ، طاعم للفقراء ، ممن يحصل الفخر بلقائه ، والعلم بمن تلقائه ، أبو العباس الشيخ أحمد العباسي ، فلم يتقدم في المشي علي ، **فقلت** له : أنت أفضل مني ، يحق لك التقديم ، فقال لي : نص الخفاجي على أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم ! — كان يتقدمه اصحابه والضعفاء والمساكين ، فقلت ذلك من تواضعه — ﷺ ! الا ترى أن الشيخ قويسم الذي تكلم على رجال « **الشفاء** » قال : ان رسول الله —

ﷺ ! — رأى ابا الدرداني يمشي أمام ابي بكر — رضي الله عنهما ! — فقال له ﷺ ! : «يا أبا الدرداني ! تمشي أمام أبي بكر ، وهو أفضل منك !» . فتأخر — رضي الله عنه ! — وراء ابي بكر رضي الله عنهما ! فكان الصحابة لا يتقدمونه ، لعموم قوله — تعالى ! — : «لَا تُقَدِّمُو بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» [113] فان تقدمه بعض المساكين أو جفاة الاعراب ، يقرّهم على ماهم عليه تواضعا منه ، ﷺ ! ثم تناظرنا في استحباب صوم «**رجب**» ، فأخرج تأليفا للسيوطي ، فيه مرجوحية صومه ، **فقلت** : هو شافعي ، وهذا الشيخ خليل المالكي يقول — في ترغيب صوم شهور ، منها «**رجب**» ، ما نصه — : «والمحرم ، ورجب ، وشعبان...» ، فسكت ، فلله درّه ! ما أحسن مناظرته ! وأثبت مناضلته ! وأحلى مفاكهته !

وكنت — مرة — قصدت «**وهران**» ، وافدا على حضرة من ناب في مدحه لسان الحال ، عن لسان المقال ، ذي المقام الذي أطلعت أزهاره غمائم جوده ، واقتضى اختياره بركة جوده ، الملك الأصيل ، الذي كرم منه الاجمال والتفصيل ، الرفيع الشأن ، السيد محمد بايْ ابن عثمان ، أخلص الله جهاده ، ويسّر في قهر اعداء الدين مراده بأبسط العدل والأمان ، قابض اكفّ العدوان/ الجميل النوال [114] ، المتكفّل بحفظ النفوس والأموال ، قطب المجد وسماكه ، محل الحمد وملاكه ، الحافل العادل ، الفاضل الكافل ، الكامل الأصيل [115] ، هازم احزاب العاندين وجيوشها ، هادم الكنائس والبيع «فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا» [116] ، الشهير الخطير ، الرفيع المجاهد المرابط ، المقسط عدله في الجائر ، القاسط ، المؤيد المظفر المقدس المعطر [117] المطهر ، رحمه الله ! وسقى ثراه ! فانجر الكلام الى أن **قلت** : الأمر الفلاني كلا شيء — بفتح الهمزة — **فقال** لي لسان الدولة ، وفارس الجولة ، الذي عظّم (الله) مكانه ورفعته ، وأفرد له متلو العز وجمعه واوتره وشفعه وقربه في بساط الملك تقريبا ، وفتح له أبواب السعادة وشرعه ، وأعطاه لواء القلم الأعلى ، فوجب على من دونه من أولى صنعته أن يتبعه ، وحسبك من ذمام لا يحتاج الى شيء معه ، العالم الفقيه ، الخبر النزيه ، الأمثل الأفضل ، الأحفل الأكمل ، الأنبل ، الأقبل [118] ، الأجمل ، ذو البلاغة والجزالة واللسن ، السيد محمد بن حسن ، من بيت علم وصيانة ، ونزاهة وأمانة ، وبركة وخير ، وقرى ومير ، ومنصب كريم ، وحسب حميم . وكان — رحمه الله — ذا يد في النحو واللغة وسائر العلوم (تفرّد بمعلومها للناسي والمعدوم [119]) ولاسيّما الأدب فينسلّ اليه من كل حدب ، حتى انه كان من [120] لهجته ، وربيع حواسه ومهجته ، **فقال** لي : قل «**كَلَا شيء**» ، بكسر الهمزة ، ألا ترى أنك تقول : «**جئت بلا زاد** ، بكسر الدال ؟ وحرف «**لا**» لا عمل له ، فقلت له : ان «**الكاف**» لا تعيق «**لا**» عن العمل ، كهمزة الاستفهام — والباي رحمه الله ! ينظر الينا — ثم ذهبت وفي قلبي من كلامه شيء ، فعملت

على ذلك تأليفا ، فلما قرأه استحسنه ، وأراه للباي ، لأنه ـــ رحمه الله ـــ ممن طاب خيمه ، وسلم من الحسد أديمه [121] ، وسميت هذا التأليف « **بغية المرتاد ، في كلا شيء وجئت بلا زاد** » . ونظير هذا ان ابا عمر و(عثمان) بن الحاجب دخل على القاضي ابن خلكان ، لأداء شهادة بالاسكندرية ، فسأله على من قال لزوجته : « إن كلمت زيدا ، ان دخلت الدار فأنت طالق » ، فقال تطلق بعكس الترتيب . ولما علمت منه انه لم يرتضيه ذهبت والفت فيها/ تأليفا آخر ، وبعثته له ، فأعجبه ، مثل سؤال عضد الدولة ابن بويه للامام الفارسي عن « **قام القوم الا زيدا** » قال : انه يصح رفعه بتقدير « امتنع » ـــ وهم سائرون في « **ميدان شيراز** » ـــ فأجاب الفارسي السلطان بجواب ، فلم يرتضه ، وقال : هذا جواب ميداني . قال الفارسي : فلما رجعت الى اهلي عملت تأليفا في دلائل نصبه ، ولما نظره السلطان استحسنه ، رحمه الله ! [122]

ورحلت الى مدينة فاس ، محل العلم والإيناس ، والتقريب والتبعيد [123] لأناس ، وهي قبة الاسلام والسلم والاستلام [124] ، المقام الاعلى والمثابة الفضلى ، فهي ام قرى المغرب الوافرة ، وخزائن المزائر (والشهرة الساحرة [125] ، والأنباء المسافرة ، ذات الأرجاء الدانية والقاصية ، والاطواد الراسخة الراسية ، والمباني الباهية [126] ، والأزهار الزاهية والمحاسن الشاهية [127] ، حيث هاله بدر
السماء دارا ، قد استدارت على البناء دارا ، والنهر الفياض علاها وسطا وجارا ، وفلك الدولاب ، المعتدل الانقلاب ، قد استقام مدارا ، ينبع العلم من صدور أهل العرفان ، كنبع مائها من الجدران ، حفظا واذكارا ، حيث الطود كالتاج يزدان بلُجَين العذب المجاج ، فبرز بتاج كسرى ودارا ، حيث قصر الجسور المديدة ، كأنها [128] عوج المطي العديدة ، تعبر أنهاره قطارا ، حيث هي [129] آثار السلطان **ادريس** [130] المجاهد ، تعبق من تلك المعاهد ، شذا معطارا ، حيث كرائم السحائب ، تزور [131] عرائس الرياض الحبائب ، فتحمل لها من الدر نثارا ، حيث شمول الشمال تدار على الأدواح ، بالغدو والرواح ، فترى الغصون (سُكَارَى وَمَاهُمْ بِسُكَارَى [132]) . حيث أيدي الافتتاح ، مفتض من شقائق البطاح أبكارا ، حيث ثغور الأقاح [133] البواسم ، تقبلها بالسحر زوار النواسم ، فتخفق قلوب النجوم الغيارى ، حيث المصلى العتيق قد رحب منارا ، وزرى ببلاط الوليد احتقارا ، حيث الظهور المثارة بسلاح الفلاح ، تجف عن مثله أنسمة المهارا ، والبطون كأنها لترميث [134] الغمائم بطون العذاري ، فما شئت ، من جو صقيل ، ومغرس للمحسن ومقيل ، ومالك للعقل وعقيل ، وخمائل كم فيها للبلابل من قال وقيل [135] ، وخفيف يعادل بثقيل ، وسنابل تحكي من فوق سوقها ألفات ، والعصافير البديعة الصفات ، فوق القضب المؤتلفات تميل لهبوب الصبا

والجنوب ، مالئة الجيوب بدرر الحبوب ، وبحر الفلاحة الذي لا يدرك ساحله ، ولا يبلغ الطبقة البعيدة راحله ، إلى الوادي ، وتمر النوادي ، وخرار [136] دموع العوادي [137] ، المتجاسر على تخطيه ، عند تمطيه الجسر العادي ، فهي للعيون ثماد ، مثل (إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ [138]) .

ولما لقيت علماءها ، وعرفني فقهاؤها ، وقالوا : يا اهلا ! وأهلا ! ومرحبا وسهلا ! طلب مني احد علمائها الكبار ، الحامين للذمار ، استعارة «درة الحواشي ، على شرح الشيخ الخراشي» [139] ، فأبيت ، ولا أدري بأي شيء ابتليت ، ولما ألح بالمقالة [140] ، ولم يسعف بالاقالة ، أعرته اياها ، وقلت له : بل [141] هي في حقك قليلة ، وعين الرضى عن كل عيب كليلة ، فأتى الى نقلي فيها عن كلام الخطّاب ، ولم يتأن لمحن أو فحو خطاب ، فنسخ وسلخ ومسخ ، حتى تركه ابيا ، وهجره مليا ، وصيّره نسيا منسيا ، فجددت كدّ القريحة ، واتبعت الفكرة المستريحة ، وأعطيت النظر حقه ، وامطيت اليراع رقه ، وقد استنّ هو ومن وافقه ذلك المستنّ ، وما علموا اني لست ممن يقعقع له بالشّن ، فاحصرت الانقال ، وحللت ما امغره من الاعتقال بالفعل والقوة ، ونقضت ما عقده : عروة عروة . وقد سود بذلك الاعتراض في طرة «الحاشيّة» واظهر فيها العوار ، وما أحسن قول الامام القابسي [142] :

«احقّ الخيل بالركض المعار» .

ثم انه لما عضمت فعلاته ، وحنضلت نخلاته [143] ، وسمع بقية العلماء وشاع ذلك ، حتى سمعه السلطان ـ نصره الله ! ـ وجملة الاخوان ، فعتبوه وذموه ، وقالوا له . تعمد الى كتاب من هو بالفهم والحفظ خليقا/؟! وتصير دُرَّه عقيقا ؟! وتجعله هدفا ؟! وأبدلت بياقوته صدفا ؟! ولما كثر عليه العذل ، واللوم الجزل ، استعارها مني ثانيا وحفرها في ليلة عازما غير متوانيا ، فلم يصبح الى اثر الحفر لتلك الطرر ، فوضح وضحتين ، وتعب مرتين ، وحفظنا منه اسمه ... ، ... ثم انه دعاني بعد المعارضة والجواب ، فقلت له [144] : ان الكريم اذا دعي اجاب ، فأحضر أطعمة كثيرة حافلة ، وفاكهة أثيرة نافلة ، وأحضر العلماء الاعيان ، وشيخهم حافظ العصر السيد والسند [145] الطيب بن كيران [146] ، الطائر صيته في الآفاق بالاتفاق ، حتى سارت به الرفاق ، الى اقاصي مصر والشام والعراق ، والى مجالس غانة ، وفرغانة ، العالم الصالح الزاهد ، الجميل الجليل الجزيل الناهد ، أوتي الحفظ واللفظ ، والعلم والفهم صبيا ، وحل من رئاسة العلوم والزهد مكانا عليّا ، مشهور الكرامات ، معروف الديانات ، أخذ العلم بفاس عن الاكابر ، ومازال من المراهقة عليه مثابر ، بلغ في [147] العلم والفتوى ، إلى الغاية القصوى ، وحمل راية الخطابة

والتدريس والفتوى ، فهو فخر الخلف ، وأعلم الناس بالسير وأخبار السلف . وقد قالوا : آخر الحفاظ الامام السيوطي والامام السخاوي . وأنا أقول : آخر الحفاظ والتبيان والبيان ، الشيخ الطيب بن كيران ، وليس الخبر كالعيان . ولما توفي ـــ رحمه الله ! ـــ اهتزت لموته فاس ، وحزن لموته كل الناس ، وصاروا يرثونه ويمدحونه ، وحضر جنازته السلطان فمن دونه ، وهذا شأن العلماء الكبار من كل الأقطار والامصار . ولما مات الصاحب اسماعيل بن عباد مشى السلطان على قدميه في جنازته ، وجلس للتعزية ، وكذا موت الشريف التلمساني وغيره . ولنرجع الى ما كنا بصدده [148] : ولما شرب بعض تلامذته ـــ بتلك الضيافة ، والدعوة المضافة ، وكان [149] ذلك الشارب حَذْوَ مَن انضاف الى الاعتراض ، فحفظته الاضافة ـــ بادرت بلفظ « صحّة» لذلك الشارب/ الحاوي المشارب ، فضحكوا منّي ، حتى قرعت من الندم سني ، ثم قلت : ما سندكم في ترك [150] هذا الأدب ، الذي أخذ به كل ما جدّ ودب ؟! فقالوا : تلك عادتنا ، فقلت : لم تستدلوا بنقل على ذلك ، فقالوا ـــ بأجمعهم [151] : وأي نقل في هذا [152] ؟ فقلت : إن شهاب الدين الخفاجي نصّ على السنّة ، وصاحب« المدخل » نصّ على البدعة ، وأنتم [153] لم تحفظوا شيئاً من هذين النقلين قط ، واعتمدتم على العادة الشنيعة [154] فقط ، وكان الشيخ الطيب المذكور متكيّا ، معرضاً عن تلك المناظرة مليا ، ولما سمع النقل استوى جالساً بلا ميل ، كاستواء المأمون [155] لما لَحَّنه النظر بنُ شميل [156] ، فقال لي : أو يوجد النقل على ذلك ، والإختلاف فيما هنالك ؟ ! فقلت : نعم ، كما سمعتني أتكلّم ، فقال أمل علينا ، فقلت : قال شهاب الدين أحمد الخفاجي الحنفي : روى الحاكم والدارقطني عن أم أيمن أنها قالت : قام رسول الله ـــ ﷺ ! ـــ في الليل إلى فخّارة في جانب البيت فبال فيها ، فقمت ـــ وأنا عطشانة ـــ فشربت ما فيها ، وأنا لا أشعر ، فلمّا أصبح قال : « يَا أُمَّ أَيْمَن ! قومي ، فاهرقي ما في تلك الفخّارة » ، فقلت : شربت ما فيها ، فضحك ، ثم قال : « وَاللهِ لَا يَجُوعَنَّ بَطْنُكِ أَبداً » . وعن عبد الرزاق بن جريج أنها اسمها « بركة » ، كانت تخدم أم حبيبة جاءت معها من الحبشة إلى آخر كلامه ، فقال لها « صِحَّة يَا أُمَّ أَيْمَن » ، فما مرّ بها حدث غير مرض موتها وقال ابن دِحْية [157] : هما قصتان لامرأتين . ثم قال الخفاجي : قلت : وفي قوله ـــ ﷺ ـــ : « صِحَّة » ما يدل على أن الدعاء به بعد الشرب سنّة ، لا بدعة عامية . وحكمية ـــ أيضاً ـــ لأن الأكل والشرب يخشى منهما السقم ، فلذا [158] دعا ﷺ ! وكما قال الشاعر :

فَإِنَّ الْأَلَمَ أَكْثَـــــرَ مَا تَرَاهُ ... يَكُونُ مِنَ الطَّعَامِ أَوِ الشَّرَابِ

ونصّ ابن الحاج في « مدخله » : « وقولهم : « صِحَّة » من محدثات الأمور . وهذا اللفظ ـــ وإن كان دعاء حسنا ـــ فاتخاذه عند الشرب بدعة . فإن قيل : أن النبي

ـــ ﷺ ! ـــ قال لأم أيمن ـــ لما شربت بوله ـــ : « صِحَّة ، يَا أُمَّ أَيْمَن ، لَنْ تَلِجَ النَّارُ بطْنَكَ » . **قلت** : هذا ليس فيه حجّة ، لأنه لم يكن ثمّ ماء شربته ، وإنما هو البول ، وهو إذا شرب عاد بالضرر ، فقال لهَا ﷺ ! « صِحَّة » ، لينفي عنها ما تتوقعه مما جرت به العادة من بول غيره ـــ عليه الصلاة والسلام ! (فتضمّن ذلك دعاء أو إخبار أو غير ذلك ، بخلاف شرب الماء فلم ينقل عنه ـــ عليه الصلاة والسلام ! ـــ [160] هذا اللفظ في غير هذا الموضع ، ولا عن أحد من أصحابه ، ولا عن أحد من السلف الماضين ، رضي الله عنهم أجمعين ! فلم يبق إلا أن يكون بدعة » . هـ . فاعترفوا بفضلي ، وبصحة نقلي وعقلي .

وكنت **حضرت** في حلقة ختمة [161] ، فقال لي مؤدب الصبيان : لا أناولك هذه الملعقة حتى تعرّفني بحكم الله في الأكل بها ، **فقلت** : ذكر لي بعض الثقات أنّه لا بأس بالأكل بها [162] ، نقله عن ابن يامون . ورأيت بـ « **مازونة** » بهامش كتاب : « قف ، الأكل بالملاعق بدعة مستحسنة » ، فألقاها لي ، وأكلت بها ، ثم بقيت أفتش عن ذلك النقل مدّة حتى طالعت كتاب « **المدخل** » فوجدته نصّ على المسألة ، ونصّه [163] : « والسُّنَّة أن يأكل بيده ، ولا يدخل أصابعه في فمه ، ثم يردها إلى القصعة ، فإنه ـــ ولا بد ـــ [164] يصيبها شيء من لعابه فيعافه هو في نفسه ، ويعافه غيره ممن يراه ، فإن فعل ناسياً فيغسل يده ، ثم يعود ، لأن لعق الأصابع إنما شرع بعد أكل الطعام [165] خوفاً من الاستقذار ، وحفظاً لنعم الله تعالى ! [أن تمتهن ، وينبغي أن لا يأكل حتى يمسّه الجوع ، وعلامة ذلك أن يطيب له الخبز وحده ، وينبغي له] [166] أن لا يذم طعاماً ، وأن لا يستعجل على السخون لعدم البركة فيه ، كما في حديث : « إِنَّ اللهَ لَا يُطْعِمُنَا نَاراً » . ولا ينبغي له أن يأكل بهذه الملاعق ، ولا بغيرها ، وذلك لثلاثة وجوه ، **أحدها** : مخالفة سنة السلف في ذلك . **والثاني** : أنه [167] يدخل ذلك في فيه ، ثم يردها إلى الطعام ـــ كما مرّ [168] اليد ـــ **والثالث** : فيه نوع من الرفاهية ، إلّا أن يكون له عذر ، فأرباب الأعذار هم حكم خاص بهم » ، ثم أن الشيخ الطيب بن كيران ناظرته في قوله ﷺ ! ـــ : « حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ : النِّسَاءُ ، وَالطِّيبُ ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ . » [169] . فحمل الحديث على ظاهره . **فقلت** : الصلاة من أمور الآخرة ، وأنما الثالثة أكله ﷺ ! : « الدبّاء » [170] مثلا ، وأن [171] هذا من أسلوب العرب يذكرون جملة ويقتصرون على [172] البعض ، قال تعالى ! : « فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ » [173] . ولم يذكر [174] غيره : كعدم نزول الطيور عليها ، وإهلاك الجبابرة ، وإتيان الخلائق لها كل سنة من أقاصي المعمور ، ولذا قال الشاعر :

إِنَّ تَمِيمـــاً أَثْلَاثٌ مُثَلَّثَـــةٌ   ثُلْثٌ مِنَ الْعَبِيدِ ، وَثُلْثٌ مِنْ مَوَالِيهَا

وسكت عن الثلث الثالث ، وهم الأحرار من بني تميم ، وكقول الآخر :

إِنَّ الْأَحَامِرَةَ [176] الثَّلَاثَةَ أَهْلَكَتْ مَالِي وَكُنْتُ بِهَا قَدِيماً مُولَعاً
الْخَمْرُ وَاللَّحْمُ السَّمِينُ وَاطلا بِالزَّعفران ، فَلَا أَزَالُ مُولُعاً

وسكت عن القسم الثالث ، وهو القمح . وأما قوله «واطلا» الواو واو الحال ، أي : حال كون اللحم السمين مطليا بالزعفران ، فسكت [177] — رحمه الله ! — . **وتكلمت** مع أديب فاس وعالمها وعاملها وأحد رؤسائها وأكابرها الشيخ حمدون [178] الذي تعلق من العلوم بالعروة الوثقى ، وسما به الأدب الى المحل الأرق ، وتبادر الفقهاء [179] والأعيان ركضا الى المنافسة في قربهم وسبقا ، ابتغاء ما عند الله «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى [180]» ، واغتباطا بالعلم الذي من ظفر به أحرز الفخر حقا ، أعلامه سامية ، وبركاته هامية ، وآمال العلماء الى غايته مترامية ، وان هذا السيد الفقيه الجليل الكبير ، الشهير الخطير ، رئيس الفئة العلمية العديدة الوافرة وكتيبتها القائمة الظافرة ، وجواد هذه الحلبة الفاسية الكريمة ، وبارق هذه الديمة ، تاج المفرق ، وفخر المغرب والمسرق . **فقلت** في قول عباس بن الأحنف : «دب الشلول له ...» ، **فقال** : هذه العلامة الأديب : «دبّ الشُّلُوُّلَهُ ...» ، فاستفدتها منه . وسبب ذلك أن هارون الرشيد غاضب جاريته : «**خالصة**» ، فغضبت هي — أيضا — فصار كل واحد منهما غضبان [181] (على الآخر [182]) . ولما رأى جعفر بن يحيى البرمكي ذلك أمر العباس بن الأحنف — وكان لا يشق له غبار في التغزّل — فعمل بيتين ، وهما [183] ما نصّه [184] :

رَاجِعْ أَحِبَّتَكَ الَّذِينَ هَجَرْتَهُمْ إِنَّ الْمُحِبَّ إِذَنْ فَلَا يَتَجَنَّبُ
إِنْ التَّجَنُّبَ إِنْ تَطَاوَلَ مِنْكُمَا دَبَّ الشُّلُوُّلَهُ فَعَزَّ الْمَطْلَبُ

ثم إن جعفر أمر إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، فغنى بهما للرشيد ، فذهب مبادرا إلى الجارية ، فترضاها ، فبعث إلى كل من [185] العباس وإسحاق بمال . وضمني واياه مجلس قائد فاس ، فتناشدنا أشعارا ، وتراجعنا مرارا . ولمّا سمع منّي القائد رقائق كثيرة ، ولطائف أثيثة ، أعطاني حصانا جيدا من مراكبه ، وتحفة من [186] مكاسبه ، أخصب الله ضريحه . وأسكنه من الجنان فسيحه . **ولقيت** : نحْويَّ فاس ، باتفاق الناس ، ذا السر المصون ، الشيخ عبد القادر بن شقرون [187] ، الرائض من كلام «**التسهيل**» كل شماس وحرون ، نحويّ محقق ، وأديب مدقق ، وصالح موفق ، وأستاذ نحرير نظار ، وفوائد تدريسه لُجَيْن ونضار ، يبديها في مواقيت ، كأنهار جواهر ويواقيت ، لحم محصل لازم حلقة تعليمه ، وشديد الظنة عمّا يحصل من تفهيمه ، فما حصلوا الافادة الّا عنه ، ولا ظفروا بالسعادة الّا منه . ذو فكر نقاد ، وذهن منقاد ، انتفع به جهابذة النقاد ، ذاكرته في مسائل ، فكان أوصل من كل مسؤول السائل ، فكأنه ابن اكثم لا يتوقف ولا يتلعثم . وكتب الى علماء

« **تازة** » لما بلغه انهم قصروا معي : « كيف بكم لم تكرموا هذا الحافظ الذي له الشهرة التامة بالمغرب والمشرق ؟!» . وقد كتب لي مكتوبا هو ـــ عندي الى الآن ـــ يمدح به شرحي الكبير على « **المقامات** » .

ولقيت الفقيه النبيه الأنيس ، الشيخ محمد بن بنيس [188] ، عالم زاهد صالح ناصح من الصالحين والعباد والزاهدين ، عظيم الحفظ معروف بجودة النظرة وثقوب الفهم ، ذو جلالة وطلاوة وحلاوة وفصاحة وملاحة . بحثت معه في « تفسير ابن عطية » ، وعمّا/ قليل اخترمته المنية .

ولقيت الفقيه الهواري [189] ، فوجدته في النظم والنثر كسيل جار ، وكذا الزروالي [190] صاحب المعالي ، يدرس بحضرة الجماهير ولا يبالي له لفظ كأنه نظم لآلي ، فقلت له ـــ يوم ختم « **المختصر** » ، وأنا على قدم من سفر ـــ: كيف قرأت توافق الخنثي ؟ فخجل ، وقال : والله ! لا أدري ما قلت فيه . قلت : وما تقول فيه الآن ؟ فقال : لا أدري ، فعرفته به نظما ونثرا ، فعرف حقّي ، وصار كأنه رقّي ، لتواضعه وذلك شأن العلماء . **ولقيت** ابن منصور ، فكأنه ـــ في نحو ابن هشام ـــ أسد هصور . ثم حضرت [191] مجلس ذي الخلافة الذي ارتفع في عقائد فضلها الاصيل القواعد الخلاف [192] ، واستقلت مباني فخرها الشائع ، وعزها الذائع ، على ما أسست الاسلاف ، ووجب لحقها الحازم ،وفرضها اللازم الاعتراف ، ووسعت الاملين لها البقاع الرحيبة والاكناف ، فامتزاجنا لعلائها الشريف وولائها المنيف ، كما امتزج الماء والسلاف ، وثناؤها على مجدها الكريم ، وفضلها العميم عمّا تأرجت الرياض الأفواف ، لما زارها الغمام الوكاف ، ودعاؤنا بطول بقائها ، واتصال علائها ، يسمو به الى قرع ابواب السموات العلى الاستشراف ، وحرصنا على توفية حقوقها العظيمة ، وفواضلها [193] العميمة لا تحصره الحدود ، ولا تدركه الأوصاف ، خلافة وجهة تعظيمنا اذا توجهت الوجوه ومن تؤثره اذا أهمّنا ما نرجوه ونفديه ... ستسمح المحبوب باستدفع المكروه ... السلطان الخليفة الجليل الأثيل ، الأصيل ، النبيل ، الأعلى ، الأجلى الأظهر الأبهر الأرضى الأمضى الأحفل الأكمل الأنبل ، الذي انعقدت امامته انعقاد الدرّ والجمان أمير المؤمنين مولانا سليمان [194] ، أبقاه الله بركة وأمنا وأمانا ، لا يخصّ جلب الخير اليه وقتا ولا يفتر زمانا ، مؤيدا معانا وله قومات [195] شديدة ، وعزمات سديدة . وكان مجلسه ـــ نصره الله ! ـــ لايخلو من العلم/ والعلماء ، تعليما وتعلما .

ولما قرأ القاريء ـــ بين يديه في سورة « **الأنبياء** » : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً » [196] **قلت** : يا سيدي الاولى من حقه أن يسكت شيئا ما ، عند « إِسْحَاقَ » ، ثم

يبتديء «وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً» ، فقال لي — أيده الله ! — من أين لك ذلك ؟ **قلت** : قال الشيخ ابراهيم — عند قول الشيخ خليل في الحدود : « وجرد الرجل » والمرأة مما يقي الضرب» : ان القاريء يقف عند ذكر «الرجل» ، ثم يبتديء «والمرأة مما يقي الضرب» ، على حد قوله — تعالى — : «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ ، وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً» ، لأن يعقوب بن إسحاق ، فهو حفيد الخليل ، عليهم الصلاة والسلام (197) ! فاستحسن ذلك ، وأكرمني بمال جزيل ، أدام الله نصره !ولولا مهابتي له لزدت . وقد قال لي — يوما — : ذكر لي أحد الحجّاج أن الامام أبا حنيفة دفن بمصر ، فعارضته ، وقلت له (198) : نصرك الله ! إن الذي بمصر هو الشيخ محمد الحنفي من أقطاب الأولياء ، حنفّي المذهب ، من أهل القرن الثامن ، معاصر للشيخ علي بن محمد وفا . وأما الامام أبو حنيفة — رضي الله عنه ! — فتوفي ببغداد ، ودفن بـ « **مقبرة الخيزران**» سنة خمسين ومائة (199) . **وسألني** — يوما (200) ، نصره الله ! — عن حدّ المغرب الأقصى ، **فقلت** : قال ابن خلدون : حدّه « **وُجْدَة**» . وجدّد ذلك الحد أول القرن الثاني عشر (201) مع جدّك السلطان (مولاي (202)) اسماعيل وأتراك الجزائر ، فقال لي : إني رأيت حدّه «**تافنة**» ، فسكت ، خشية منه وقال لي — أيضا — أنّ بني قحطان أهل اليمن — كلّهم من ذرية اسماعيل بن الخليل — عليهما السلام ! — وكذلك كلّ الناس ، **فقلت** : يا مولانا ! ان العرب العاربة البادية ، وهم : عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس ، وجرهم ، والسلفات ، وعبد صحم ، وعند يالل ، هؤلاء الثمانية شعوب كلّهم اسماعيل . وأما أهل اليمن فالمشهور أنهم ليسوا من نسله . وقال ابن جرير الطبري : انهم من نسله ، وعليه فالعرب كلها من نسل إسماعيل .**وسألني** أدام الله نصره ! — عن الملوك السعدية وبني وطّاس وبعض أهل الزوايا ، فأجبته بما عندي وعلمت أن له يد في التاريخ ، والأنساب ، وأيام العرب . وذلك العلم الذي تعتني به الملوك قديما . وقد **قلت** : إن الملوك السعدية انقرض ملكهم سنة تسع وخمسين وألف (203) ، هل بقي أحد منهم ؟ فقال لي : بقي اثنان ، هما (204) بفاس الجديد ، لا أعلم غيرهما ، مع بعد العهد بانقضاء ملكهم . **ولما رجعت** من فاس ،دخلت تلمسان ، فسئلت عن علمائها ، وملوكها ، ومن اختطها ، **فقلت** :أول من اختطها «**بنو يفرن**» قبل الاسلام ، ثم شاركهم إخوتهم : مغراوة فيها ، وكان بينهما منافسة وحروب ، كما كان بفاس بين زيري بن عطية المغراوي — ويروي ابن يعلى الافريني (205) — ولما نزل عليهما يوسف بن تاشفين سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة (206) اختط تلمسان الجديدة — هذه المسكونة الآن — فصار الناس يتنقلون من القديمة الى الجديدة ، حتى درست ، ثم ملكها الموحدون ، ثم بنو مرين ، ثم بنو عبد الوادي ، ومنهم أخذها الأتراك سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة (207) ، ثم صارت بين الفريقين فتنة إلى أن

صفت للأتراك سنة ست وخمسين من القرن المذكور [208] . وأما علماؤها فأولاد ابن زاغو من مغراوة ، والعقابنة من قرية بالأندلس ، والمرازقة من عجيسة : أهل «**جبل وسلات**» بافريقية . وأتى سلفهم لتلمسان ، والمقارة ، من «**مقّرة**» : قرية بزاب افريقية ، وأولاد الامام ، والشرفاء الأدارسة : أبو عبد الله وأولاده ، والشيخ أحمد بالحاج المانوي وبنوه . وكنت سمعت أن بها من [209] أضرحة العلماء أربعة آلاف . وجلست مع (أحد)بقيتهم [210] فرأى لفظ «نظم» بخطي بضاد ، فقال : بل بظاء مشالة ، فطالعت «القاموس» ، فوجدت الصواب منه . والله أعلم . وها أنا أذكر نبذة في مدحها ، نظرا الى ما كانت عليه في سالف الأزمان ، وأما الآن فهي كأمس الدابر ، والميت القابر ، قد استولى على أكثرها الخراب ، وناح على خاوي عروشها الغراب ، فأقول : تلمسان : وما أدراك بتلمسان ! فبقعة الظل الأبرد ، ونسيجة ، المنوال المفرد ، وكناش الغيد الخرد ، وكرسي الامارة ، وبحر العمارة ، ومهوى هوى الغيث الهتون ، وخروب التين والزيتون ، حيث خندق الجنّة تدنو لأهل النار مجانية ، وتشرق بشاطيء الأنهار إشراق الأزهار زهر مبانية ، و «**مشور**» يوسف الذي تختمت بنان شرفاته بخواتم النجوم ، و «**العقيلة**» التي أبدى الاسلام طلاقة الوجه لها بلا هجوم ولا وجوم ، ذات الأفلاذ الوادعة ، والدعوة الصادقة الصادعة ، المجانبة لكلّ فادحة فازعة ، المعمرة بالقراءة والتكبير والتهليل ، والعلم الدقيق الأثيل ، والجنود كالكثيب المهيل ، والخيل تتجاوب بالصهيل ، الآتي لها التيسير من ربها والتسهيل ، فأصبحت خامدة الحس ضيقة النفس ، «كَأَنْ لَمْ تَكُنْ [211] بِالْأَمْسِ» ، قال مضاض بن عمرو الجرهمي [212] :

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ «الْحَجُونِ» إِلَى «الصَّفَا»
أَنِيسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِـ «مَكَّــةَ» سَامِـــرُ

سأل بعضهم أديبا عن الأندلس لما غلبت ؟ فقال له : قال أبو الطيب المتنبي [213] :

أتى الزمـــان بنـــوه في شبيبتـــه
فسرهـــــم ، وأتينـــــاه على الهرم

إن أتوا الزمان على الهرم ، فأهل الأندلس أتوه وهو في السياق ، وما أحسن ما قيل :

«يا تلمسان ! اصبري على كمد الزمان وكدّه ، وقلب مِجَنَّة ، وذهاب رفده ، فعسى الله أن يأتي بالفتح وأمر من عنده» .

ثم **ذهبت** الى تونس أم البلاد ، ومثوى الطارق والتلاد ، هي التي على عمل ، أهلها في القديم بهذا الاقليم كان العمل ، والكرسي الذي بعصاه ترعى الهمل ،والمصر الذي له في خطة

المعمور الناقة والجمل ، ذات المناهي والمبادي ، يقضي منها نفثه العاكف والبادي ، والرائح والغادي ، خفقت بها ريح الخلافة في القرن السابع [214] في كل الأقطار والأركان ، وما كان مهبه إلا في ذلك الايوان ، بلاشك ولا مين ، حتى جاءته بيعة اهل بيعة الحرمين ، بانشاء ابن سبعين [215] سنة تسع وستين [216] . واجتمعت بعلمائها واجلة فقهائها ، ونزلت على شيخها ومفتيها الذي لا شيء عليه من نصوص الفتاوى بمحجوب ، الشيخ السيد محمد بن المحجوب [217] ، ذي العلم الغزير ، والرأي الأثير ، والعزم والحزم ، والجد الساعي الى مساعي الأب والجد . سمعت اهل تونس يقولون في ابيه : إنه مالك الاصغر .

كنت جالسا — يوما — معه ، فأتى خصمان في حضانة ، فقال لمن اراد نزعها من الحضانة : أثبت عليها أنها غير مأمونة . فقلت : ان الحاضنة اذا نوزعت في سلب شرط وادعت أنها متصفة به هي تثبته ، لقول الشيخ خليل : «واثبتها» ، فرجع الى قولي ، فلله درّه ! ما أنصفه ! وصار يشاورني في نوازل ترفع اليه ، وبث شكري في تونس يفوق ما أستحقه .

وكنت — يوما — معه ببساتينه في قرية غوث كل لاجيء ، الشيخ ابي سعيد الباجي ، فأتى بكتاب فيه : أن حافظ المذهب ابن رشد (الجدّ) أتى من قرطبة — قاعدة الاندلس — الى مراكش ، فلما سمع به القطب الغوث الشيخ ابو العباس السبتي اتاه ، لأنه أخبر ما اتى الا ليعترض عليه ، فاعطاه القطب مائة مثقال ، وتكلّما ، فدعا عليه ابن رشد بالحمّى ، فقال القطب لخديمه : ونحن ندعو عليه بالموت ، فمات ابن رشد تلك الليلة ، وجهزه اهل مراكش ، وقاموا به . وقال الشيخ ابو العباس لخديمه : اذهب لمائة تجدها ، ولم يفقد منها الا درهم ، فذهب ، فوجدها كما قال .

ولما سمع اهل قرطبة أتوه ، فنقلوه الى بلادهم ، ولمائة يوم من نقله دفن الشيخ ابو العباس في ذلك القبر . هذا لفظه . قلت له : هذا بعيد جدا ، لأن ابن رشد مات بقرطبة سنة عشرين من القرن السادس [218] ، أيام ملك السلطان علي بن تاشفين ، والشيخ ابو العباس مات عام واحد من القرن السابع [219] ، أيام ملك الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ، كذا في كل التواريخ . وظنّ أن الصواب معي ، ولعل هذا حفيده [220] المسمى باسمه . وكنت — يوما — بمجلس شيخنا السيد [221] صالح الكواش [222] ، العلامة الفهامة ، الذي كل المعقول/ والأصول والبيان على ظاهر قلبه ، ولو فقدنا «الكبرى» أو «السعد» أو «المحلي» لأحياها [223] من حفظه وفهمه [224] ولبّه ، بحيث لم تجد له في عصره مماثل ، ولا في قطره ولا غير قطره معادل .

ولما سمعته وقع في الأئمة : كابن خلدون ، والبرزلي ، وابن ناجي ، تكلمت معه بلطف وسمت حسن . **وقلت له** [225] يا سيدي ! تلك امة قد خلت ، لها ماكسبت فهذا البرزلي حافظ المذهب ، وابن ناجي شارح «المدوّنة» ، و «**الرسالة**» ، وكفى بابن خلدون مزية أن عالم الدنيا ابن مرزوق الحفيد تلميذه ، وأثنى عليه علما ودينا ، وشرحه [226] للبردة يدل على غزارة علمه . **وقد اجتمعت** بعالم الدنيا على الاطلاق ، وأديبها بالاتفاق ، الزاهد الناسك ، الحافظ الدارك ، الشاعر ، الناثر ، الناظم ، الكاضم ، الخاشي الخاشع ، المنفع النافع ، الأمضى ، الأحضى ، الأرضى ، الأنبل ، الأقبل ، الأحفل الاجمل ، الأمثل ، الأمجد ، الأنجد ، الأوكد ، الأوحد ، الأفضل الفاضل ، الكامل العالم العامل ، المشار اليه بالأنامل ، فريد العصر ، وتحفة [227] الدهر ، وفخر ذلك القطر ، ذو الاطلاع والاستطلاع ، وكرمت منه أجناس وأنواع ، وعلم يبهر [228] منه شعاع ، وحكم توحيدية يجب لها أهطاع ، ومواعظ يحق لها حثيث واسراع ، ذو الهمم الاكيدة ، الرامي بجودة فهمه أغراض الفوائد البعيدة ، والنزاهة العليا ، التي نيطت هامتها بالثريا ، التالي الذاكر بالغدوات والرواحي ، أخونا السيد ابراهيم الرياحي [229] ، معارض الحريري في «**المقامات**» ، وله في طريق القوم أمارات وعلامات ، أدرك من المعارف في الصغر ، ما لم يدركه غيره في الكبر ، الأبرع البليغ العارف الفاضل ، المتفنن حسن العهد فاضل الصحبة ، كريم المعاشرة ، منصف في المناظرة ، له سجايا جميلة ، ومتصف بكل فضيلة ، له في العلوم فتح وتأييد ، عاكف على الطلب والنظر والتقييد ، طلبه سلطان تونس أن يكون بها قاضيا وبعث له « خلعة القضاء» ، فردّ له ذلك وأبى وامتنع . وهذا غاية الورع بمو النزاهة عن الطمع ، وطريق العلماء الأوائل ، أهل الفضل/والفضائل . ولما رأى تآليفي وطالعها استحسنها غاية الاستحسان ، وأنشد عليها قصائد حسان ، (كأنها دُرَرٌ أو جواهر أو شقائق نعمان ، رحمه الله ! وكفاه بالانعام والاحسان !) [230] .

«يَا هَلْ دَرَى جِيــرَةٌ بِالسَّفْــحِ قَطَّـــانُ
إِنِّـي بِهِـمْ بَيْـنَ فَيْـحِ الْبِيـدِ وَالْبَــانُ [231]
أَشْتَاقُهُـــمْ وَسَوَادُ الْقَــلْبِ مَسْكَنُهُـــمْ
وَأَسْوَدُ الْعَيْـــنِ إِذْ لَمْ يَحْـــظَ سَيْحَـــانُ
وَأَجْتَلِـــي عَنْهُـــمُ الْأَنْبَـــاءَ إِذْ عَمِـــيَتْ
عَيْنِـــي وَكَالْعَيْـــنِ بَعْضُ الْحِيـــنِ آذَانُ
فَإِنَّ رُوحِـــي بِذِكْرِهِـــمْ لَهَـــا طَرَبٌ
وَلِلْفُـــؤَادِ بِهَـــا رَوْحٌ وَرَيْحَـــانُ
فَلاَ تَلُـــمْ أَيُّهَـــا اللاَّحِـــي فَإِنَّكَ عَنْ

مَا كَبِدَتْ كَبِدِي الْحَرَّاءُ وَسْنَانُ
لَمْ تَأْسَ قَطُّ عَلَى إِلْفٍ أَنِسْتَ بِهِ
وَلَمْ يَرُعْ رَوْعَكَ الْمُلْتَاعَ هِجْرَانُ
وَلَمْ تَبِتْ تَسْفَحُ الدَّمْعَ الرَّخِيصَ وَمَا
لَهُ إِذَا بِيعَ لَوْلَا الْحُبُّ أَثْمَانُ
وَهَلْ أَرِقْتَ تُرَاعِي الشُّهْبَ مُدَّرِعاً
حَنَادِسَ اللَّيْلِ وَالْأَحْشَاءُ أَحْزَانُ
تَرْثِي لَكَ الشُّهْبُ هَذَا سَاقِطٌ صَاعِقٌ
وَذَاكَ فِي السَّيْرِ مُرْتَابٌ وَحَيْرَانُ
وَبِتَّ تَيْأَسُ فِي صُبْحٍ تُرَاقِبُهُ
مِنْ أَيْنَ يَقْدُمُ بِالْأَحْدَاثِ إِنْسَانُ
وَصِرْتَ أَكْثَرَ مَا تَهْوَى الْمَقَابِرَ لَوْ
أَنَّ الْفُؤَادَ لِمَا تَهْوَاهُ يَقْظَانُ
خَلِّ الْغِنَاءَ لِأَهْلِهِ كَمَا تَرَكُوا
لَكَ الْهَنَاءَ فَلِلْأَوْجَالِ إِخْوَانُ -
وَاسْلَمْ بِنَفْسِكَ لَا تَجْعَلْ لَهَا سَبَباً
إِنَّ الْهَوَى فَهْوَ لِلْإِنْسَانِ فَتَّانُ
وَسَلِّمِ الْأَمْرَ تَسْلِيمَ الْوَرَى لِـ «أَبِي
رَأْسٍ» ، وَدِنْ مِثْلَ مَادَانُوا فَيَزْدَانُ
حَبْرٌ تَفِيضُ بِعِرْفَانٍ جَوَانِبُهُ
إِنْ لَمْ تَقُلْ فَهْوَ لِلتَّحْقِيقِ عِرْفَانُ
أَنْفَاسُهُ بِضُرُوبِ الْعِلْمِ سَاقِحَةٌ
وَكُلُّ عُضْوٍ لَهُ دَرْسٌ وَتِبْيَانُ
تَرَاهُ جَامِعَ أَشْتَاتِ الْفَضَائِلِ مِنْ
قَوْمٍ مَضَوْا ، فَكَأَنَّ الْقَوْمَ مَا بَانُوا
إِذَا تَحَدَّثَ فَاسْمَعْ «مَالِكاً» وَإِذَا
تَفَقَّهَ اهْتَزَّ بِالْإِعْجَابِ «نُعْمَانُ»
وَمَا شَعَرْتَ بِغَيْرِ «الْأَشْعَرِيِّ» إِذَا
تَكَلَّمَتْ مِنْهُ بِالتَّوْحِيدِ أَرْكَانُ

وَلَا نَظَـرْتَ إِلَـــى غَيْـــرِ «الْجُنَيْـــدِ» إِذَا
أَبْصَرْتَـــــهُ ولَـــــهُ بِالشَّوْقِ تَحْنَــــــانُ
وَلَا رَأَيْتَ سِوَى «سَحْبَـــانَ» يُعْــرِبُ عَنْ
مَا يُعْرِبْــنَ عَنْـــهُ فِي الْإِعْـــرَابِ قَحْطَـــانُ
وَلَـيْسَ إِلَّا «ابْـــنُ بِشْرٍ»[232] حِيـــنَ تُبْصِرُهُ
وَفِـي كِسَاءِ «الْكِسَائِـي» مِنْـــهُ أَضْغَـــانُ
مَا ضَرَّ ذَا الْحِقْـــدِ لَوْ كَانَ امْـــرُءًا خَطِـــراً
أَنْ يَغْتَـــدِي ، وَهْـــوَ بِالتَّسْلِيـــــمِ جَذْلَانُ
إِنْ خَافَ بِالْحَقِّ/نُقْصَانـــــاً يُحَـــاذِرُهُ
فَفِـــي الضَّلَالَـــةِ نُقْصَانُ وَنِيـــرَانُ
وَمَـــنْ يَكُـــنْ لَمْ يَرَ اللَّـــهَ لَهُ خَطِـــراً
فَهْـــوَ الذَّلِيـــلُ وَإِنْ حَابَتْـــهُ خُلْصَانُ
لَا تُصْغِ لِلإِفْكِ بِالتَّقْلِيـــدِ وَارْقَ إِلَـــى
عَيْـنِ الْيَقِيـنِ فَفِـي التَّقْلِيـدِ حِرْمَـــانُ
هَذَا الْإِمَـــامُ «أَبُـــو رَأْسٍ مُحَمَّـــدُ» مَنْ
سَارَتْ بِتَبْرِيـــزِهِ فِي الْخَلْـــقِ رُكْبَـــانُ
هَذَا الــــذِي أَقْلَـــعَتْ أَنْبَـــاؤُهُ صَمَمـــاً
وَأَبْصَرَتْ نُورَهُ الْمُلْتَـــاحَ عُمْيَـــانُ
أَجْلَـــى الْجَهَالَـــةَ فَانْجَـابَتْ غَيَاهِبُهَـــا
وَاشْتَـــدَّ مِنْـــهُ لِدِيـــنِ اللَّـــهِ بُنْيَـــانُ
فَكَـــمْ أَفَـــادَ بِتَحْرِيــــرٍ وَقَـــرَّرَ مِنْ
نَوْبٍ وَحَــــــــرَّرَ مَنْ بَحْثُ لَهُ شَانٌ
وَكَـــمْ أَجَـادَ وَكَـــمْ أَهْـــدَى وَكَـــمْ أَرِقَتْ
لَهُ ابْتِغَـــــاءَ رِضَى مَوْلَاهُ أَجْفَـــــانُ
وَكَـمْ شَفَـى مِنْ سَقِيـــمٍ كَانَ فَوْقَ شَفَـــا
وَحَـــارَ فِيـــهِ أُسَاةٌ عَزَّ إِمْكَـــانُ
آيَاتُـــهُ الْبَيِّنَـــاتُ الْغُـــرُّ قَدْ نَطَـــقَتْ
بِالْـــفَضْلِ لَمْ يَلْتَـــمِسْ لِلشَّمْسِ بُرْهَـــانُ
بِهَـــا الدَّلَائِـــلُ لَا تَنْـــفَكُّ عَاطِـــرَةً

مِنْ عَرْفِهَا الْكَوْنُ بِالْإِعْطَارِ مَلآنُ
تَفْتَرُّ عَنْ بَرْقِ أَسْرَارٍ وَتُسْفِرُ عَنْ
مَعْنىً لَهُ مِنْ جَلَالِ السِّحْرِ سُلْطَانُ
وَذِي الْحَوَاشِي الَّتِي جِيدُ «الْخَرَاشِي» بِهَا
لَهُ قَلَائِدُ مَرْجَانٍ وَعِقْيَانُ
تَرْمِي إِلَيْكَ بِجَفْنِ الْعَيْنِ إِنَّ «أَبَا
رَاسٍ» وَلَيْسَ لِمَنْ ضَاهَاهُ وُجْدَانُ
عَذْرَاءُ أَحْفَلُ مِنْ عَفْرَاءَ أَجْمَلُ مِنْ
«لَيْلَى» وَمِنْ «مَيٍّ» دُونَهُنَّ غِيلَانُ
تُعْطِي الْفِصَالَ إِبَاءَ الْمُحْصَنَاتُ وَمَا
عَنْ بَازِلٍ أَمْهَرَ الْإِمْعَانَ عِصْيَانُ
لَا تَطْمَعَنْ فِي مَعَانِيهَا فَتَفْهَمُهَا
مَالَمْ يَكُنْ فِي مَجَالِ الْعِلْمِ مَيْدَانُ
هِيَ الْبَيَانُ الَّذِي رُشْدٌ وَتَبْصِرَةٌ
لِذِي التَّبَصُّرِ فِيهَا وَهُوَ إِيمَانُ
وَهْيَ الَّتِي إِنْ تَكُنْ لِلْفِقْهِ مِنْ ضَمَاءٍ
فَأَنْتَ مِنْ وِرْدِهَا السَّلْسَالِ رَيَّانُ
فَإِنْ حَنَنْتَ إِلَى «نَحْوٍ» فَدُونَكَ مَا
بِهِ «الْمَكُّودِيُّ» طَالَتْ مِنْهُ أَرْدَانُ
مِنَ الْحَوَاشِي الَّتِي ضَاءَتْ مَحَاسِنُهَا
وَأَشْرَقَتْ بِحَوَاشِي الصُّدْغِ عُرْبَانُ
تَغْزُو الْقُلُوبَ بِأَجْفَانٍ لَهَا مُلِئَتْ
سِحْراً وَهَلْ لَكَ بِأَسْحَارٍ أَعْيَانُ
لَا تَحْسَبَنَّ غِضَابَ الْجَفْنِ غَيْرَ سَوَا
دِ الْقَلْبِ ، هَبْ أَنَّ ذَاكَ الْجَفْنَ سَكْرَانُ
وَلَا تَقُلْ حَيْثُمَا لَانَتْ مُحَاوَرَةٌ
ذِي نَهْزَةٍ فَلِضَعْنِ الْحَيِّ فُرْسَانُ
وَاسْلُ الْهُمُومَ بِشَرْحَيْهِ الَّذَيْنِ هُمَا
شَرْحُ الصُّدُورِ وَلِلثَّكْلَانِ سُلْوَانُ
كَسَا «الْمَقَامَاتِ» مِنْ خَزِّهِمَا حُلَلاً

لَهَا مِنَ الْحُسْنِ وَالْاحْسَانِ أَلْوَانُ
كَانَتْ عَلَيْكَ عُقَابُ الْجَوِّ مُمْتَنِعاً
فَأَصْبَحَتْ وَلَهَا طَوْعٌ وَإِذْعَانُ
رَوْضٌ أَزَاهِرُهُ يُحْيِي الرُّفَاتَ إِذَا
مَاجَتْ بِأَدْوَاحِهَا فِي الرَّوْضِ أَفْنَانُ
لَهَا الْبَانُ مَعِينِ وَالْمَعَانِي لَهَا
عَيْنٌ وَفِي طَيِّهَا حُورٌ وَوِلْدَانٌ
مَا هِيَ إِلَّا جِنَانُ الْعِلْمِ زُخْرُفُهَا
آدَابُ حُسْنٍ لَهَا التَّحْقِيقُ رِضْوَانُ
بِهَا «الْحَرِيرِيُّ» فِي دِيبَاجِ رَوْنَقِهَا
عَلَى أَرَائِكِهَا الْحَسْنَاءِ نَشْوَانُ
يُثْنِي عَلَيْكَ «أَبَا رَاسٍ» وَيَشْكُرُ مَا
أَوْلَيْتَهُ وَلَهُ بِالشُّكْرِ إِعْلَانُ
قُلْ لِلْبَسِيطَةِ تُثْنِي حَيْثُ صَارَ لَهَا
مِنْ سُحْبِ فَضْلِكَ بِالْأَفْضَالِ هَتَّانُ
وَمَا عَلَى الْغَيْرِ تُثْنِي حَيْثُ أَنْتَ لَهَا
رُوحُ الْحَيَاةِ وَكُلُّ النَّاسِ جُثْمَانُ
لَا خَيْرَ لِلدَّهْرِ إِلَا أَنْ تَكُنَ بِهِ
يَا مَنْ بِهِ خُتِمَتْ لِلْعِلْمِ خِلَّانُ

فانظر إلى هذه البراعة الفائقة ، والجزالة الرائقة ، والمأخذ الغريب ، والتخلص [233] والاقتضاب العجيب ، وحسن الاختتام ، المشعر بالتمام ، في قوله :

....

يَا مَنْ بِهِ خُتِمَتْ لِلْعِلْمِ خِلَّانُ

قال الشيخ الأخضري [234] ــ في منظومة البيان [235] :

«وَمِنْ صِفَاتِ لِلْحُسْنِ فِي الْخِتَامِ إِرْدَافُهُ بِمُشْعِرِ التَّمَامِ [236]»

ولما قال الامام النووي ــ في آخر «**حزبه**» ــ : «الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى» . قال شارحه : «فيه إيماء لبراعة الاختتام» . وهي قوله : «**وكفى**» . وهذا شيء لا يتفطن له إلا أولو البصائر ، ذوو الأحلام ، المتلاعبون بأطراف الكلام ، من البلغاء والعلماء والأعلام .**وكان حمودة باشا** [237] ــ صاحب تونس رحمه

الله ! — أوفده[238] على السلطان سليمان[239] ، فمدحه بقصيدة هائلة ، تعجبّ السلطان من بلاغتها ، وتصاريف موازينها ولغاتها ، فأجازه جائزة سنية . **واجتمعت مع العلماء بجامعها** الأعظم[240] ، فتذاكرنا ، وتناظرنا ، وترافعنا ، وتشاجرنا ، وتقابضنا في جميع الفنون الدقيقة ، والمسائل المخفية . وقد أظهرني الله عليهم في ذلك كله[241] ، ثم سألوني عن أشياء صعاب فقهية ، **فأجبتهم** عليها بما عندي من الأنقال الرائعة عليها ، من غير توقف ، ولا تلعثم وأخبروا بذلك الاعتراض والجواب الذي حارت فيه أهل الصواب [242] **ذا المجد الذي تلقى بالقبول** والاستحقاق ، وقام به عمن دونه من ملوك الآفاق ، صان حلل العليا عن ابتذالها [243] ، وحفظ عن الأيام رونق جمالها ، والود الذي لا شبهة في تحقيقه ، ولا ريب في تصوره وتصديقه : السيد **حمودة باشا** ، فبعث الي بسرعة ، فذهبتُ اليه من غير وهلة بعد المفاوضة والمباحثة الشديدة [244] ، ولما رآني فرح بي [245] ، وأجلسني وأكرمني [246] ، برد الله ضريحه ، وأسكنه من الجنان بحبوحه ! ثم سألني عن أشياء عديدة [247] وعن « **قصر الأجم** » ، **قلت** : هو من بناء هنادسة الفرنج والروم ، حتى إنه كانت تطلع الشمس كل يوم في كوة من كواه على عدد تنقلها ذهابا وايابا ، فهو من عجائب الدنيا . ثم سألني — رحمه الله ! — عن « **قسمطينة** » ، فأجبت بأن صاحب « **القاموس** » قال فيها : « هي حصن من حصون افريقية ثم **سألني** [248] عن « **القيروان** » ، **فقلت** : اختطه عقبة بن نافع الفهري وسط القرن الأول [249] ، **ثم سألني عن** « **المعلّقة** » ، و « **الحنايا** » ، وغيرهما ، مما بافريقية وبرقة : كمدينة « **لبدة الخراب** » ، **فأجبته** بما عندي ، فاستحسن ذلك كلّه ، رحمه الله ! وقدّس ثراه ! ثم ان بعض العلماء لما سمعوا باكرامه لي اعتراهم الحسد والكمد والمكر . وقد بدت البغضاء من **أفواههم** ، وما تخفي صدورهم أكبر . غفر الله لهم ! وأجزل ثوابهم ! ونقّى من درن [250] الحسد أثوابهم وأجسامهم ! **ثم ركبت البحر الى مصر** البلد الذي ليس لعمر ولا لزيد ، والفرا الذي في جوفه كل الصيد ، استقل به كرسيّ خلافة الاسلام ، وأعار بالرصافة والجسر ومدينة السلام ، وما عسى أن تطنب في وصفه ألسنة الأقلام ، وتعبّر عن كماله فنون الكلام ، ودخلت بناءها المبهت المعجب ، وخارجها المنبت المنجب [251] ، فحمدت الرؤوف المنزل ، ذا العطايا المجزل ، حتى صار « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل [252] » عنا بمعزل ، ذا العمارة الهامية ، كأمواج البحور الطامية ، ذا العلوم الزاهرة بـ « **الأزهر** » ، والعساكر القاهرة بـ « **القلعة** » و« **المزهر** » ، و« **الفسطاط** » و« **مشهد الإمام** » ، و « **جامع ابن طولون** » **و** « **الأهرام** » ، والحسنين الشرفاء الحنفاء ، والملوك والخلفاء . لقيت بها العلماء الكبار ، أهل العلم والأدب [253] والأخبار : الامام الأرضي ، الجهبذ الأمضي ، سيف الله المنتضي ، شيخنا السيد مرتضي [254] ، ففاوضته في فنون ،

فوجدته كما لي فيه من الظنون ، ورويت عنه أوائل[255] « الصحيحين » و « **رسالة القشيري** » ، و « **مختصر العين** » ، و « **مختصر الكنز الراقي** » ، وأجازني بالباقي . ثم كتب لي اجازة ، نصّ بعضها : « اني أجزت الفقيه العالم المتفنّن الحافظ فلان » ، الى أن قال : « **ذاكرني في فوائد جمة ، وذكّرني بمطالب مهمّة** » الخ ...**أنظر إلى هذا الانصاف وجميل الأوصاف الذي اتصف به — رضي الله عنه ! وأرضاه ! وجعل الجنة مرتضاه ومرتقاه ! — من**[256] **أن مثلي يذكّره بالمسائل ، وأنا أعي من باقل ، وحق رب المشرق والمغرب ! اني بين يديه كعصفور بين يدي « عنقاء مغرب »** . **وكذا الشيخ**[257] **الأمير** وصفني في اجازته لي : بـ « **الحافظ** » . وأما العلّامة الشرقاوي فلقبني في اجازته بـ « **شيخ الاسلام** » ، أسكن الله الجميع دار السلام . وقرأت عليه من مذهب الشافعي — رضي الله عنه !— فما رأيت ابرك من لقائه ولا أحسن من القائه . ثم اني قرأت مذهب الامام أحمد بن حنبل ، الذي جمع بن العلم والعمل ، على شيخنا الشيخ عصمان الحنبلي ، ذي العلم والصيت الجلي ، بـ « **رواق الحنابلة** » مأوى الأسانيد العباهلة . وكان ذلك بمختصر الشيخ مرعي ين بوسف المقدسي[258] الحنبلي ، كما قرأت مذهب الامام الشافعي بمختصر القاضي أبي شجاع أحمد بن الحسين بن أحمد الاصبهاني[259] قراءة نصيحة وجد وقريحة . وسمّى الشيخ مرعي كتابه « **دليل الطالب ، لنيل المنى**[260] **والمطالب** » على مذهب امام الأئمة ، وباني الأمة ، المعظم المبجل ، **الأنجد الأجل**[261] ، الامام ابي عبد الله أحمد بن حنبل رضي الله عنه وارضاه ! وجعل الجنة مأواه ومثواه[262] ! قال الشاعر[263] :

« لَئِنْ قَلَّدَ النَّاسُ الْمَذَاهِبَ إِنَّنِي ... لَفِي مَذْهَبِ الْحَبْرِ ابْنِ حَنْبَلَ رَاغِبُ[264]
أُقَلِّدُ فَتْوَاهُ وَأَعْشِقُ قَوْلَهُ ... وَلِلنَّاسِ فِيمَا يَعْشِقُونَ مَذَاهِبُ »

وقرأت « **مختصر ابي شجاع** » الشافعي بشرح الحافظ العلامة المفسّر الخطيب أبي عبد الله الشربيني ، وهو عندي ، والحمد لله ! ثم اني قرأت مذهب الامام ابي حنيفة على المجد النظار ، الشيخ احمد بن عمار[265] ، وعلى الشيخ بيرم[266] مفتي تونس ، وعلى شيخنا ابي الفيض مرتضى ، ويأتي لنا مشائخنا بمكة شرفها الله ! وبالشام والسلام . **لطيفة ظريفة ، وغريبة شريفة** : اجتمعت[267] مع علماء مصر بالجامع الأعظم[268] ، وتناظرنا وتذاكرنا في مسائل جمة . ثم قالوا لي : من لقّب بـ « **الحافظ** » ، لا بدّ له ان يختص بشيء دون غيره . وأنت ما تحفظ[269] ؟ **فقلت** : أحفظ كذا وكذا متنا من سائر العلوم ، **قالوا** : لقينا كثيرا من الناس يحفظ مثلك أو أكثر ، **قلت** : أحفظ « أحكام القرآن »[270] مثلها كلها ، وأفهمها ، قالوا: عندنا كثير من يحفظها حفظا وفهما. **قلت**: أحفظ «**ألفية ابن مالك**»،و « **منظوم**

البيان » [271] ، ما من باب فيهما أو فصل الا أعرف كم فيه من بيت بديهة ، قالوا : هذا لم نر [272] من يحصيه ، ولا سمعنا به ، ونحن بمدينة العلم الحاوية كلّ أمر غريب . فشرعوا في امتحاني ، وتزييف مكانتي [273] ومكاني ، فأخرج احدهم كتاب « **الألفية** » وفتحه من آخره ، فخرج له « باب التصغير » ، فقال لي : كم فيه من بيت ؟ **فقلت** : فيه اثنان وعشرون بيتا ، فحسبوه فوجدوه ثلاثة وعشرين ، فصاحوا ، وضحكوا ، وأرادوا تزييف نقدي ، وتكذيب ما عندي ، **قلت** : ناولوني الكتاب ، فأخذته [274] وطالعته ، فاذا فيه بيت من جَمْع التكسير أدخلت فيه سهوا من الكاتب ، وتأملتها ، فاذا في أولها « **خاء** » بالحمرة ، لا يدركها الا المتأمل ، وفي آخرها « طاء » كذلك اشارة الى انها هنا خطأ ، كما هي عادة الطلبة ، فرأوا ذلك ، ولم تطب أنفسهم ، حتى رأوا تلك البيت بعينها في « جمع التكسير » ، وزاد [275] عدم انصافهم ، حتى طالعوا نسخا عديدة [276] صحاحا من « الألفية » وحسبوا فيها ابيات « باب التصغير » ، فلم يجدوا فيه [277] الا اثنين وعشرين ، كما قلت ، ولم يجدوا تلك البيت فيه ، بل وجدوها في الباب فوقه ، وهو : « باب [278] جمع التكسير » ، فألقوا السلم ، واعترفوا لي [279] بالفضل والنبل ، فصرت عندهم لا نجارى ، ولا نبارى ، ولا يقاس لي عندهم عبارة ، ولا يشق لي غبار . وارتفع ذكري ، وازداد فخري ، وعلموا ان العلم بين/ سحري ونحري ، كما وقع لي بتونس مع علماء أتوني يوم الجمعة ، وأنا في شغل بفور السفر ، فقالوا لي [280] : لو حضرت « الجمعة » ، فقلت يندب للمسافر — الذي لم يجب عليه/ حضورها ، اذا لم تشغله عن حوائجه ، فصاحوا ونكصوا ، وردوا عليّ كلامي وأكثروا ملامي . وقالوا — زيادة في تبكيتي وتنكيتي — من قال هذا ؟! **فقلت** : أعندكم شرح الشيخ الخراشي الصغير ؟ قالوا كلّنا عنده ، **قلت** — في نفسي اسرارا —: هؤلاء « كمثل الحمار يحمل أسفارا » ، **فقلت** : هي فيه من المقولات ، تسهيلا لكم على المطوّلات ، فقالوا : وأين موضع ؟ **قلت** : عند قول المصنف — في باب الجمعة — : « وعبد ومأذون ، ان أذن سيّدها » فأسرعوا لكتبهم ، فوجدوا كما قلت ، فأتوني بعشرة شواش [281] فائقات [282] ، وسألوا مني الدعاء . **وأيضا** أنا أكتب في شرح الخفاجي [283] اذ دخل عليّ [284] جماعة من الطلبة ، فقالوا : جاهل منّا رغم أن الامام اذا صلّى بالقوم ناسيا للحدث ، ولم يعلم المأموم بحدثه ، ثم علم ذلك بعد الفراغ من الصلاة تصحّ ؟ **فقلت** : الامام يعيد ابدا ، والمأمومون لا اعادة عليهم أصلا ، قالوا : وما دليلك ؟ **قلت** : قول المصنف [285] : « ومحدثا ان تعمّد أو علم مؤتمه » ، فهاتان صورتان تفسد فيهما صلاة المأمومين . وأولى الامام ، ومفهومه صورة واحدة ، وهي : اذا لم يتعمد الحدث والحال أن المؤتم لم يعلم ، فتصحّ للمؤتم ، فطالعوا الشيخ الخراشي [286] وغيره ، فوجدوا ذلك كما قلت ، فأكرموني غاية الاكرام .

ثم رحلت الى «ينبوع البحر» مأوى الغريب والايلاف ، الى الشيخ عمارة العلاف ، من أعظم من لقيت به قدرا ، وأرفعهم خطرا ، وأشرفهم ذكرا ، أحد الأئمة الأكابر ، فارس المنابر ، امام الأئمة وقدوة الأمة ، فالأعناق منشالة اليه ، سامعون لأمره ، متبركون به ، معترفون بفضله ، متصرفون عن قوله وفعله ، يردون من احسانه مناهل الكرم ، ومن فضله مواقع الديم ، علمه أوضح من منار على علم ، أنحلته العبادة ، وأكلته الزهادة ، فلم يبق منه الا رسوم على سجادة ، ومع ذلك فهو اصبر خلق الله على الحاح السائلين ، واختلاف القاصدين ، تكفل بحوائج الأغنياء والفقراء ، والأمراء والوزراء . رويت عنه بعض «صحيح البخاري» ، وأجازني بالباقي ، نجاني الله واياه يوم التلاقي ! ان الله هو الرؤوف الواقي [287] . ثم رحلت لـ «أم القرى» ، ذات المكارم والعلى والعرى ، التي لا بغيرها تقاس [288] ، لأنها «أول بيت وضع للناس» ، درّة السلك النضيد ، وبيت المعاني اليه [289] القصيد ، ذات النعم المفعمة السجال ، وميدان السعادة الرحب المجال ، وأغراض الاسلام مقابلة بالابتدار لتوفيتها والاستعجال ، والخوارق العجيبة مخيلات في الرؤية والارتجال ، ذات المقر الأشرف الذي فضل المحال الدينية محلّه ، وكثر في «بئر زمزم — مقيض اسماعيل ، عليه السلام ! — لمغله وعله ، وطابت أرجاؤه لما استمدّ من ريحانتي الجنة أصله ، فوقها البيت المعمور التي بالمكارم عدت ، والأرض من تحتها مدت . **فاجتمعت** بعلمائها وفقهائها : كالعلامة الدارك ، السيد عبد المالك ، الحنفي المفتي الشامي القلعي [290] حسبما هو في اجازته لي [291] . وكنت قرأت عليه نبذة من الحديث ، ونبذة من «**الكنز**» ، وشيئا من التفسير في سورة «النور» ، وأجازني بالباقي ، **وكذا** مفتي الشافعية بها : شيخنا السيد عبد الغني ، وطالت مجالستي وبحثي مع مفتي المالكية : الفقيه السيد الحسين المغربي ، وغير ذلك ، مما ضمّه مسجد مكة المشرفة ، مأوى الرائح والغادي ، الذي قال فيه : سواء العاكف فيه والبادي . والقبّة [292] العظمى للاسلام ، ومبدأ الوحي من الملك العلام ، ومنها كان الاسراء بالنبي عليه الصلاة والسلام ! الحرم الأمين ، البائد للطغات والمجرمين . **وقد اجتمعت** — بها — بالشيخ الكبير ، الصوفي الشهير ، العلامة ، العامل القدوة الحجة الفهامة ، الجامع بين العلم والعمل ، مجمعا على فضله ودينه ، أستاذا ممتعا ، ذا تحقيق ، ثاقب الذهن أحيد البحث ، مشاركا في الفنون ، فاضلا ، صحيح النقل ، كامل العقل : شيخنا السيد عبد الرحمن التادلي المغربي ، له الباع الواسع في طريق القوم واللغة ، ذو فضل وتخلّق ، وتواضع ، وحسن خلق ، وجميل عشرة . أخذ عن الشيخ السمان ، وغيره ، وجاور بالحرمين الشريفين حتى توفي . **قرأت عليه** شرح العارف بالله ابن عبّاد على «**الحكم**» بمكة المشرفة سنة خمس ومائتين وألف [293] وختمناه في «الحجر» تحت «**ميزاب الرحمة**» ، قراءة تحقيق وتدقيق ، رحمه الله ! **ولما ذهبت** للحج سنة ست وعشرين [294] لقيت علماء الوهابية (وهم تسعة علماء أكابر

جماهير ، وأفضلهم) الشيخ علي تاسعهم (فوقع لي معهم مناظرة ومباحثة واعتراضات . وسؤالات ، وأجوبة فائقات ، ودلائل قاطعات ، وأحاديث مروية عن أكابر الأئمة من الأمهات [295]) ثم تناظرنا (بعد صلاة العصر قبالة «الحجر» في «صلاة العصر» ، وقراءة «دليل الخيرات» ، والتسبيح بـ «السبحة» ومشاهد السادات ، وهدم (مباني الأولياء ذوي الكرامات [296]) فرجعوا عن البعض بعد الاستدلال بالنصوص العظيمة العميمة . وكان ظني فيهم أنهم حنابلة المذهب ، ففاوضتهم في «قصر الصلاة» ، **فقلت** : ان الامام أحمد بن حنبل عنده نيّة اقامة أربعة أيام صحاح تقطع حكم السفر ، فقالوا : عندنا «القصر» لا ينقطع مادام السبق ، فعلمت أنهم خارجون عن المذاهب الأربعة في الفروع . وأما في العقائد فهم على ما عليه الامام أحمد . ألا ترى أن الحافظ الذهبي ، والمزني ، والبرزلي ، شافعية في الفروع ، حنابلة في المعتقد ، بخلاف شيخهم ابن تيمية ـ بفتح التاء ـ فانه حنفي الفروع والاعتقاد [297] . **ثم رحلت لطيبة** ، بعد هذه الغيبة ، وملء العيبة ، وهي المدينة المشرفة على من تشرفت به أفضل الصلاة والسلام ! فيا حبّذا بمهبط الوحي ونزول جبرائيل : عليه السلام ! وتشريع الأحكام ، من حلال وحرام ، ونعم المهاد ، ومبعث الجيوش والسرايا للجهاد ، وضريح سيد المرسلين والكونين والثقلين والفريقين : من عرب ومن عجم . **ولقيت** بها علماء أجلاء من كل قطر ومصر . وكثيرا ما أقبلنا على ضريحه ـ صلى الله عليه وسلم ! ـ وضريحي [298] صاحبيه أبي بكر ، وعمر رضي الله عنهما ! (وحشرنا وذريتنا ووالدينا في زمرتهما تحت ألويتهما ! [299]) ثم زرنا الصحابة بـ «البقيع» ، وغيره ، رضي الله عنهم أجمعين ! [300] وجرى لنا مع العلماء أبحاث ومناظرات غير مرات . معظمين ما عظّم الله : من دار هجرته ، ومطلع بدره في ضريحه وقبره [301] ، لا تتعدّى عليه ـ ﷺ ! ـ أرض ، لا كل ، ولا بعض ، وكذا كل الأنبياء ، صلى الله عليهم وسلم [302] ! وهو أول من تنشق عنه الأرض والملجأ اليه في «المحشر» بعد «النشر» . فالحمد لله الذي فضّل بعض البقاع بخصائلها الكريمة ، ومزاياها ، وتفضيل الرياض الوسيمة بريّاها ، وجعل منها مثابات رحمته تضرب اليها العباد أباط مطاياها ، مؤملة من الله غفران زلاتها وحطّ خطاياها ، وخصها بضريح سيد المرسلين فأسعد منها مماتها ومحياها . ورفع علياها بالكريم الرؤوف بالمؤمنين رحيم ، ومطلع وجه السعادة برونق محياها [303] وموضح أسرار النجاة ومبين خفاياها ، الذي تدارك الخليقة بهديه فكشف بلاياها ، ورعى بسنّة الله رعاياها ، وجمع بين صلاح دينها ودنياها . **ثم رحلت الى الشام** ، فتكلّمت مع علمائها في مسألة من «الحبس» ، نصّ عليها الشيخ أبو زكرياء ابن الحطّاب [304] رحمه الله ! فطال بحثنا فيها جدا . ثم انهم رجعوا لقولي [305] ، ووافقوني ، وأنصفوني بعد الدلائل القاطعة والأجوبة الرائقة والمباحث الفائقة ، وذلك شأن

العلماء ، ولما أردت السفر جمعوا لي دراهم كثيرة ، وزادا قدر الكفاية فخرجت ، وودّعوني ، وشيّعوني . ثم دخلت «الرملة» ، التي هي أحد مدن « فلسطين » ، ولقيت مفتيها وعلماءها فتفاوضنا زمانا في « الدخان » و « القهوة » ، فأجبتهم بما قال العلماء في ذلك ، وذكرت لهم نصّ أبي السعود [306] فيهما معا ، فأكرموني .

ثم رحلت الى «غزّة» فزرنا بها قبر سيدنا هاشم : ثالث آباء النبي ، صلى الله عليه وسلم ! ولقيت علماءها وأمراءها [307] ، فضيّفوني ، وأكرموني ، وتناظرنا (في مسائل من العلم مختلفات [308])برهة من الزمان ، فاعترفوا لي بالفضل والعلم والحفظ . وتلك المدينة كانوا يقولون لها : «غزة هاشم» ، كما في شعر أبي نواس ، حيث قال [309] :

«طوالب بالركبان» «غزة هاشم»

وهي بفتح الزاي المعجمة . ثم رحلت الى «العريش» ، فلم أجد بها عالما آنس إليه ، ويكون التعويل عليه .

* * *

هوامش

(1) هو : ابو عبد الله ، محمد بن عمر بن محمد بن رشيد ـــ بصيغة التصغير ـــ الفهري ، السبتي : كان علما من أعلام الأدب والتفسير والحديث والتاريخ ، وكان رحّالة جوّابا للأقطار . تولى الخطابة بجامع غرناطة الأعظم . من مؤلفاته : «ماء العيبة فيما جمع بطول الغيبة ، في الرحلة الى مكة وطيبة» . «تلخيص القوانين» ، في النحو . «المحاكمة بين البخاري ومسلم» . توفي ـــ بفاس ـــ سنة 721 هـ = 1321 م . وفي جميع النسخ : ابن رشد بصيغة التكبير .

(2) هو : أبو عبد الله ، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن مرزوق ، العجيسي التلمساني ، المعروف بـ «الخطيب» : أحد أعلام الفقه والأصول ، والحديث والأدب . وهو الجد الرئيسي في العلم والأدب لعائلة المرازقة ، توفي سنة 781 هـ = 1380م .

(3) هو أبو سالم ، عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي ، الفاسي ، أحد فقهاء زمانه ، من مؤلفاته : «اظهار المنة على المبشرين بالجنة» . «مسالك الهداية» ، بأسانيد شيوخه . «تحفة الأخلاء بأسانيد الأجلاء» . «ماء الموائد» (الرحلة العياشية) ، توفي سنة 1090 هـ = 1679م .

(4) هو : أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي المغربي ، من مؤلفاته : «الرحلة الناصرية» توفي سنة 1129 هـ = 1717م .

(5) «هو» : ساقط من (ب) .

(6) «الكبرى» : هي «العقيدة الكبرى» لمؤلفها أبي عبد الله محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي ، الحسني ، التلمساني ، المتوفى سنة 895 هـ = 1490م .

(7) «على» : ساقط من (ج) .

(8) في جميع النسخ : وسديت .

(9) «فسألني عن ذلك» : ساقط من (ب)

(10) ب : ان .

(11) هو : أبو القاسم ، ابراهيم بن عبد الله بن ابراهيم النميري ، المعروف بـ «ابن الحاج» : أحد كبار الفقهاء بالأندلس وكتابها ، وأدبائها . من مؤلفاته : «المساهلة والمسامحة ، في تبيين طرق المداعبة والممازحة» . «تنعيم الأشباح ، في محادثة الأرواح» . «فيض العباب ، واجالة قداح الآداب ، في الحركة الى قسنطينة والزاب» . توفي سنة 768 هـ = 1367م .-

(12) ب : الطلبة المحبين .

(13) ب : كان عندهم مشارا اليه .

(14) «البدوي» : ساقط من (ب) ، وفي ج : البدري المقرومي .

(15) ب : عليهم .

(16) ج : الأمير .

(17) ب : الصاحب .

(18) ب : الامام الشيخ خليل .
(19) « وقد » : ساقط من (ج) .
(20) الزيادة : من (ب) .
(21) « أن » : ساقط من (ب) .
(22) ب ، ج : المساق .
(23) تقدمت ترجمته .
(24) ج : يتأنس .
(25) سورة « المائدة » ، الآية : 29 .
(26) الزيادة : من (ب) .
(27) ب : الصلاة والسلام .
(28) ب ، ج : الاتهام للنفس .
(29) سورة « يوسف » ، الآية : 53 .
(30) « اذا » : ساقط من (ب ، ج) .
(31) ج : لينكفّ .
(32) سورة « المائدة » ، الآية : 32 .
(33) « المذكور » : ساقط من (ج) .
(34) هو : عبد الحكيم بن شمس الدين الهندي السيالكوتي ، البنجاني : أحد أعلام عصره المشاركين في كل فنّ . من مؤلفاته : « حاشية على المطول » ، في البلاغة ، « حاشية على تفسير البيضاوي » ، « حاشية على الجرجاني » ، في المنطق . توفي سنة 1067 هـ = 1656م .
(35) « ابتكره » : ساقط من (ج) .
(36) ج : لا بواسطة .
(37) « هو » : ساقط من (ب) .
(38) ب : عن الجواب والبحث .
(39) ب ، ج : بمنهلة .
(40) ب : تحتمله .
(41) ج : استظهار .
(42) ج : والاستقراء .
(43) ب : وجزموا .
(44) في جميع النسخ : ذكروه (والتصويب من قلمنا) .
(45) الزيادة : من (ب) .
(46) ج : كالردعيين لي على ...
(47) ج : من أسيم .
(48) ب : زادهم الله واياه .
(49) « الحقد » : ساقط من (ب) .
(50) ج : حرم .
(51) ج : واتبعت .
(52) ج : حذاق الطلبة .
(53) « خلاف » : ساقط من (ب) .
(54) « بالقتل » : ساقط من (ج) .
(55) ج : تحكم مجلسه .

(56) صاحب القول هو خليل بن اسحاق المالكي .
(57) هو : أبو العباس ، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي ، القاهري ، الشافعي ، المعروف بـ « السمين » : أحد أعلام العربية والقراءات والتفسير . من مؤلفاته : « تفسير القرآن » ، عشرون جزءا . « القول الوجيز ، في أحكام الكتاب العزيز » . « الدر المصون في اعراب القرآن » . توفي سنة 756 هـ = 1355م .
(58) ب : علي .
(59) « منه » : ساقط من (ج) .
(60) أي : بمدينة الجزائر .
(61) الفهامة الدراكة » : ساقط من (ب) .
(62) « القبس » : هو اسم شرح لموطأ الامام مالك ، لمؤلفه أبي بكر ، محمد بن عبد الله بن محمد ، المعافري ، الأشبيلي ، المعروف بـ « ابن العربي » . توفي سنة 543 هـ = 1148م .
(63) ب : النسك .
(64) هو : ابو يعقوب يوسف بن تاشفين بن ابراهيم ، المصالي ، الصنهاجي ، اللمتوني ، الحمري ، أمير المسلمين وملك الملثمين ، وسلطان المغرب الأقصى . وهو الذي بنى الجامع الأعظم بمدينة الجزائر سنة 460 هـ = 1068م . وتوفي أبو يعقوب سنة 500 هـ = 1106م .
(65) سورة « الشعراء » ، الآية : 78 — 80 .
(66) سورة « ابراهيم » ، الآية : 36 .
(67) ب : العلامة .
(68) هو : المتوكل على الله أبو عنان ، فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب ، المريني : أحد ملوك الدولة المرينية بالمغرب الأقصى . توفي سنة 759 هـ = 1358م .
(69) هو : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي ، الادريسي ، الحسني ، العلوي ، المعروف بـ « الشريف التلمساني » : أحد أعلام الفقهاء والأصوليين في عصره . من مؤلفاته : « مفتاح الوصول الى بناء الفروع على الأصول » . « شرح جمل الخونجي » . وكان لسان الدين ابن الخطيب كلما ألف تأليفا بعث به اليه ، وعرضه عليه . توفي الشريف التلمساني سنة 771 هـ = 1370 م .
(70) ب : قصر طينة .
(71) هو : أبو علي ، الحسن بن علي بن محمد المسيلي ، ثم البجائي ، المعروف بـ « أبي حامد الصغير » ، تشبيها له بأبي حامد الغزالي . كان حجة في الفقه والتفسير والحديث والتصوف ، وفي شتى الفنون . من مؤلفاته : « التفكر فيما تشتمل عليه السور والآيات ، من المبادىء والغايات » . « التذكرة » . في أصول علم الدين . « النبراس في الرد على منكر القياس » . توفي سنة 580 هـ = 1185م .
(72) ب : ولو لتحصيل مسألة واحدة .
(73) « كلمة » : ساقط من (ج) .
(74) ب : وذهبه .
(75) « وعن ذريتنا » : ساقط من (ج) .
(76) ب : وأرضاهم عنا وعن ذريتنا ، آمين : ساقط من (ب) .
(77) لي : ساقط من (ب ، ج) .
(78) « وسلم » : ساقط من (ب) .
(79) ب : المحلي (بحاء مهملة) .
(80) هو : عنوان ثالث لشروح مقامات الحريري ، لمحمد أبي راس المعسكر .
(81) سورة « الفتح » ، الآية : 1 .

(82) ج : فتحت .
(83) ب : شعر ، ولله در قائله .
(84) (ج) لسحر يسحر .
(85) من البحر البسيط .
(86) الشطر الثاني مختل الوزن .
(87) ب ، ج ، ومدنا .
(88) «حامي» : ساقط من (ب) .
(89) «ابن عبد الله» : ساقط من (ب) .
(90) «وبالكاتب عبد القادر« : ساقط من (ب) .
(91) ب : الفضل .
(92) ب : هذا .
(93) : قصر طينة .
(94) ب ، ج : عشائركم .
(95) : وأرقاءكم .
(96) ب : وهي .
(97) من البحر الوافر .
(98) أنظر القصيدة برمتها في «رحلة العبدري» .
(99) ج : التي رويها التي آخرها .
(100) «الكامل» : ساقط من (ب) .
(101) «الحاج» : ساقط من (ب) .
(102) ب : وعلى نبينا محمد الصلاة والسلام .
(103) هو : كتاب «فصوص الحكيم» لمؤلفه الشيخ محي الدين محمد بن عربي الأندلسي ، المتوفي سنة 638 هـ - 1240م .
(104) عليه الصلاة والسلام» : ساقط من (ب).
(105) سورة «مريم» ، الآية : 57 .
(106) ب ، ج : المقري .
(107) «وهم» : ساقط من (ب) .
(108) «[illegible]سية» : ساقط من (ب) .
(109) ب : ويوخفد .
(110) «مريم» : ساقط من (ب) .
(111) ج : وجنة .
(112) ب : جيدى . ج : جيرى .
(113) سورة «الحجرات» ، الآية : 1 .
(114) «النوال» : ساقط من (ب) .
(115) «الكامل الأصيل» : ساقط من (ج) .
(116) اقتباس من سورة «الحج» . الآية : 45 .
(117) «المعطر» : ساقط من (ب) .
(118) «الأقبل» : ساقط من (ج) .

(119) الزيادة من ب

(120) «من» : ساقط من (ب ج) .
(121) ج : دائمه .
(122) ب : رحمهما الله .
(123) ب : والابعاد . ج : والتعبيد .
(124) ب ، ج : والاستسلام .
(125) ب : السافرة .
(126) ب : المباهية .
(127) ب : الغير المتناهية .
(128) ج : كأنه .
(129) «هي» : ساقط من (ب) .
(130) هو : أبو القاسم ، ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن المثني : ثاني ملوك الأدارسة بالمغرب الأقصى ، وهو الذي أسس مدينة «فاس» ، وعمّرها . توفي سنة 213 هـ - 828م .
(131) ب : تدور .
(132) اقتباس من سورة «الحج» ، الآية : 2 .
(133) ج : الالقاح .
(134) «الترميث» — هنا —: الزيادة والابقاء .
(135) ج : ومقيل .
(136) ب ، ج : قرار .
(137) ب ، ج : القوادي .
(138) اقتباس من سورة «الفجر» ، الآية : 7 .
(139) هو : أحد مؤلفات محمد أبي راس .
(140) ب : في المقالة .
(141) «بل» : ساقط من (ب) .
(142) لعله أبو الحسن ، علي بن محمد بن خلف المعافري ، المعروف بـ «أبي الحسن القابسي» كان اماما في الحديث والفقه والأصول ، وعليه الاعتماد في مختلف الفنون . من مؤلفاته : «المهد» ، في الفقه . و «أحكام الديانة» . و «المنقذ من شبه التأويل» . و «المنبّه للفطن من غوائل الفتن» . و «كتاب المعلمين» . توفي سنة 403 هـ - 1012م .
(143) ج : وحنظلة تخللاته .
(144) «له» : ساقط من (ب) .
(145) «السند» : ساقط من (ب) .
(146) هو : أبو عبد الله ، الطيب بن محمد بن عبد المجيد بن عبد السلام بن كيران : كان أحد أعلام زمانه في الحفظ والتحصيل والاتقان ، له مؤلفات عديدة في مختلف الفنون . توفي سنة 1227 هـ - 1812م .
(147) «في» : ساقط من (ب) .
(148) «ولنرجع الى ما كنا بصدده» : ساقط من (ب) .
(149) «وكان» : ساقط من (ب) .
(150) «ترك» : ساقط من (ج) .
(151) «بأجمعهم» : ساقط من (ب) .
(152) «في هذا» : ساقط من (ب) .
(153) «وأنتم» : ساقط من (ج) .

(154) «الشنيعة» : ساقط من (ب) .

(155) هو : الخليفة أبو العباس ، عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور العباسي ، المعروف بـ «المأمون» . توفي سنة 218 هـ - 833م .

(156) هو : أبو الحسن ، النضر بن شميل (بصيغة التصغير) ابن خرشة بن زيد ، المازني التميمي : أحد الأعلام لرواية الحديث وأيام العرب وفقه اللغة ، كان أحد جلساء المأمون العباسي وأحد المكرمين لديه . من مؤلفاته : «كتاب الصفات» ، «كتاب السلاح» . وكتاب المعاني» . و «كتاب غريب الحديث» . توفي سنة 203 هـ - 819م .

(157) هو : أبو الخطاب ، عمر بن الحسن بن علي بن محمد بن دحية الكلبي الأندلسي ، أحد أعلام عصره في الأدب والتاريخ والحديث . من مؤلفاته : «المضرب من أشعار أهل المغرب» . و «الآيات البينات» . و «التنوير في مولد السراج المنير» . توفي سنة 633 هـ - 1335م .

(158) ج : فلذلك .

(159) من البحر الوافر .

(160) الزيادة من (ب) .

(161) ج : في خدقة . أي : ختمة القرآن الكريم .

(162) من «ذكرلي» الى «الأكل بها» ، ساقط من (ج) .

(163) «ونصه» : ساقط من (ب) .

(164) «ولابد» : ساقط من (ب) .

(165) «أكل» : ساقط من (ب) . ج : بعد الأكل للطعام .

(166) الزيادة : من (ب) .

(167) ب ، ج : أن .

(168) ب ، ج : كما تقدم .

(169) رواه عن أنس الامام أحمد ، والنسائي ، والحاكم والبيهقي في «السنن» .

(170) «الدبّاء» : القرع .

(171) ج : وانما .

(172) ب : عن .

(173) سورة «آل عمران» ، الآية : 97 .

(174) ب ، ج : يذكره .

(175) ب : أقصى .

(176) الأحاضرة .

(177) الضمير يعود على شيخ شعيب بن ...

(178) هو : أبو الفيض ، حمدون بن عبد الرحمن بن حمدون ، السلفي ، المرداسي ، المعروف بـ«ابن الحاج» : أحد فقهاء عصره وأدبائه من مؤلفاته : «حاشية على تفسير ابي السعود» . و «منظومة في السيرة» ، على نهج «البُردة» في أربعة آلاف بيت . وقد شرحها في خمس مجلدات . توفي سنة 1332هـ = 1817م .

(179) ب ، ج : الفضلا .

(180) اقتباس من سورة «القصص» ، الآية : 60 ، وسورة «الشورى» ، الآية : 36 .

(181) ب : معرضا . ج : فصال كل منهما على الآخر .

(182) الزيادة : من (ب ، ج) .

(183) من البحر الكامل .

(184) «مانصه» : ساقط من (ب) .

(185) «من» : ساقط من (ب) .
(186) «من» : ساقط من (ج) .
(187) هو : أبو محمد ، عبد القادر بن أحمد بن العربي بن شقرون ، الفاسي : أحد أعلام عصره في شتى الفنون . أخذ عنه السلطان أبو الربيع سليمان . توفي سنة 1219 هـ = 1804م .
(188) هو : أبو عبد الله ، محمد بن بنيس : أحد أعلام المغرب الأقصى وفقهائه . من مؤلفاته : «شرح على الهمزية» و «شرح على فرائض الشيخ خليل» . توفي سنة 1214 هـ = 1800م
(189) هو : أبو عبد الله ، محمد بن طاهر ، الهواري : أحد أعلام المغرب الأقصى في شتى الفنون . من مؤلفاته : «حاشية على شرح الشيخ سعيد قدورة على السلم» . و «أرجوزة في علم المنطق» . و «أرجوزة في علم الكلام» . و «أرجوزة في أنواع الجناس» . و «أرجوزة فيما انفرد به ابن عاصم في التحفة» . وله اشعار أدبية ومكاتبات انشائية . توفي سنة 1220 هـ = 1805م .
(190) هو : أبو عبد الله محمد بن عمر ، الزرولي ، الفاسي ، أحد الأعلام المحققين والأحبار المدققين . توفي سنة 1230 هـ = 1815م .
(191) ج : وحضرت .
(192) ج : بخلاف القواعد .
(193) ب : وفضائلها .
(194) هو : أبو الربيع ، مولاي سليمان سلطان المغرب الأقصى . كان علما من أعلام المغرب في شتى الفنون . من مؤلفاته : «شرح الموطأ» . و «كناية أولي المجد ، بذكر آل الفاسي ابن الجد» . و «حاشية علي الزرقاني على المواهب» . و «حاشية على شرح الخرشي» . و «رسالة في العناء» . توفي سنة 1238 هـ = 1823م .
(195) ج : قد مات .
(196) سورة «الأنبياء» ، الآية : 72 .
(197) «الصلاة» : ساقط من (ب) .
(198) ج : بقولي .
(199) الموافقة لسنة 767م .
(200) «يوما» : ساقط من (ب) .
(201) الموافق لأواخر القرن السابع عشر للميلاد .
(202) الزيادة من (ج) .
(203) الموافقة لسنة 1650م .
(204) «هما» : ساقط من (ب) .
(205) ج : القريبي
(206) الموافقة لسنة 1080م .
(207) الموافقة لسنة 1517م .
(208) الموافقة لسنة 1549م .
(209) «من» : ساقط من (ب) .
(210) ج : لم تغن .
(211) ب : مع بعض بقيتهم .
(212) من البحر الطويل .
(213) من البحر البسيط .
(214) الموافق للقرن الثالث عشر للميلاد .

الفلاسفة المسلمين ، القائلين بوحدة الوجود . من مؤلفاته «الحروف الوضعية ، في الصور الفلكية» . و «كتاب البدو» . و «كتاب اللهو» . و «شرح كتاب ادريس — عليه السلام ! —» الذي وضعه في علم الحرف . توفي سنة 669 هـ = 1270 م .

(216) المرافقة لسنة 1270م .

(217) هو : أبو عبد الله ، محمد بن الشيخ قاسم المحجوب : كان أحد أعلام فقهاء تونس في عصره . توفي سنة 1243 هـ = 1827م .

(218) أي : سنة 520 هـ = 1126م .

(219) أي : سنة 601 هـ = 1205م .

(220) الضمير يعود على ابن رشد الجد . والحفيد مات سنة 595 هـ = 1199م . فلا يمكن ان يكون هو صاحب القصة مع ابي العباس السبتي .

(221) «السيد» : ساقط من (ج) .

(222) هو : ابو الفلاح ، صالح بن حسين الكواش ، التونسي ، كان أحد رواد الفقه ، كما كان نادرة زمانه في الحفظ والتحقيق ، والشجاعة الأدبية . من مؤلفاته : «شرح المشيشية» . توفي سنة 1218 هـ 1804م .

(223) ب ، ج : لأحياهما .

(224) ج : وحفظه .

(225) ب : بأن قلت له .

(226) الضمير يعود على ابن مرزوق ، وليس على ابن خلدون ، لأن الأول هو شارح «البردة» بثلاثة شروح : صغير ، ووسيط ، وكبير .

(227) ج : ونخبة .

(228) ج : بهر .

(229) هو : أبو اسحاق ، ابراهيم بن عبد القادر بن أحمد الرياحي ، الطرابلسي الأصل ، التستوري المنشأ ، التونسي القرار والاقبار ، كان حجة في شتى الفنون ، وعلامة في عصره . من مؤلفاته : «ديوان خطب منبرية» . و «حاشية على الفاكهي» . توفي سنة 1266 هـ = 1850م .

(230) الزيادة من (ب) .

(231) من البحر البسيط .

(232) هو : أبو حامد ، أحمد بن بشير بن عامر ، العامري المروزي : أحد أعلام الفقهاء الشافعية . من مؤلفاته : «الجامع» في الفقه الشافعي . و «شرح مختصر المزني» . توفي سنة 362 هـ = 973م .

(233) «التخلص : ساقط من (ب) .

(234) هو : أبو زيد ، عبد الرحمن بن محمد الأخضري الجزائري ، من مؤلفاته : «الجوهر المكنون ، في ثلاثة فنون» ، في علم البيان . و «السلم المرونق» في المنطق . و «السراج المنير» ، في علم الفلك . و «الدرة البيضاء» ، في الحساب والفرائض . و «مختصر الأخضري» ، في العبادات . و «القدسية» ، في التصوف . توفي سنة 983 هـ — 1575 م .

(235) هي : «الجوهر المكنون ..» .

(236) من بحر الرجز .

(237) هو : أبو محمد ، حمودة بن علي بن حسين بن علي التركي ، أحد بايات تونس في عهد الدولة العثمانية . توفي سنة 1229 هـ — 1814 م .

(238) الضمير يعود على ابراهيم الرياحي . وفي ج : أوفد .

(239) هو : مولاى سليمان سلطان المغرب .

(240) هو : « جامع الزيتونة » .
(241) من « وتعافنا » إلى « كله » : ساقط من (ب) .
(242) الزيادة من (ب) .
(243) ب : تبذلها .
(244) الزيادة من (ب) .
(245) ب : أقبل علي بفرحه .
(246) ب : وأجلسني حذاءه بأعلى مرتبته ، وأقبل علي ببشاشته ، وأكرمني بكرامة سنية .
(247) الزيادة من (ب) .
(248) ج : وسألني .
(249) الموافق للثلث الأخير من القرن الميلادي .
(250) ج : من دود .
(251) من « خلت » إلى « المنجب » : ساقط من (ب) .
(252) هو : الشطر الأول من مطلع معلّقة إمريء القيس . والبيت بتمامه :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(253) ب ، ج : العلوم والآداب .
(254) تقدمت ترجمته .
(255) ب : أول .
(256) ب : مع .
(257) تقدّمت ترجمته .
(258) « المقدسي » : ساقط من (ج) .
(259) توفي سنة 500 هـ - 1107 م . وفي ج : الأصفهاني .
(260) « المي » : ساقط من (ب) .
(261) « الأنجد الأجل » : ساقط من (ب) .
(262) ب : ونفعنا وذريتنا برضاه ، آمين .
(263) « الشاعر » : ساقط من (ب) .
(264) من البحر الطويل .
(265) تقدّمت ترجمته .
(266) ب : لما اجتمعت .
(267) هو : « جامع الأزهر » .
(268) « دون غيره ، وأنت ما تحفظ » : ساقط من (ب) .
(269) المراد بـ « أحكام القرآن » أحكام فن الرسم .
(270) هو : « الجوهر المكنون ، في ثلاثة فنون » لعبد الرحمن الأخضر .
(271) في جميع النسخ : لم تروا (والتصويب من قلمنا) .
(273) « مكانتي » : ساقط من (ب) .
(274) « فأخذته » : ساقط من (ج) .
(275) ب : وزادوا .
(276) ب : عدّ نسخ .
(277) « فيه » : ساقط من (ب) .
(278) « باب » : ساقط من (ب) .

(279) ج : التي .
(280) « لي » : ساقط من (ج) .
(281) « شواش » : جمع « شاشية » : لغة اقليمية في القلانس ، جمع قلنسوة .
(282) « فائقات » : ساقط من (ب) .
(283) هو : « شرح أحمد الخفاجي » على كتاب « الشفا » للقاضي عياض .
(284) في جميع النسخ : « دخلوا » . (والتصويب من قلمنا) .
(285) هو : « مصنف الشيخ خليل » المالكي .
(286) « الخراشي » : ساقط من (ج) .
(287) ج : الباقي .
(288) « لا بغيرها تقاس » : ساقط من (ب) .
(289) « المعني إليه » : ساقط من (ب) .
(290) هو : تاج الدين ، عبد الملك بن عبد المنعم بن القاضي تاج الدين القلعي ، الحنفي ، نزيل مكة المكرمة ، كان أحد أعلام عصره في شتى الفنون . من مؤلفاته : « الكواكب الدرية » في الفتاوي القلعية » . و « بلوغ القصد ، في تحقيق مباحث الحمد » . توفي — بمكة — سنة 1229 هـ - 1814 م .
(291) « لي » : ساقط من (ب) .
(292) ج : والبيت .
(293) الموافقة لسنة 1791 م .
(294) أي سنة 1226 هـ - 1811 م .
(295) الزيادة من (ب) .
(296 ، 299) الزيادة من (ب) .
(297) المعروف في كتب التراجم أن أحمد بن تيمية حنبلي المذهب وليس بحنفي المذهب .
(298) « وضريحي » : ساقط من (ج) .
(300) « رضي الله عنهم أجمعين » : ساقط من (ب) .
(301) ج : مقبرة .
(302) أي : ان الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء والمرسلين عليهم أفضل الصلاة والسلام !
(303) من «ورفع» الى «محياها» : ساقط من (ب) .
(304) هو : أبو زكرياء ، يحي بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحطاب ، الرعيني الأصل ، المالكي المذهب ، المكي الدار والاقبار . أحد أعلام فقهاء عصره . من مؤلفاته : «الأجوبة في الوقف» و «وسيلة الطلاب ، في علم الفلك بطريق الحساب» ، و «شرح الفاظ الواقفين والقسمة على المستحقين» . توفي سنة 995 هـ = 1587م .
(305) «رجعوا لقولي» : ساقط من (ب) .
(306) لعله قاضي القضاة أبو السعود ، محمد بن محمد العمادي ، الحنفي ، صاحب التفسير ، المسمى «ارشاد العقل السليم ، الى مزايا القرآن الكريم» . والمتوفي سنة 951 هـ = 1544م .
(307) «وأمراءها» : ساقط من (ج) .
(308) الزيادة من (ب) .
(309) من البحر الطويل .

الباب الرابع

في الأسئلة (وما يتعلق بها [1])

واعلم أن العلماء الذين تنقل عنهم هذه[2] الأجوبة ما منهم إلا عالم أوحد ، لا ينعت ولا يحدّ[3] ، مبنيا على قواعد التحقيق والايقان ، مؤديا صحيح المعنى بأبدع الاتقان ، مجالسهم أبهى من الروض الآنق ، وزهدهم سارت به الركبان ، ومحاسنهم[4] يقصر عنها اللسان ، أعلام أجلة ، وعلماء ملة . **سئلت** عن قول شيخ المالكية : الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي زيد — عن قوله في أول « **الرسالة** » :« وأنه فوق عرشه المجيد بذاته » ، فأجبت بأن شارحها : الشيخ أبا الحسن ، قال : أخذ عليه في قوله : « بذاته » بأن هذه اللفظة لم يرد بها السمع ، وأحسن ما قيل في دفع الاشكال : ان الكلام يتضح ببيان معنى الفوقية ، والعرش والمجيد ، والذات . فالفوقية عبارة عن كون الشيء أعلى من غيره ، وهي حقيقة في الأجرام كقولنا : زيد فوق السطح . ومجازية في المعاني (كقولنا : السيد فوق عبده . وفوقية الله — تعالى ! — على عرشه فوقية [5] معنوية [6] بمعنى الشرف ، وهو بمعنى الحكم والملك ، فترجع الى معنى القهر . و « العرش » اسم لكل ما علا . والمراد هنا خلق عظيم من جوهرة خضراء فوق السماوات ، وهو [7] أول المخلوقات على الأصحّ . و « المجيد » — بالخفض — صفة للعرش ، وبالرفع ، أي : هو المجيد ، أي : العظيم . و « ذات الشيء » حقيقتة ، والضمير في « بذاته » يعود على « العرش » ، والباء بمعنى « في » ، وان يعود على الله ، فيكون المعنى أن الفوقية له تعالى ! بالذات ، لا بالغير : من مال أو ضخامة ملك أو نحوه . انتهى .

قلت : وكان الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن الحاج أحمد المغربي الطرابلسي ، المعروف بـ « **التاجوري** » [8] — شيخ [9] القرافي — يدرس في « **الرسالة** » ، فقريء عليه — يوما — « وأنه فوق عرشه المجيد بذاته » ، فذكر ما أجيب [10] به : من أن لفظة « بذاته » دسّت عليه في كتابه ، فأنكره بعضهم ، وقال : كلّ عبارة اعترضت يجاب عنها بذلك ، فلايبقى اعتراض

على عبارة ، فغضب الشيخ ، وقال : هذا امام مجمع على جلالته ،لم يوصف بشيء مما يوهمه اللفظ. ثم قال السائل : تسكت ؟ والا اتكلم ، وكرره ،فقال الطالب: لوجه الله لا تتكلم ، فذهب الشيخ مغضبا،وسئل الطالب بعد ذلك ، فقال: خفت فوت الدرس وأنا جنب،فحضرت في المسجد وأنا جنب ، فزجرني الشيخ بما رأيتم. قلت: قد علمت أن قوله ـ تعالى [11] !ـ : «الرحمن على العرش استوى»[12] من المتشابه ، كحديث : «ينزل ربنا الى سماء الدنيا كل ليلة» ، وغير ذلك . وقد خاض العلماء في ذلك ، وكثر كلامهم فيها ، حتى ان بعضهم [13] جرّه ذلك الى الاعتزال : كابن تيمية ، وقال تلميذه محمد شمس الدين ابن قيم الجوزية : الأشعرية زادوا «لاما» ، واليهود زادوا «نونا» ، قال تعالى !: «الرَّحْمَنُ[14] عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى» ، قالوا : استولى . وقال تعالى !: «وقولوا حطّة» قال اليهود : حنطة . وفي «الخفاجي» على «الشفا» : كره مالك ـ رحمه الله [15] ! التحدث بالأحاديث الموهمة للتشبيه : كـ «ينزل ربنا...» ونحوه . **والحاصل** أن في افهامهم اختلافا كثيرا ، فكيف يزيد شيخ المالكية [16]-«بذاته» ؟ فيزاد الاشكال الذي فيه الداء العضال ، لأن العلماء حارت أفكارهم قبل الزيادة ، فكيف بعدها ؟! وما أظن أن لفظة «بذاته» الا مدسوسة عليه من بعض من يريد الفتنة . ألا ترى أن فقيها سأل الامام مالك عن هذه الآية ، فقال له الامام : «الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة . والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة» . كذا في كتاب «الاحياء» للغزالي ، وقال الشيخ مالك بن ربيعة بن ابي عبد الرحمن : «الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول» . وأصلح للحسن البصري ، عن أم سلمة ، وزادت : «الاقرار به ايمان ، والجحود به كفر» . كيف يبقى ـ بعد هذا ـ أن يزيد شيخ المالكية [17] تشغيبا وفتنة ؟! معاذ الله أن يقع هذا منه ! **وسئل** عنه الامام أحمد بن حنبل ، فقال : «الاستواء كما أخبر ، لا كما يخطر للبشر» . **وسئل** عنه الامام الشافعي ، فقال : «آمنت بلا تشبيه ، وصدقت بلا تمثيل ، واتهمت نفسي في الادراك ، وأمسكت عن الخوض فيه كل الامساك» . **وسئل** عنه الامام ابو حنيفة ، فقال : «من قال : لا أعرف الله أفي السماء أم في الارض ؟ فقد كفر ، لأن هذا القول يوهم أن للحق مكانا ، فهو مشبه» . وبهذا الذي ذهب اليه الأئمة الأربعة . ولا خلاف بينهم في ذلك . ومن توهّم أن بين الأئمة اختلافا فقد أعظم الفرية/عنهم ، قال المقدسي في «**الرموز**» ، وقال ـ ايضا ـ: سئل عنه الشبلي ، فقال : «الرحمن لم يزل ، والعرش محدث ، فالعرش بالرحمن استوى» . **وسئل** عنه ـ أيضا [18] ـ ذو النون المصري ، فقال : «أثبت ذاته ، ونفى مكانه ، فهو موجود بذاته ، والأشياء كلها موجودة بحكمه كما يشاء» . **وفسّر** الواحدى وغيره «الاستواء» بمعنى القصد . وعبارة الواحدى «على العرش استوى» ، أي : أقبل على خلق العرش ، كقوله : «استوى الى السماء» [19] أي : أقبل ، أو عمد . أنظر التفاسير في ذلك . وسئلت بـ «محلّة باي قسمطينة» ، بازاء مدينة «تبسة»

بأن قال لي كتّاب الدولة ، وفرسان الجولة : ما معنى قول حجة الاسلام الامام الغزالي ـــ في «الاحياء» ـــ: «ليس في الامكان أبدع ممّا كان» ؟ **قلت** : قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني ـــ في « **ميزانه** » ـــ: «لمّا أبدع الله هذا العالم وأحكم أحواله وميز شؤونه وأتقن كماله ، أظهره على مشاهد من ذلك الاختلاف الذي لا يمكن حصره ، ولاينضبط أمره ، متغايرا في التراكيب ، مختلفا في الأساليب على حكم العلم القديم ، وعلى وفق ارادة الحكيم ، فجاء على أوضاع لا تنتهي غايتها [20] وتصاريف أبدعت حكمتها . وقسّم عباده الى شقي وسعيد ، فعمل كلّ منهما الى ما خلق له ، من متعلق الوعد والوعيد ، وأوجد لكلّ منهما ما يصلح لشأنه في حاله ومآله : من محسوسات صورها ، ومعنويات قدرها ، ومصنوعات ابدعها ، وأحكام شرعها ، وحدود وضعها ، وشؤون ابدعها ، فتمت بذلك امور المحدثات ، وانعقد بذلك نظام الكائنات ، وكمل بذلك شأن الزمان والمكان ، حتي قيل : «ليس في الامكان أبدع مما كان» . قال تعالى !: لَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» . على أنه ـــ تعالى !ـــ لم يجعل كل نافع نافعا مطلقا ، ولا كل ضار ضارا مطلقا ، بل ربما ينفع هذا ما يضر هذا ، وبالعكس ، وربما ضرّ هذا في وقت ما نفعه في وقت آخر ، وبالعكس ، كما هومشاهد ، لمعان خفيت عن الادراك» . انتهى .

وقد شنع عن الامام الغزالي بأن الله ان كان يقدر على خلق أحسن من هذا العالم ولم يفعل ، فهو بخل ، وان لم يقدر فهو عجز ـــ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا !ـــ حتى قال الشيخ أحمد بن المبارك ـــ في آخر كلامه ـــ: وهذه المقالة حجة على «حجة الاسلام» ، فالله هو الكريم ـــ على الاطلاق ـــ وهو على كل شيء قدير . لكن ، قال ابن العربي ـــ في « **اليواقيت** » ـــ: هذا كلام محقق ، لأن ما ثم [21] الا قدم وحدوث ، فالقدم للخالق . والحدوث للمخلوق ، ولا يقال : هل [22] يقدر الله ـــ تعالى ـــ أن يخلق قديما مثله ، لأنه سؤال مستحيل ، والقدرة لا تتعلق بالمستحيل ، أو أنه ليس في الامكان شيء يقبل الزيادة والنقص ـــ على ماسبق في العلم ـــ ولو كان هناك عالم أبلغ في الدلالة على وجوده ـــ تعالى !ـــ غير [23] هذا العالم لوجد ، وتعلقت القدرة بايجاده

وانما هذا العالم كاف في الدلالة على وجوده ـــ تعالى !ـــ أو أنه ليس في الامكان بحسب ما يسع العقول تفصيلا ، أو أنه خرج مخرج المبالغة ، وأن هذا دسّ على الغزالي في « **الأحياء** » . **ولما سئل ابن عبد السلام** : هل يمكن ـــ بحسب العادة ـــ أن يخلق الله أفضل من محمد ـــ ﷺ ـــ فقال : يمكن ، لكنه لم يقع [24] ، فبلغ ذلك أبا [25] الحسن بن المنتصر ـــ الذي قال فيه ابن عرفة : «ابن المنتصر بتونس ، وأحمد بن عاشر في « **سلا** » ، ما مثلهما أحد في عصرنا» ـــ فكتب اليه : يا محمد [26] ! ليتك أمك لم تلدك ، وليتها اذا ولدتك لم تتعلّم ، وليتك اذا تعلّمت لم تتكلّم» . انتهى .

قال ابن الخطيب السلاوي : لأن القدرة تتعلّق بالممكن ، والمستحيل ليس بمقدور عليه ، ولا بمعجوز عنه ، والنبي ــ ﷺ !ــ لما كان أفضل البشر استحال أن يكون غيره أفضل منه . وقال بعضهم : لا يصحّ الاعتراض على ابن عبد السلام والمسألة خلافية ، فقد يكون الشيء ممكنا في نفسه ، ويعرض له ما يصيّره محالا : كإسلام أبي جهل ، فهو ممكن في نفسه ، الا أنه محال ، لتعلق العلم بعدم وقوعه . أنظر « المعيار » . قلت : ولا يبعد حمل كلام الغزالي على هذه المسألة » .

وقال الشيخ السنوسي : معناه أن ذلك في علمه ــ سبحانه !ــ لأن كل ممكن معلوم له ــ عزّ ! وجل ! ــ ويستحيل خروجه عن علمه . ويكون مساق هذا الكلام الردّ على فهم الزاعم تجدّد علمه بتجدد الممكنات . تعالى الله عن ذلك ! ويحتمل ان يراد به أجناس الجواهر ، والأعراض ، والأرواح ، على قول من يقول : ان الروح ليس بجرم ولا عرض ، فالمعنى/ أن كل ممكن يقدر وجوده لا يخرج عن هذه الثلاثة ، بدليل اجماع أهل السنة . ويحتمل أن يكون أبدع مما كان في الأزل ، وهو ذاته ــ تعالى ! ــ وصفاته ، ويكون مساقه الرد على المعتزلة الزاعمين أن العبد يخلق أفعاله ، فنفي ما يتوهم من تعدد المخترعين الأفعال ، وأنه لا مخترع الا الله . ولبرهان الدين ابن أبي شريف في معناه كلام حسن ، تركناه للطول . **قلت** : وفي « حاشية اليوسي » [27] ــ نقلا عن « المقترح » [28] ــ : ذهب بعض البغداديين الى انه يجب على الله رعاية الاصلح لعباده في دينهم ودنياهم . ولا يجوز في حكمته تبقية شيء من وجوه الصلاح . قال : وهذا المذهب أخذوه عن الفلاسفة : ان الموجود [29] في العالم هو اقصى الممكن ، اذ لو كان في الممكن أعلى منه ولم يفعله لكان بخلا يناقض جود الجواد الكريم . قائلين : هذا الوجود هو النظام الاكمل ، ولا يجوز أعلى منه . ولما جرى البغداديون على هذا الأصل ، قالوا : ان ابتداء الخلق واجب واذا علم أنه يكلّفهم ، فيجب عليه اكمال عقولهم [30] واقرارهم وازاحة عللهم .

وأما البصريون فتنبهوا لهذه المقالة ، فقالوا : لا يجب على الله ابتداء الخلق ولا اكمال عقولهم ، نعم ، ان كلف العباد فيجب اقرارهم واكمال عقولهم ، لأن لا يكون تكليف ما لا يطاق ، وهو مستقبح . واتفق الفريقان على وجوب الاثابة على الأعمال . أنظر تمامه ، ولابد . [31] .

وسئلت بالشام عن أصعب مسألة من المسائل ، التي تتعلق بالتوحيد ، فقلت (قول) [32] شيخ المالكية [33] : «استوى على عرشه المجيد بذاته» . وقول الغزالي : «ليس في الامكان» الخ... ــ وقد تقدمتا ــ فان قال الشيخ عبد الرحمن المجدولي التونسي ، شيخ

ابن غازي عن شيخه الابي ، فانه كان يقول ـــ كما نقله الشيخ زروق ـــ: «ليس في علم الكلام أشكل من ثلاث مسائل : مسألة كلامه ـــ تعالى !ـــ والقدرة الاكتسابية ، والرؤية . فينبغي اعتقاد الحق فيها ، وترك ما سواه » . انتهى .

قلت : المسألتان [34] المذكورتان أشكل وأعضل وأهول ، ولو قال خمس لكان أحسن (من) [35] هذا . وفي «**حاشية اليوسي**» ـــ أيضا بعد كلام طويل ـــ ما نصّه : «وقول الفلاسفة المتقدم [36] يقرب منه قول كثير من المتمشرقين المتفصّحين : «ليس في الامكان ، أبدع مما كان» ، فينبغي ان يجتنب هذا الكلام ، لأنه/فاسد ، سواء اعتبر الامكان الحقيقي المسند الى قدرة الباري أو لاكتساب العبد .

أما على الأول ، فيكون رأي الفلاسفة . لأن من وصف الله ـــ تعالى !ـــ بعدم الاقتدار على ان يأتي بأحسن مما كان ، فهو كمن وصفه بالعجز عن الاتيان بغير ما كان . **وأما على الثاني** فلأن قائله ينسب الاقتدار الى نفسه ، حتى نفاه في حالة دون أخرى . وهذا اعتزال .

ولو سلمنا صحّته بحسب الاكتساب فهو كلام فلسفي موهوم فيترك . اهـ .

قلت : ظاهر كلامه ـــ هنا ـــ أن هذه المقالة ليست للامام الغزالي : وبالجملة أن هذه المسألة كلت فيها أفهام ، وثلمت أقلام .

وسئلت بمكة المشرفة عن أصل كل علم . وما سبب تدوينه : **فأجبت** بأن القرآن ـــ لما نزل ـــ كان مفرقا في الرقاع ، ولما استحر القتل في القرّاء بـ «اليمامة» في الردة ، وخاف ابوبكر ـــ رضي الله عنه ! ـــ ضياع القرآن جمعه في الصحف ، لعلمه أن ذلك وسيلة الى حفظه .

ولما أحسّ عمر ـــ رضي الله عنه !ـــ أن فهمه يحتاج الى تأمل لما فيه من دقائق الاشارات ، وغرائب العبارات ، حضّ على رواية الشعر ، فقال ـــ في خطبته ـــ: «عليكم بديوانكم» ، قيل : وما هو ؟ قال : «شعر الجاهلية ، ففيه [37] معنى كتابكم» . ولما خشي عثمان رضي الله عنه ـــ اختلاف الناس في القراءة ، جمعه على قراءة واحدة ، لعلمه أن ذلك وسيلة الى ضبطه ، وارتفاع النزاع فيه . ولما سمع علي ـــ رضي الله عنه ـــ اللحن وخاف ضياع العربية ، وضع النحو لحفظ اللسان العربي ، وذلك وسيلة الى فهم الكتاب والسنة . ولما ولي عمر بن عبد العزيز ـــ رضي الله عنه ـــ [38] الخلافة كتب الى ابي بكر بن محمد ابن عمر بن حزم الأنصاري : «أنظر ما كان عندك (ـــ أي : في بلادك ـــ) من حديث رسول

الله ـــ ﷺ !ـــ فاكتبه ، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء» . انتهى . كذا في «صحيح البخاري» في «كتاب العلم» .

ولما علم مهارة التابعين أن ليس كل أحد يقوم بفهم القرآن العظيم دوّنوا عليه تفاسير القرآن والحديث ، لأن ذلك وسيلة الى معرفة ما وقع به التكليف . ولما كان ما ينقل من الحديث ليس كله متواترا ولا متفقا على صحته ، بل منه الصحيح وغيره ، ميّزوا ما صحّ وما حسن : كـ «البخاري» وغيره . ولما احتاجوا الى ما يتوصّلون به ، أحدثوا صناعات واصطلاحات وألقابا ، سموها بـ «مصطلح الحديث [39]» . ولما كانت الأحكام المأخوذة من الكتاب والسنة ، منها ما يرجع الى عمل ، ومنها ما يرجع الى اعتقاد سموا الأول «فقها [40]» . ولما احتاجوافي استنباط المسائل المتجردات الى مقدمات كلية ينبني عليها كثير من الأحكام ، دوّنوا ذلك ، وسموه «أصول الفقه» . والثاني ـــ وهو الاعتقاد ـــ كان في صدر الاسلام سليما ، ولما كثرت أهل الأهواء شمّر علماء الأمة الى مناظرة المبطلين باللسان ، كتشمير الصحابة ، بالسنان ، وقد[41] احتاجوا إلى مقدمات واصطلاحات : كـ «الجوهر» ، و «العرض» ، ونحوهما ، وسموه «علم الكلام» ، و «أصول الدين» . ولما كانت ألفاظ الكتاب والسنة عربية ، و (كان) فهمهما موقوفا على فهم لغة العرب ، وضعوا اللغة ودونوها . ولما كان أعظم المعجزات القرآن ، وكان اعجازه على القول المرضي ببلاغته احتيج الى معرفة «البلاغة» ، ليعرف وجه اعجاز القرآن الموصل الى ما ذكر ، اذ هو مملوء بالمجازات ، والاستعارات والكنايات ، فوضعوا «علم البلاغة» ، ودونوه ، وهو المسمى بـ «البيان» . ولما احتاجوا في أمر الصلاة والصيام ونحوهما ، وإلى معرفة القبلة وساعات الليل والنهار ، دونوا «علم الهيئة» . ولما احتاجوا إلى العدد في المحاصات وقسم التركات ، وضعوا «علم الحساب» . ولما كان كل ما ذكر من الفنون دائرا بين ادراك امرين والحكم بأحدهما على الآخر ، وكان الفكر عند الحكم ليس بمصيب دائما ، بدليل مناقضة بعض العقلاء بعضا في مقتضى [42] أفكارهم احتيج الى ما يوصل الى الادراك ، وتمييز صحيح الفكر من سقيمه دونوا «علم [43] المنطق» . هـ .

وسئلت بمصر عن «التكوين» ، فأجبت بأن المصنف ، وهو الشيخ السنوسي أخلّ بها في كتبه الخمسة غاية الاخلال . وها أنا ـــ ان شاء الله [44] !ـــ أبين لحنها وفحواها ، وأقدم كلاما بين يدي نجواها ، فأقول : قوله ـــ في كبراه ـــ: «الناشئة عن صدور الافعال» إلخ ... هذا الذي : يعبّر عنه بـ «التعلق التنجيزي» للقدرة : كالايجاد ، والاعدام ـــ على قول ـــ والتخليق ، والترزيق ، والاحياء والإماتة ، يعبر عنها بـ «التكوين» . وينبغي ان تعلم في هذا المقام أنه وقع نزاع بين أهل السنة ، فذهب «الأشاعرة» الى أنه حادث ، لأن المراد منه

صدور الأشياء عن القدرة بتنجيز أو ذلك الصدور حادث ، اذ لو كان قديما لزم قدم العالم ، وهو محال ، وذهب «الماتريدية» إلى أنه قديم لوجوده ، ذكرها السعد على قول النسفي . و «التكوين» صفة لله ـ تعالى ـ أزلية ، أحدها : أنه يمتنع قيام الحادث بذاته ، تعالى ! الثاني : أنه وصف ذاته في كلامه الأزلي ، بأنه الخالق ، فلو لم يكن خالقا في الأزل لزم الكذب والعدول الى المجاز ، أي : الخالق فيما يستقبل ، والقادر على الخلق من غير تعذر الحقيقة . الثالث : أنه لو كان حادثا ، فاما بتكوين آخر ، فيلزم التسلسل وهو محال ، ويلزم منه استحالة تكوين العالم ، مع أنه مشاهد ، واما بدونه ، فيستغني [45] الحادث عن المحدث . والاحداث ، وفيه تعطيل الصانع . الرابع : أنه لو حدث لحدث ، فاما في ذاته تعالى ـ فيكون محالا للحوادث أو في غيره ، كما ذهب اليه أبو الهذيل العلاف ـ رضي الله عنه [46] !ـ من أن يكون كل جسم قائم [47] به ، فيكون كل جسم خالقا ومكونا لنفسه . ولاخفاء في استحالته . وأجابوا عن دليل الجمهور ، من أنه لو كان التكوين قديما لزم قدم العالم (فان التكوين لا يلزم من قدمه قدم العالم ، لأن تعلقه بالعالم حادث اضافي ، فيكون العالم حادثا) [48] ، كما أنه لم يلزم من قدم القدرة والارادة قدم العالم ، لما كان تعلقهما [49] التنجيزي بالعالم حادثا . وزاد ـ في شرح « المقاصد » ـ وجهين آخرين أحدهما : أن « الأشاعرة » يقولون في قوله تعالى !ـ: « انما قولنا لشيء ـ اذا اردناه ـ أن نقول له : كُنْ ، فِيَكُونُ [50] » . أي : أنه قد جرت العادة الالهية إنما يكوّن الاشياء لأوقاتها بكلمة أزلية ، هي : كلمة « كُنْ » . ولا نعني بصفة التكوين الا هذا ـ قال ـ: وأجيب بأنه ـ حينئذ [51] ـ يعود الى صفة الكلام ، ولا يثبت صفة أخرى على أن الأكثرين يجعلونه مجازا عن سرعة الايجاد والتكوين بما له من كمال العلم والقدرة والارادة . ثانيهما : أن التكوين والايجاد صفة كمال ، فلو/خلا عنهما في الازل لكان نقصا ، وهو عليه محال ـ قال ـ: وأجيب بأن ذلك انما هو فيما يصح اتصافه به في الأزل . ولا نسلّم أن « التكوين » و « الايجاد » بالفعل كذلك : نعم ، في الأزل هو على قدم التكوين هو بناء منهم على أن « التكوين » صفة حقيقية كالعلم . قال ـ في شرح « النسفية » ـ: و «الأشاعرة على أنه من الاضافات ، والاعتبارات العقلية ، مثل كون الصانع ـ تعالى!ـ قبل كل شيء ومعه وبعده ، ومذكورا بالثناء ونحوه . والحاصل في الأزل هو مبدأ التخليق ، والترزيق ، والاماتة ، والاحياء . ولا دليل على كونه صفة أخرى عند القدرة والارادة ، وان كانت نسبيتهما الى وجود الممكن وعدمه على حد سواء ، لكن مع الارادة بتخصيص أحد الجانبين » . هـ وأشار بهذا الكلام الى أن جميع أدلتهم تندفع بتحقيق أن «التكوين » أمر اضافي ، كما قال ـ في شرح « المقاصد » [52] بعد ذكر الوجوه التي استدلوا بها على القدم ـ: » أنها عورضت

بوجهين ، **أحدهما** : أنه لا يعقل من « **التكوين** » الأحداث ، واخراج المعدوم من العدم الى الوجود ، كما فسّره القائلون بـ « التكوين » الأزلي . ولاخفاء في أنه إضافة ، يعتبرها العقل من نسبة المؤثر الى الأثر ، فلا يكون عينا [53] ثابتا في الأزل . ثانيهما : أنه لو كان أزليا لزم أزليّة المكونات ضرورة التأثير بالعقل بدون الأثر » . هـ .

وأشار بقوله : « وان القدرة وان كانت نسبتها » إلخ ... **الجواب عن** استدلالهم على أن « **التكوين** » صفة مغايرة للقدرة والارادة وقد استدلوا على ذلك بوجهين ، ذكرهما في « **الطوالع** [54] » . **أحدهما** : أن القدرة متعلقة بامكان الشيء و « التكوين » بوجوده [55] . **ثانيهما** : أن متعلق القدرة قد لا يوجد ، ومتعلق « **التكوين** » لابد أن [56] يوجد : بمعنى القدرة نسبتها الى جميع الممكنات متساوية . و « **التكوين** » خاص منها بما يدخل تحت الوجود . **والجواب عن الأول** : بالمنع فان القدرة متعلقة لصحة/ الوجود بالامكان ، لأن الامكان ذاتي ، فلا يكون بالغير . **وعن الثاني** : بأن القدرة وان كانت نسبتها الى الجميع على حد سواء ، لكن الانضمام الى الارادة يحصل المقصود من « **التكوين** » ، كما قال السعد . وقال الأصبهاني [57] — بعد ما مرّ [58] —: « والحق ان القدرة والارادة مجموعتين هما [59] يتعلقان بوجود الاثر . ولا حاجة معهما الى اثبات صفة أخرى » . هـ . وهو معنى كلام السعد . ثم على مذهب « **الماتريدية** » فـ « **التكوين** » صفة قديمة يوصف الله بها [60] في الأزل ، وهي من صفات المعاني ، وتكون المعاني بها ثماني ، ان جعلنا » التكوين صفة واحدة تتنوع بحسب الخصوصيات ، ان تعلقت بالحياة سميت احياء ، وبالموت سمية اماتة ، وبالوجود سميت ايجادا ، وبالرزق سميت ترزيقا . وتفرد بعضهم بأن كل واحد من التكوينات المذكورة صفة قديمة حقيقية . وعلى هذا فلا تكاد تنتهي المعاني . قال السعد : « وهو تكثير للقدماء جدا ، وان لم تكن مغايرة ، والأقرب ما ذهب اليه الأولون » . هـ . وأما على مذهب « **الأشعرية** » [61] من أن « **التكوين** » حادث ، فلا يكون من صفة الباري القائمة بذاته ، لاستحالة قيام الحوادث بذاته . لكن لما لم يكن عندهم صفة حقيقية ، بل أمرا اعتباريا لم يستلزم [62] عدّة ، لأن الأمور الاعتبارية عدمية ، لا وجودية . قال العضد [63] في « **شرح المختصر** [64] » الأصلي والسعد في حواشيه عليه : ان الذات قديمة ، وكذا القدرة فلابد من أمر حادث عنده تحدث الحوادث ، وهو تعلق القدرة بهذا التعلق ، من حيث انتسابه الى العلم صدور العالم ، ومن حيث انتسابه الى القدرة إيجاب القدرة العالم ، ومن حيث انتسابه الى الذات الموصوفة بالقدرة القديمة هو خلق العالم فمعنى الخلق كون الذات تعلقت قدرته بشيء . وهذا معنى اضافي اعتباري قائم بالخلق . واتصاف الخالق به وليست صفة حقيقية مقدّرة فيه ، لأن لا يلزم كون القديم محلا للحوادث . هـ . وبهذا يتبين لك وجه/ اطلاق

« **الأشعرية** » على « **التكوين** » أنه من الصفات ، وأنه لا يلزم من وصف الباري به قيام الحوادث به وتبين لك — أيضا — أن ليس المراد بكونه حادثا أنه موجود بعد عدم . وانما المراد تجدّده في الاعتبار ، لأنه اذا كان اعتباريا . والاعتبار عدمي لم يتصوّر فيه الحدوث بمعنى الخروج من العدم الى الوجود . فافهم . وبه يردّ على المعتزلة في قولهم : «ان التكوين غير المكون» . واعلم أن ما مر لـ « **لماتريدية** » ينقل — أيضا — عن الحنفية [65] الأقدمين القائلين بقدم صفات الأفعال ، بمعنى أن الله خالق ورازق في الأزل . فبعض العلماء يحمل ذلك [66] على ما للمتأخرين منهم ، وهم « الماتريدية » من أن « التكوين » صفة أخرى أو صفات . وبعضهم يتأول ذلك على معنى القدرة ، بمعنى أنه خالق ورازق في الأزل ، أي : قادر على الخلق والرزق كما يحكى عن الغزالي : أنه لا خلاف بينهم وبين « **الأشعرية** » لأن الأشعرية يعترفون أنه في الأزل خالق ، أي : قادر على الخلق ، لا خالق تنجيزا ، كما مرّ للسعد : أن الحاصل في الأزل هو مبدأ التخليق والترزيق . وذكر ابن أبي شريف أن متأخرى الحنفية على عهد أبي منصور — أي :الماتريدى —: أن صفات الأفعال قديمة زائدة على الصفات المتقدمة . وليس في كلام أبي حنيفة والمتقدمين تصريح بذلك ، سوى ما أخذوه من قوله : كان تعالى ! خالقا قبل أن يخلق ، ورازقا قبل أن يرزق . و « الأشاعرة » [67] يقولون : ليست صفة « التكوين » — على تفصيلها — سوى صفة القدرة باعتبار تعلقها بمتعلق خاص . فالتخليق للقدرة باعتبار تعلقها بالمخلوق والترزيق باعتبار تعلقها بايصال الرزق . وما ذكروه لا ينافي هذا . وأما نسبة ذلك للمتقدمين ففيه نظر ، بل في كلام أبي حنيفة ما يفيد أن ذلك على ما فهم « الأشاعرة » من هذه الصفات ، على ما نقله الطحاوى .

تتمة : ومن الغريب ما ذكره ابن حجر — في « فتح الباري » —: من أنه وقع النزاع في أن القدرة هل هي من صفات الذات أو من صفات **الأفعال** ؟ قال في باب قوله — تعالى! —: « ان الله هو الرزاق ، ذو القوة المتين »[68] — ناقلا عن البيهقي —: « القوى التام القدرة لا ينسب اليه/ عجز » قال : « ويرجع معناه الى القدرة . والقادر هو الذي له القوة الشاملة ، والقدرة صفة له ، قائمة بذاته ، والمقتدر هو التام القدرة الذي لا يمتنع عليه شيء » . وفي الحديث رد على من قال : انه ذو قوة . فجرى على طريق « **المعتزلة** » : أن القدرة صفة نفسية ، خلافا لقول أهل السنة : أنها صفة قائمة به ، متعلقة بكل مقدور . وقال غيره : كون القدرة قديمة وإضافة الرزق حادثة لا يتنافيان ، لأن الحادث هو التعلق وكونه رزق المخلوق قبل وجوده لا يستلزم التغير فيه ، لأن التغير في التعلق ، فان قدرته لم تكن متعلقة باعطاء الرزق ، بل بكونه سيقع . ثم لما وقع تعلقت به من غير أن تتغير

الصفة في نفس الأمر . ومن ثم نشأ الخلاف : هل القدرة من صفات الذات أو من صفات الأفعال ، فمن نظر في القدرة الى الاقتدار على ايجاد الرزق ، قال : هي صفة ذات قديمة ، ومن نظر الى تعلق القدرة ، قال : هي صفة فعل حادثة ، ولا استحالة في ذلك في الصفات الفعلية والاضافية ، بخلاف الذاتية . قلت : ومسألة « التكوين » ـــ هذه المطنبة [69] الكلام ـــ هي الثالثة عشرة مما اختلف فيه « الأشعرية » و « الماتردية » ، لا تؤدي لتبديع فضلا عن التكفير . ومنها اختلافهم في قوله ـــ تعالى! ـــ: « ولا يرضى لعباده الكفر » [70] . هل لعمـــوم النـــاس ، أو للخـــواص منهم؟ وسئلت بالقدس عن « الوحدانية » ، و « التوحيد » ، فأجبت بأن سعد الدين عبّر عن « الوحدانية » بعبارة وجيزة ، وهي أنها : « عبارة عن نفي الكثرة بحسب الاجزاء ، وبحسب الجزئيات » . أما بحسب الأجزاء فبأن لا يتركب في ذاته ، وأما بحسب الجزئيات فبأن لا يوجد في الأذهان أكثر وهي معنى الكم [71] المتصل والمنفصل في الذات . وأنظر « مفتاح الفلاح » [72] للتاج ابن عطاء الله . وأما حقيقة « التوحيد » فاعتقاد عدم الشريك في الألوهية وخواصها . وقال الجنيد : « التوحيد افراد القديم من المحدث » . وقال الشيخ زكرياء الأنصاري ـــ في مختصره في التصوف المسمى « الفتوحات الالهية » في الفصل الثاني منه في بيان أركان التصوف ، مانصّه ـــ: « أولها تجريد التوحيد ، وهو أن لا يشوبه خلطي تشبيه ولاتعطيل » .هـ [73] واعلم أن ذات الله ـــ تعالى! ـــ لا تقبل تشكيكا ، ولا تشريكا ، ويصدق عليها أنها قديمة بالذات وبالزمان وصفاته قديمة بالزمان لا غير ، وكلّ ما سوى الذات والصفات فهو عندنا حادث بالذات وبالزمن . وليس قدم الذات والصفات بالزمن أنها توالت عليه الأزمنة ، كقولنا : بنيان قديم ، ولا وجودها مقيد بالزمان على ما يفهمه من لا معرفة له بالاصطلاحات ، وانما هذا حدث في الاصطلاح ، ولا حجة فيه [74] . وقد اطلق الغنيمي [75] القديم بالزمان ـــ في حواشيه على « الصغرى » ، فشنع عليه اقوام من عوام طلبة تلمسان [76] وغيرهم تشنيعا عظيما ، وذلك لجهلهم بالاصطلاح . الا أن على الغنيمي الدرك في تمشرقه بذلك اللفظ الموهم لا سيما في نحو « الصغرى » مما يتداوله العامة . ولا ينبغي الالتفات لاصطلاحات [77] الفلاسفة من قدم العالم بالزمن دون الذات الى أن يصدق الحدوث الذاتي على صفات [78] الباري . ولا يخفى ما فيه من الشناعة . وهلّا جرينا على منهاج سلفنا من أن المسبوق بالعدم حادث ، وغير المسبوق قديم ، فان ذلك أسلم لنا على التجاسر على التفريق بين الذات والصفات ، ورسم الصفات بالحدوث وبالامكان لذاتها وبالافتقار الى الذات . وهل نشاهد الا مجرد اعتبار وملاحظة تعقل الذات قبل الصفات التعقلي [79] المسمى بـ « الذاتي » ، وان كان صحيحا ولم يكن فيه محال ، لكن أي حاجة لنا الى أن نعتبره عند الاطلاق مع إيهامه . ولم لا نقول : ان كلا من الذات

وصفاتها قديم غير مسبوق بعدم ، وكل قديم فهو مستغني عن الفاعل ، وهو واجب الوجود ، فالصفات قديمة غنية واجبة الوجود كالذات في ذلك ، ولا تقدم الذات على الصفات .

وهذا هو الموجود في الخارج ، ونفس الأمر . وأي حاجة لنا الى تأويل كلام أئمة الحق قضاء لحق اصطلاح محدث واقتداء في التوصل الى الحضرة الالهية بعمى الفلاسفة ، وترك الاقتداء بالبصراء . فتنبهوا ــ رحمكم الله!ــ من سنة الكرى ، واهتدوا بالنجوم الزواهر طول السرى ، لتنجوا من أخطار/الثرى ، وتصلوا الى خالق الورى ، بمنّة وطوله . وهذا من دقائق التوحيد ، لا عنه تحيد .

وسئلت بـ «**أورين**» : إحدى جزر البحر عمّا جرى بين الامامين : الشيخ السنوسي ، والشيخ أحمد بن زكري [80] ــ مع كونهما شيخين شامخين راسخين ــ وذلك ان السنوسي ردّ على ابن زكري ما ردّه عليه في «فصل الرؤيا» بقوله : «**قلت** : ولا يخفى عليك فساد هذا الرد من الاختلال» لو أنصف لجلس بين يدي ذلك القائل حتى يبين له الاختلال ، نعوذ بالله من الآفات في المقال» . هـ .

فكتب عليه السنوسي ما نصّه : «الحمد لله الذي [81] قد علم ان الدعاوي لا تثبت الا بالبينات ، لا بمجرد قول المدّعي ، فالمصنف قد حكم بالاختلال في ذلك . وقد ساق بيّنة قطعية ، لا يمكن ردها ، وأنت حكمت على قوله بالاختلال من غير بيّنة سوى ما أتيت به من الاختلال في الطرّة ، فزدت بها اختلالا [82] الى اختلال . وما قولك : «لو أنصف» [83] الخ ... فهو مما لا يرضى مقالته الا سخيف العقل ، اذ الفضل انما يقرره للإنسان غيره ، لا هو ، اذ أهل الفضل براء من مدح أنفسهم وتزكيتها ، لاسيما مثل الهوس الذي أنت فيه» [84] .

ووقع بينهما كلام في قوله بعد : «والجمع العام» الخ... قال ابن زكري : «قف على هذا التهافت ، فقد قدم أن الجمع مستغرق ، فلم يفهم مدارك العموم . فأخذ في تخبيط . والبحث إنما سنده ما أقرره الآن ، لو عقل عن بصيرة . فهو الجدير أن يكون صبيا . عرّفنا الله عيوبنا !ــ والالزام نشأ عن عكس الفطرة ، فالتبست عليه الشخصية والجزئية بخلط الأمر ولا يشك عاقل في صدق «لا رجال في الدار» على ثلاثة فأكثر ، فان لم تدل على نفي الواحد لم يتناقض ما فرض ، اذ لا تناقض بين جزئيتين . والتعميم [85] غير لازم الا في الشخصيات . نعوذ بالله من التخليط» . هـ . قال السنوسي : «عجبا لهذا المعترض ! جاء بشيء لا يفوه به من له أدنى مشاركة في المعقول .

ولم أكن قط أظن أن هذا يصدر من مثله ، فأقول : كيف زعمت «التهافت» في

هذه المسألة ، وانما فيه لما قدم المصنف من استغراق الجمع . ولا يفوه [86] بهذا الا من لا عقل له . وكيف يصح لكل [87] أن تبقى على عمايتك الأولى التي تضمنها الرد في الأصل مع غاية البيان الذي في الأصل [88] . والمصنف بين البيان الشافي الذي يفهمه أصاغر الصبيان . وان دعواك سلب العموم في الجمع المنكر باطلة على كل تقدير ، أي : سواء بنينا على رأية السكاكي في خروج الواحد والمثنى منه ، أو على رأي غيره في عدم الخروج ، وان اللفظ [89] من باب « القضية الكلية » السالبة ، لا « الجزئية السالبة » على كلا التقديرين . وقد زعمت — أنت — بفهمك الركيك أن اللفظ على رأي السكاكي جزئية سالبة ، لا كليّة سالبة ، فرد عليك هذا الفهم عقلا ونقلا . أما نقلا فبأن لم ينقله أحد ، وأما عقلا — وان كان مستنبطا من النقل — فملزوم ان تصدق هذه القضية بموضوع لا يقول أحد بصدقها فيه . فيلزم أن يصدق قولنا : « لا رجال في الدار » ، اذا كان فيها رجال الدنيا كلهم ، اذا غاب رجل واحد منهم ، لأنها جزئية سالبة على زعمك ، فهي في قوة قولنا : « بعض الرجال ليس في الدار » . ولاشك ان هذه القضية صادقة في هذا الموضع الذي ذكرنا ، فيلزم ان مساويه — على زعمك — كذلك . واستدللنا على صدق الجزئية في ذلك الموضع بفرض موضعها معينا ، ليكون أخص . وصدقه يستلزم صدق الأعم لا ينافي جزئيتها ، ولاينقلها الى الشخصية ، بل هو من باب الاستدلال ، بصدق الشخصية على صدق الجزئية ، لأنها أعم منها ببرهان الافتراض في القضايا الجزئية في العكوسات والأقيسة المنطقية . ولا يشك [90] عاقل في صدق « لا رجال » على ثلاثة فأكثر ، لأن ردّ دعواك جزئية القضية هذا لاتمنح نفسها الجموع الثلاث فما فوقها ، بل تنفي بعض الجموع . لا بعينه ، والا صرّحت — على سبيل التأكيد — أن القضية تنفي الجموع كلها الثلاث ، فما فوقها . فهذا هو التهاتر أنت تفوه به ، ولا تشعر .

وسئلت — بالمدينة المنورة — على صاحبها ألف صلاة وألف سلام ! — سنة ست وعشرين ومائتين وألف [91] — عن « العقائد » ، **فأجبت** بحمد الله — تعالى! [92] — الهادي صفوة العبيد الى المنهج الرشيد ، والمسلك السديد ، المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد ، بحراسة عقائدهم على ظلمات التشكيك والترديد ، السائق لهم الى اتباع [93] الرسول بالتأييد والتسديد ، المتجلّي لهم في ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه ، التي لا يدركها الا من « ألقى السمع وهو شهيد » [94] ، واحد لا شريك له ، فرد لا مثل له ، صمد لا جوف له ، أحد لا ضدّ له ، منفرد لا ندّ له ، قديم لا أول له ، أزلي لا بداية له ، مستمر الوجود لا آخر له ، أبديّ لا نهاية له ، قيّم لا انقطاع له ، دائم لا انصرام له ، لم يزل ولا يزال موصوفا بنعوت الجلال ، ولا يقضي عليه بانقراض الآجال [95] ، الظاهر الباطن المتعال . التنزيه : ليس بجسم مصور ، ولا جوهر محدود مقدّر ، ولا يماثل الاجسام ، لا في التقدير [96] ولا في قبول

الانقسام ، ليس بجوهر ، ولا تحلّه الجواهر ولا بعرض ، ولا تحله الأعراض ، لا يماثل موجودا [97] ، ولا يماثله موجود . « ليس كمثله شيء » [98] ، ولا هو مثل شيء لا يحدّه مقدار ، ولا تحويه الأقطار [99] ، ولا تحيط به الجهات ، ولا تكتنفه السماوات ، مستو على العرش على الوجه الذي قاله ، وبالمعنى الذي أراده ، لايحمله العرش ، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون في قبضته ، رفيع الدرجات على العرش بلا امتراء ، كما أنه رفيع الدرجات على الثرى ، وهو ــ مع ذلك ــ أقرب الى البعيد من حبل الوريد ، لايحلّ في شيء ، ولا يحلّ فيه شيء ، تعالى أن يحويه مكان أو يحده زمان ، بل كان قبل [100] خلق الزمان والمكان ، وهو ــ الآن ــ على ما عليه كان ، ليس في ذاته سواه ، ولا في سواه ذاته ، تقدّس عن التغير والانتقال ، لا تحلّه الحوادث ، ولا تعتريه العوارض ، بل لا يزال في نعوت جلاله منزها عن الزوال ، وفي كماله مستغنيا عن زيادة الاستكمال ، وأنه معلوم الوجود ، يرى [101] بالأبصار ، نعمة ولطفا [102] بالابرار في دار القرار ، واتماما للنعيم ، بالنظر الى وجهه الكريم . قال ــ في محكم المجادة : « للذين احسنوا الحسنى وزيادة » ــ : الأولى من صفات المعاني [103] **الحياة** : لا يطرقه وهم [104] ، ولا يلحقه عدم ، ولا أحد عن طلبه يفوت . قال جلّ من قائل ! : « وتوكل على الحي الذي لا يموت » [105] . وقال : « كل شيء هالك الا وجهه » [106] . وقال : « ويبقى وجه ربك » [107] . فحياته مستمرة **القدرة** : وانه حيّ / قادر جبار ، قاهر ، لا يعتريه قصور ولا عجز ، ولا « تأخذه سنة ولا نوم » [108] . وانه ذو الملك والملكوت ، والعزة والجبروت ، له السلطان والقهر ، والخلق والأمر ، السماوات مطويات بيمينه ، والخلائق مقهورون في قبضته ، انفرد بالخلق والاختراع ، وتوحّد بالايجاد والابداع ، خلق الخلق وأعمالهم وقدّر أرزاقهم وآجالهم ، لا يشذّ عن قبضته مقدور ، ولا يعرب عن قبضة [109] قدرته تصاريف الأمور . العلم : عالم بجميع المعلومات ، من تخوم الأرضين الى أعلى السماوات . يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الضلماء ، في الليلة الضلماء ، يدرك حركة الذرّ في جو الهواء ، ويعلم السرّ وأخفى النجوى ، ويطلع على هواجس الضمائر ، وحركات الخواطر وخفيات السرائر ، بعلم قديم أزلي ، لم يزل موصوفا به في أزل الأزل [110] جلي ، لا بعلم متجرّد حاصل ، في ذاته بالحلول والانتقال اليه واصل . **الارادة** : هي والمشيئة واحد ، وكذا المحبة عند بعضهم ؛ مريد للكائنات ، مدبّر للحادثات ، ولا يجرى في الملك والملكوت قليل ولا كثير ، كبير أو صغير [111] خير أو شر ، نفع أو ضر ، ايمان أو كفر ، عرفان أو نكر ، فوز أو خسران ، زيادة أو نقصان ، طاعة أو عصيان ، الا بقضائه وقدرته ، وحكمته ومشيئته . فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر ، ولا فلتة خاطر ، لا راد لحكمه ، ولا معقّب لقضائه ، ولا مهرب لعبدك عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته ومحبته وارادته . لو اجتمع الجن والانس والملائكة

والشياطين ، وجبابرة السلاطين ، على أن يحركوا ذرة أو يسكنوها دونه ما قدروا ، ولا بمطلوبهم ظفروا . وارادته قائمة بذاته في جملة صفاته ، مريدا في أزله لوجود الأشياء في أوقاتها التي قدرها كما [112] أراد في أزله من غير تقديم ولا تأخير ، ولا تبديل ولا تغيير ، دبّر الأمور لا بترتيب أفكار وتربّص زمان ، فلذا لم يشغله شأن عن شأن ، « وكل يوم هو في شأن » [113] . **السمع والبصر** : يسمع ويرى ، لايعزب عن سمعه مسموع ، وان خفي وانبرى ، ولا يغيب عن رؤيته مرئي ، وان دقّ ، ولا يخفى عليه [114] وان رقّ ، لا يحجب سمعه بعد أجرام ، ولا يدفع/رؤيته غسق [115] ظلام ، يرى بلا حدقة وأجفان ، ويسمع من غير أصمخة وآذان ، كما يعلم بغير قلب ، ويبطش بلا جارحة ، ويخلق بغير آلة فعّالة . **الكلام** : آمر ، ناه ، واعد ، متوعد بكلام عميم ، أزلي قديم ، قائم بذاته لايشبه [116] كلامه كلام الخلق باعلام ، ليس بصوت يحدث من انسلال هواء ، أو اصطكاك أجرام ، ولا بحرف ينقطع في اطباق شفة أو تحريك لسان . وأن القرآن مقروء بالألسنة ، مكتوب في المصاحف ، محفوظ في القلوب بحكمة علّام الغيوب . وأنه ـ مع ذلك ـ قديم ، قائم بذات الله ، لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال الى القلوب والأوراق : وأن موسى [117] (عليه الصلاة والسلام) [118] سمع كلامه بغير صوت ولا حرف يلفظ ، كما يرى الأبرار ذات الله من غير جوهر ولا عرض ، واذا كانت له هذه الصفات كان حيا ، عالما ، قادرا ، مريدا ، سميعا ، بصيرا ، متكلّما بالحياة ، والعلم ، والقدرة ، والارادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، لا بمجرد الذات ، كما يستحيل عنه الأسقام واللذات . **الأفعال** : لا موجود ـ سواه ـ الا وهو حادث بفعله ، وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعدلها ، وأنه حكيم في أفعاله ، عادل في أقضيته ، لا يتصور منه ظلم ، لأنه لا لغيره ملك حتى يكون تصرفه فيه هضم . فكلّ ما سواه ، من انس وجان ، وملك وشيطان ، وسماء وأرض وحيوان ، ونبات وأرض ، وجوهر وعرض ، ومدرك ومحسوس ، حادث ، اخترعه ، وانشاء وابتدعه ، بعد أن لم يكن شيئا مذكورا ، ولم يكن شيئا معه لا عامرا ، ولا معمورا . وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف ، لا عن وجوب محتوم ، ومتطول بالانعام والاصلاح ، لا عن لزوم ، فله الفضل والاحسان ، والنعمة والامتنان . اذ [119] كان قادراً على ان يصب على عباده أنواع العذاب ، ويبتليهم بضروب الآلام [120] والأوصاب ، ولو فعل ذلك لكان منه عدلا لا قبحا ولا ظلما ، ولا يجب عليه فعل ولا يتصوّر منه ظلم ، ولا يجب لأحد عليه حق ، وحقّه في الطاعات وجب على الخلق ، على ألسنة أنبيائه ، فوجب على الخلق تصديقهم بما جاءوا به ـ عليهم السلام ! [121] ـ **وسئلت** ـ بمكة المشرفة ـ عن ابي طالب أحد رجال/طريقة الصوفية لم يقال له «المكي [122]» ؟ **فأجبت** : بأنه لم يكن من أهل «**مكة**» ، وانما هو من أهل

«**الجبل**» ، وفيه مدن بين «**أذربيجان**» و «**عراق العرب**» و «**خوزستان**» ، وفارس وبلاد «**الديلم**» ، لكنه سكن «**مكة**» ، فنسب اليها ، وبها توفى [123] في جمادي الأخيرة سنة ست وثمانين وثلاثمائة . كان من العلماء الصالحين [124] ، والمشايخ الكاملين . وما وجد في «**تاريخ بغداد**» للخطيب ابي بكر (أحمد) بن ثابت . وفي «**وفيات الاعيان**» لابن خلكان . وكتاب «**الانساب**» للمقدسي ، مما لا يليق بمقامه ، إنما هو من سوء سمع ، أو بقصد الطعن عليه . أنظر «رسائل ابن عباد» . أخذ عن ابي سالم البصري عن سهل التستري ، وأخذ — أيضا — عن ابي سعيد أحمد البصري المعروف بـ «ابن الاعرابي» ، مؤلف «**طبقات النساك**» . وهو أخذ عن الجنيد . وما يوجد في بعض الأسانيد : أنه أخذ عن الجنيد بلاوسطة فغير صحيح ، لأن الجنيد توفي سنة سبع وتسعين ومائتين [125] ، فبينهما نحو تسعين سنة [126] . وفي «**الاكتفاء**» للسيوطي : أنه مات أيام الخليفة المقتدر العباسي ، وولايته كانت آخر سنة خمس وتسعين [127] (ومائتين) . فما في كتاب ابي العباس الفاسي ، وتبعه أخوه الشيخ العربي في كتابه «**مرآة المحاسن**» : من أنها كانت أي : وفاة الجنيد سنة سبع وسبعين — بتقديم السين فيها — وهم ، بل الصواب «وتسعين» — بتقديم التاء — كما في نسخة عتيقة من «**رسالة القشيري**» . وأسم ابي طالب : محمد بن علي بن عطية الحارثي نسبة الى الحارث بن كعب من قبائل قحطان باليمن . وكتابه «**قوت القلوب**» ، الذي أثنى عليه غير واحد من الكمّل : كالشيخ ابي العباس بن العريف ، والشيخ شهاب الدين [128] السهروردي ، وكان يسميه «**ديوان الاسلام**» ، والشيخ عبد الجليل القصري ، والشيخ أبي الحسن الشاذلي وغيرهم . وقال فيه ابن عبّاد في «**رسائله**» — بعد الثناء البالغ عليه : «إنه في علم التصوف كـ «المدونة» في علم الفقه يقوم مقام غيره ، ولا يقوم غير مقامه . «**ونصه — في قوته**» ، في آخر ترجمة ذكر وصف العلم وطريقة السلف فيه —: «اعلم أن العبد اذا كاشفه الله بعلم المعرفة وعلم اليقين/لم يسعه تقليد أحد من العلماء . وكذلك كان المتقدمون اذا أقيموا هذا المقام ، خالفوا من حملوا عنه العلم لمزيد اليقين والأفهام» . ثم قال : «ولأجل ذلك كان التابعون يكرهون التقليد ويقولون : لاينبغي للرجل أن يفتي حتى يعرف اختلاف العلماء ، فيحتار منها بمقتضى علمه الأحوط للدين والأوفق باليقين فلو [129] كانوا يستبيحون أن يفتي العالم بمذهب غيره لكان [130] اذا عرف مذهب صاحبه كفاه ، ونقله مسلّما له» .هـ وقريب منه ما في الباب السادس من كتاب العلم من «**الاحياء**» ، للغزالي في ذكر علامات علماء [131] الآخرة . ونصّه : «ومنها أن يكون اعتماده في علومه على بصيرته وادراكه بصفاء قلبه ، لا على الصحف والكتب ، ولا على تقليد ما سمعه من غيره . وانما المقلد صاحب الشرع — صلوات الله عليه !— وانما تقلد الصحابة

من حيث ان فعلهم يدل على سماع من النبي — ﷺ !» ، الى ان قال : «ومن انكشف عنه الغطاء صار في نفسه متبوعا مقلدا ، فلا ينبغي له أن يقلد غيره . ولذا قال ابن عباس : «ما من أحد ألا يؤخذ من علمه ويترك ، الا النبي — ﷺ —» . وقد كان تعلم من زيد بن ثابت الفقه ، وقرأ على أبي بن كعب ، ثم خالفهما في العلم والقراءة جميعا» . ثم قال : «واذا كان الاعتماد على المسموع من الغير تقليدا غير مرضي فالاعتماد على الكتب أبدع» . ومن كلام القطب [132] ابراهيم الدسوقي الهاشمي المتوفي سنة ست وسبعين وستمائة [133] : «اذا كان العارف أورثه الله علما بلا واسطة ، لكن من باطن شريعة محمد ، اذ لا يتعدّى تابع دائرة متبوعه» . وقال ابن عربي الحاتمي — في «رسالة» كتبها الى الفخر الرازي —: «اعلم — يا أخي ! — أن [134] الرجل لا يكمل في مقام العلم ، حتى يكون علمه من الله بلا واسطة . فكل من علمه مستفاد من الأخذ من المحدثات معلول عند أهل الله . «الى أن قال» : ولو سلكت على يد شيخ من أهل الله لأوصلك الى حضرة شهود الحق ، فتأخذ منه العلم من طريق الالهام الصحيح ، بلا تعب ، ولا/صهر ، كما أخذه الخضر ، عليه السلام ! فلا علم الا ما كان عن كشف وشهود ، لا عن نظر وفكر» . هـ . بنقل المناوي في «طبقاته [135]» .

وفي «رسائل أبي المحاسن» ، يوسف بن محمد الفاسي [136] — بعد أن ذكر أنه لا خلاف بين القوم —: «أن المجذوب أو السالك المصرفين لا يؤهل واحد منهما للمشيخة . وانما يؤهل لها من جمع بين الأمرين ، وصار برزخا بين بحرين : بحر التشريع ، وبحر التحقيق ، فيعطي كل ذي حق حقه ، ويوفي كل ذي قسط قسطه» . الخ ... ما نصه . ومعنى الجمع بين الشريعة والحقيقة أن يكون أشرق باطنه بأنوار اليقين ، قائما بشعائر الدين أي : مجذوبا سالكا ، لا أن [137] معناه التغلغل في علم الظاهر ، فانه لا يشترط في شيخ الهمة ، ولا يطلب فيه من العلم الظاهر ، عدا ما تقدم به فروض الأعيان . وقد قال اليافعي : لا خلاف بينهم أن جميع السالكين العارفين بالله يجوز الاقتداء بهم ، سواء حصل السلوك قبل الجذبة أو بعدها ، وسواء علموا جميع [138] علوم الشرع المفروضة والمندوبة أم لا [139] ، عدا فرض العين» هـ . وفي «عوارف المعارف» للسهروردي [140]» : صحبت أبا علي السندي [141] وقال ولده — في شرحه لقصيدة الشريشي في السلوك ، عند قوله [142] :

إذَا لَمْ يَكُـنْ عِلْـمٌ لَدَيْـهِ بِظَاهِـرٍ وَلَا بَاطِنٍ فَاضْرِبْ بِهِ لُجَجَ الْبَحْـرِ

ما نصّه — : «اعلم أن ما شرط الناظم وجوده في الشيخ من العلم الظاهر والباطن ، فأما العلم الباطن ، فالمطلوب منه فيه التبحر التام ، اذ هو المقصود بالذات ، لتسليك المريد بآفات النفس والشيطان والبصيرة النافذة . وأما العلم الظاهر : فالمطلوب به أن يكون عنده

مايقيم به فروض الاعيان ، اذ كثير من العلوم لا مدخل لها في السلوك الى حضرة ملك الملوك ، والا لزم الحطّ من مرتبة كثير من فحول الطريق ، فقد كان كثير منهم غير متضلّع بعلوم الشريعة . هـ . **أقول** : والعقائد العلمية — التي هي معقول ومفهوم — التقليد فيها مرجوح أو مذموم ، وانما يقنع [143] بذلك العوام ، الذين لا أهلية لهم للنظر الخاص والعام ، لأنها كنز الكل ورأس ماله ، والأساس الذي عليه مدار جميع أحواله وبكماله/ فيها يصير من الخاصة الاكياس العارفين بما عليه جميع [144] عامة الناس . **تنبيه** : قال ابن عطاء الله — في الباب الثاني من « **لطائف المنن** » — : « انه لا يلزم أن يكون » القطب شريفا . والمقتضي ان المجرد — اذ ذاك — هو المهدى . وقد صرحوا بأنه عيسى ابن مريم كما للسيوطي وغيره . وفي « **فوائد الاعلان** » — عن السيوطي — : « وفي الصلاة بعضنا قدمه » . **وأما مكّي ابن ابي طالب** : فهو من شيوخ الصوفية [145] أيضا . ولد بـ « القيروان » ، وتوفي بـ « قرطبة » سنة سبع وثلاثين وأربعمائة [146] .

وسئلت بـ « غزّة » — احدى مدن الشام — عمّن تكلّم فيه العلماء ، من المفكر الى القطبانية من مشائخ الصوفية ، **فأجبت** : بأن الشيخ زروق قال : « رمي جماعة بالقول بالحلول : بمعنى أن الله حلّ [147] فيهم ، وهو الاتحاد ، مع أنه كفر ، منهم : عليّ [148] بن عبد الله النميري (أو الميري) أبو الحسن ،يعرف بـ « الششتري » [149] قال زروق : الشيخ العارف احد الصوفية ، نسبة لـ « **ششتر** » — بمعجمتين ، ثم تاء — قرية بالأندلس ، من أبناء الملوك ، ثم من سادة الصوفية ، حاز قصب السبق في سائر العلوم والاسرار والأنوار والحكم والأذواق (والحكم) [150] وكتبه دائرة على تحقيق العلم رضى جماعة من أهل الفضل : كابن عباد في « مقطعاته » ومن خاصيتها حفظها عن الفسقة [151] ، فمن حفظها [152] ابتلى بقطع رقبته . وهي بين تغزل ، وسلوك ، وفناء . وقد نسج الناس على منوالها فما قدروا ، لأنهم ان اصابوا علما أو أخطأوا حالا ، وبالعكس . **وقال الغبريني** : الفقيه الصوفي الحكيم ، ونسبه أبو حيان في « **نزهة القول** » بالحلول . دخل بجاية ثم طرابلس ، فتعجبوا من غزارة [153] علمه ، وأرادوا أن يولوه القضاء ، فأبى ، فلاموه ،فقال [154] :

رَضِيَ الْمُتَيَّمُ فِي الْهَوَى بِجُنُونِهِ ... خَلُّوهُ يَفْنِي عُمْرَهُ فِي فَنِّهِ
لَا تَعْذِلُوهُ فَلَيْسَ يَنْفَعُ عَذْلُكُمْ ... لَيْسَ السُّلُوُّ عَنِ الْهَوَى مِنْ دِينِهِ
قَسَماً بِمَنْ ذِكْرَ الْعَقِيقِ لِأَجْلِهِ ... قَسَمَ الْمُحِبِّ بِحِبِّهِ وَيَمِينِهِ
مَالِي سِوَاكُمْ غَيْرَ أَنِّي تَائِبٌ ... عَنْ فَتَرَاتِ الْحُبِّ أَوْ تَلْوِينِهِ

وهي طويلة ، تسمى « **النونية** » وقد شرحها الشيخ [155] ، وقال — في قوله

« قسما ..... » ، البيتين ــ : إنه/ اعتذار عن اعراضه عن القضاء . وكأنه يقول : لم أتركه زهدا فيه ولا رغبة عن الشريعة الا أنه يوجب التشتيت والتلوين .

ومنهم : **الشيخ عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن سبعين** ، العكي ــ بفتح العين ــ المرسي الاندلسي ، المتوفى بمكة سنة تسع وستين وستمائة [156] عن خمسين سنة . وهذا هو الصواب . ولعل ما في « **نفح الطيب** » تصحيف [157] ، بدليل قول ابن خلدون في موضع آخر : أتت بيعة مكة لسلطان تونس محمد بن ابي زكرياء الحفصي بانشاء ابن سبعين ، ومحمد هذا توفي سنة خمس وسبعين وستمائة [158] . وفي ذلك الانشاء من البلاغة والتلاعب بأطراف الكلام ما لا يوصف ، وكان الششتري المتقدم لما أراد أخذ الطريقة مرّ بابن سبعين [159] ، فقال له : إلى أين ؟ ، فقال : إلى الشيخ ابي أحمد جعفر ، لآخذ عنه ، فقال له ابن سبعين : ان كنت تريد الجنة ، فشأنك وما قصدت ، وان كنت تريد رب الجنة فهلمّ الينا ، فحينئذ أخذ عنه ، وأنتفع به ، وصار لا ينتسب في الطريق إلا اليه ، ولا يعتمد في سلوكه الا عليه . وكان ابن سبعين دونه في السن ، ورجحه كثير من الشيوخ على شيخه ابن سبعين . وقولي : « الى الشيخ ابي أحمد » . هذا هو الصواب ، دون ما في « **نفح الطيب** » من أنه : « الى ابي مدين : دفين العبّاد » ، فان التاريخ يمنعه بكثير ، لأن الششتري توفي سنة ثمان وستين وستمائة [160] بـ « **ساحل دمياط** » بقرية يقال لها « **طينة** » وأبو مدين توفي سنة اربع وتسعين وخمسمائة [161] . ولما أخبر الششتري بـ « **طينة** » قال : « حنّت الطينة الى الطينة » ، كما في شرح « **النونية** » لزروق بن ابي لبون ، قال : وقد مات دونها بثمانية عشر ميلا ،وكان سئل قرب ذلك عن الفقير ، فقال : الذي يمشي بعد موته ثمانية عشر ميلا ، فكان كما ذكر ، فحمله الفقراء على أعناقهم حتى أوصلوه اليها [162] . **ومن كراماته** ــ أيضا ــ أنه قال : الينا ، يا أحمد ! فقال له أصحابه : من أحمد الذي تناديه ؟ فقال : من تسرون به غدا ، ان شاء الله ! ففي الغد دخل هو وأصحابه « فاسا » ، فاذا بالرجل المأسور ، فقال : صافحوا أخاكم المنادي

وقال الغبريني ــ في ابن سبعين ــ: « فقيه جليل ، عارف نبيل ، فصيح ، له حكمة ومعرفة ونباهة [163] وبراعة وبلاغة ، مشارك في المعقول والمنقول ، له أتباع كثيرة (من الفقراء) وموضوعات كبيرة بأيدي أصحابه ، فيها الغاز واشارات بحروف «أبجد» ، ورموز شعر في الطريق .

قلت : ذكر (ابن الخطيب) في « **الاحاطة** » اختلاف الناس فيه من « القطبانية » الى « الزندقة » ، وهو أحد من بالغ أبو حيان في تضليلهم . وقال في « نفح الطيب » ــ : لقبه

« قطب الدين » ، ذو علم كثير ، وزهد كبير ، له الشهرة والاعتقاد (والنفرة والانتقاد) [164] وقال أبو البركات البلقيني : ان الأمير أبا عبد الله بن هود بعث أبا طالب ابن سبعين ، أخا عبد الحق ــ للقدس الأعظم ــ « رومة » ، وهي بلد لا يصل اليها المسلمون ــ اليوم ــ أعلم بالله منه ، وقد جرى ذكر الشيخ أبي مدين بين يدي ابن سبعين ، فقال : « هو عبد عمل ، ونحن عبيد حضرة » . كان [165] ذا علمٍ وتأليف ورسائل وفنون . سكن مكة ورأس فيها حتى تلمذ له أميرها ، وكان ملوكي البزة ، عزيز النفس ، كثير الجود . وسيما جميلا ، له فصاحة لسان ، وطلاقة قلم . قلت : ويعكّر عليه بأنه أشار في انشاء « بيعة أمير مكة » الى محمد أمير تونس أنه محمد المهدي ــ المشار به في الاحاديث [166] ــ الذي يحثو المال ، ولا يعدّه . وحمل حديث مسلم وغيره عليه ، ولا يخفي بطلانه . ومنهم عمر [167] ابن الفارض : أشعر أهل الاسلام ــ كما قال الأبلّي ــ وقد تكلّم فيه كالذين قبله ، وهو القائل ــ في الحث على العبادة ، والحرص عليها ــ [168] :

أُشَمِّرُ عَنْ سَاقِ اجْتِهَادٍ بِنَهْضَةٍ ... فَعُدْ مِنْ قَرِيبٍ وَاجْتَهِدْ وَاجْتَنِبْ غَداً
وجُد بِسَيْفِ الْحَزْمِ سَوْفَ فَإِنْ تَجُدْ ... تَجُدْ نَفْساً فَالنَّفْسُ إِنْ جذت جدة [169]

ومن « نفح الطيب » للمقري ، ما نصّه ــ: « حكى المقريزي في ترجمة ابن الفارض ــ أن الشيخ محي الدين بعث اليه في شرح « تائيته » ، فقال له : كتابك المسمى بـ « الفتوحات » شارح لها . ومنهم الامام الأكبر محي الدين (محمد) بن عربي الحاتمي : نسبة الى عبد الله بن حاتم/ الطائي الجواد ، أخي عدى بن حاتم الصحابي . ولا عقب لحاتم الا منه . وأما عدى بن حاتم فقد قتل ابنه طريف مع الخوارج ولا عقب له [170] . ولد بـ « مرسية » (سنة ستين وخمسمائة [171] وانتقل الى « إشبيلية » ، ومات بدمشق سنة ثمان وثلاثين وستمائة ليلة الجمعة ثاني عشر ربيع الثاني [172] . قرأ السبع على ابن خلف ، وحدث عن الرعيني وابن بشكوال وغيرهما . كان ظاهري المذهب وقد أجاز الملك المظفر بن العادل من بني أيوب . وكان تتلمذ له ويسود . ووهب له ملك الروم دارا بمائة ألف دينار [173] فأعطاها سائلا . وكان ذا دقة في التصوّف ، وله تآليف في العرفان . لولا تشحّط في كلامه وشعره . ولعل ذلك وقع له في حال سكره وغيبته . وأقوى ما احتج به المنكرون عليه قوله : « لا يؤوّل الا كلام المعصوم » وردّه النووي في « بستان العارفين » : أنه يجب تأويل افعال أولياء الله وأقوالهم التي ينكر ظاهرها . وكان يقول : « اني [174] أعرف اسم الله الأعظم ، وأعرف الكيمياء » . وكان يؤلف من فتوحاته المكية كل يوم ثلاثة كراريس . ورتب له أمير « حمص » مائة درهم كل يوم [175] ، وابن الرمكي ثلاثين ، فيتصدق بالجميع . ولتآليفه بالمشرق صيت عظيم . وقد سئل أبو عبد الله القوري عنه ، فقال : « كان أعرف بكل فن

من أهل ذلك الفنّ . وقد اختلف فيه من الكفر الى «القطبانية» ، فقيل له : ما ترجّح ؟ قال : التسليم» . هـ . كلام زروق ، نقلا عن القوري .

وقال في بعض شروح «**الحكم العطائية**» : قلت : لشيخنا ابي العباس الحضرمي : انهم ينكرون على الحاتمي ، فقال : والله ! انه ليستحق الانكار ، لكن ممن هو أعلا منه» .هـ . وسئل عن النووي ، فقال : الكلام كلام صوفي . «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ» [176] الآية ... وقال ابن الهمام ــ لمن سأله عن القوم ــ: «حتى نصحح اسلامنا» . وقيل لأبي حنيفة : أيهما أفضل علقمة أو الاسود ؟ فقال : والله! ما نحن بأهل أن نذكرهما . فكيف نفاضل بينهما ؟ وقال ولي الدين العراقي : مدار كلامه ما يعطيه ظاهره ، ولا يتعرض له ، لاحتمال أن يكون مراده غير ظاهره ، أو أنه [177] تاب قبل موته . وقال زروق ــ في شرح «**نونية**» الششتري بعد نقله ما للقوري في ترجيح التسليم : وعلى ذلك يحمل ما وقع للعزّ ابن عبد السلام من انكاره واعتقاده ، أشار بهذا الى ما ذكره اليافعي في «الارشاد» . ونصّه : «سمعت العزّ يقول هوزنديق . قال : قال بعض أصحابه : أرنا القطب فأشار له فقيل له : أنت تطعن فيه ، فقال [178] لا أهوى ظاهر الشرع . وانظر «طبقات المناويّ» ، وفي «طبقات الشعراني» : أن [179] الحاتمي قال : سيأتي السلطان سليم بن عثمان ، فيملك مصر والشام ، فصدق قوله بعد مائتي سنة ، فبنى [180] عليه قبة هائلة بعدما كان قبره يهان ، حتى انه جيفره انسان ، فابتلع» . هـ الخ ... وقولنا : «ابن عربي» هذا الذي عند أهل المشرق ، فرقا بينه وبين «ابن العربي» المعافري الاشبيلي ، شارح «**الموطأ**» ، لكن ذكر الشعراني أنه رآه بخطه [181] بـ «أل» . وقال صاحب «نفح الطيب» : بذلك كان يعرف بالمغرب . ومن أكبر قوله : ان فرعون مات مسلما . وقد قال الشيخ عبد القادر الفاسي [182] ــ في الحاتمي ــ: ان محكم كلامه يقضي على متشابهه ، كما هو الشأن في [183] كلام الأولياء . وقال زروق ــ في كتابه «**عمدة المريد**» ــ: كتب الحاتمي لها رجال ، هم في الحقائق مجال ، ومنهم في التمييز مثقال . وقد قال فيها قوم ، فضلها مفارقها ، فرأها ، محذرها في قواعده أيضا . ومنهم الحسين بن منصور ابن أبو بكر الحلاج [184] الأنصاري [185] : لقب بـ «الحلّاج» ، لأنه أمر حلاجا للقطن في قضاء شيء . ولما أتى وجده حلج له في ساعة قدر ما يحلج هو في عشرة أيام . وفي «ممتع الاسماء» لأبي عبد الله محمد المهدي الفاسي عن شيخه أبي عبد الله محمد : أنه كان يدل على الفناء والخروج عن الرسوم وجميع ما يقتضي الوجود الحسي ، ويقول : طريقتنا حلّاجية . هـ .

وقال البكي ــ في شرح «الحاجبية» ، بعد كلام طويل في معنى الاتحاد والحلول المنسوب القول به الى بعض الكمل من الصوفية ــ أجاد فيه ماشاء ــ ما نصّه : «مراد

الشيخ ابن الفارض بـ «الاتحاد» هو شهود الوجود [186] الحق الذي الكل به موجود [187] ، فيتحد به الكلّ من حيث كل شيء موجود به معدوم به [188] ، لا من حيث/ ان له وجودا خاصا اتحد به ، فانه محال . وبالجملة فمعناه : شهود اتحاد تعلق الموجودات [189] كلها به تعالى ! ـــ اذ هي موجودة لا بها . وهذا مراد كل من له نسبة في هذا الشأن ، وهو المسمى ـــ عندهم ـــ بـ «**الفناء في التوحيد**» . وقال ابو الحسن بن مسعود اليوسي في حاشية «الكبرى» [190] : ولقد أكثر الناس في نسبة الاتحاد الى الصوفية ، والعاقل لا يتوهم أن يستحل [191] أهل الله الاتحاد المحال ، كيف وهوكفر ؟! ولكن لما كان مشتركا بين معان ، أطلقه كل على [192] ما أراد فأطلقه الصوفية على مقصودهم من «الفناء الكلي» ، كما قال الشيخ علي بن وفا [193] :

يَظُـــنُّ بِي حُلُــولًا واتِّحَـــاداً ‏ ‏ ‏ ‏ وَقَلْبِـي مِنْ سِوَى التَّوْحِيـدَ خَالِ [194]

فتبرأ من ذلك ، والظان به عصرية ابن حجر [195] في كتابه «أنباء الغمر ، بأنباء العمر» ، ونصّه : «وشعر ينفق بالاتحاد ، المفضي الى الالحاد» . وكذا قول والده الشيخ محمد [196] . قال المناوي ـــ في «**الطبقات**» ـــ : «دأب ابن حجر ، اذا ذكر احدا من الطائفة ـــ أن لا يبقى ولا يذر ، والله يغفر لنا وله» . الا أن الذي في «**اليواقيت**» للشعراني : أن ابن حجر أذعن للصوفية ، وصحب الشيخ أبي مدين [197] ، وذلك لما شرح بعض أبيات من «**تائية**» [198] ابن الفارض ، وقدم الى الشيخ أبي مدين [199] ليكتب على ذلك اجازة ، فكتب على ظهرها : «ما أحسن ما قال بعضهم [200] :

سَارَتْ مُشَرِّقَـــةً وَسِرْتُ مُغَرِّبـــاً ‏ ‏ ‏ ‏ شَتَّـانَ مَا بَيْـنَ مُشَرِّقٍ وَمُغَـــرِّبِ

وأرسلها له : فتنبه لأمر كان عنه غافلا ، وأذعن وصحبه . **والحلاج** : أصله من «البيضاء» مدفن سيبويه : بليدة بفارس حبس من سنة واحد وثلاثمائة [201] الى أن قتل ـــ بعد ذلك ـــ سنة تسع (وثلاثمائة) [202] بفتوى علماء عصره ، لكلام [illegible] يوهم الاتحاد والحلول ، قياما بظاهر الشرع ، وان كان معذورا في نفس الأمر ، وبريئا من ذلك . قال ابن خلدون ـــ في جوابه عن مسألة الاحتياج الى الشيخ في السلوك ، بعد ذكره أن علوم المكاشفة لا يجوز الخوض فيها ، لأنها سرّ بين العبد وربه ليس له افشاؤه ـــ: «ولقد قتل الحلاج بفتوى أهل الشريعة ، يعني : لما أباح من السرّ ، قال أبو العباس ابن البناء : «اتفقوا/على قتله ، بعد ما اختلفوا فيه» . وقال ابو العباس أحمد بن يوسف الفاسي ـــ في شرح «**الشريشية**» ـــ: ومن اختلف [203] فيه الجنيد ، والشبلي [204] ، والجريري [205] ، فأما الجريري فإنه أفتى بضربه وطول سجنه [206] ، والجنيد والشبلي بقتله» . بل قال ـــ هو ـــ في

نفسه : « ما على المسلمين أهم من قتلي » ، كما للمقدسي في « حل الرموز » . وقد وجه زروق قوله : بأن ذلك كان منه نصحا للدين ، لا اقرارا على نفسه واعانة على قتله لما علم من براءته . وأنظر ما ذكره في فتوى الجنيد : كالسنوسي في شرح « كبراه » ، في مبحث المخالفة [207] ، مع أن الجنيد تقدمت وفاته — كما مر — سنة سبع وتسعين ومائتين [208] . وقد يقال : تقدمت الفتوى وتأخر القتل . وأما أحمد بن محمد الجريري الحنفي والشبلي — وهو أبو بكر دلف بن جحدر المالكي — صاحبا الجنيد ، فقد تأخرت وفاتهما عن قتله ، الأول سنة احدى عشرة [209] والثاني سنة أربع وثلاثين [210] . قال القشيري — في « رسالته » —: رضي الله عنه ! وقال القاضي عياض — في « الشفا » —: أجمع فقهاء بغداد — أيام المقتدر — من المالكية ، وقاضي قضاتها أبو عمر المالكي على قتل الحلاج وصلبه ، لدعواه الالهية ، أي : قوله : « أنا الله » ، ودعواه الحلول ، أي : بأن الله حل فيه ، ويظهر له بصورته كما ظهر جبرائيل — عليه السلام [211] — بصورة دحية الكلبي ، أو يسرى فيه سريان الماء في العود الأخضر . وقوله — أي — الحلاج : « أنا الحق » أي : أنا الله ، لأن الحق من أسمائه — تعالى ! — مع تمسكه في الظاهر بالشريعة . ولم يقبلوا توبته ، لتكرر ذلك منه مع قوله : « ما في الجُبَّة غير الله » ، وقوله : « الذي تعبدونه فهو تحت قدمي » [212] . قال الخفاجي — عقبه —: قيل ان أباه كان من مجوس فارس صحب أول أمره الجنيد ، والسري [213] ، مع الزهد والعبادة التامة . ثم ذهب الى الهند ، وتعلم السحر ، وأظهره في صورة الكرمات ، واتخذ أملاكا ودورا ببغداد ، وصار يدعو الناس ، حتى شاع أمره ، فوقع بينه وبين الشبلي وداوود الظاهري والوزير علي بن عيسى — لما شاع عنه من الاخبار بالمغيبات ، وأظهر الأمور الخارقة بشعوذة ومحرقة . وله معرفة بالطب والكيمياء وغير ذلك من أمور الحكمة [214] ، وادعى الألوهية ، وأظهر الزندقة ، وكتب عليه ، فصلب وأحرق يوم الثلاثاء لسبع باقين من ذي القعدة/سنة 309 [215] بأمر المقتدر . وقال صاحب « الرموز » — بعد كلام —: فأما أهل التمكين فانهم علموا وكتموا ، كما قال الشبلي : كنت — أنا والحلاج في ذلك شيئا واحدا ، فأفشى السر وكتمته [216] لما علم من ضعف احتمال عقول أطفال العقول ، ولما تفوه الحلاج به أبيح دمه ، من حيث اظهاره ما يكتم ، فكان حكمه حكم « من أباح أن دمه مباح » ، قال وقد روي عنه أنه لما أوتي به ليصلب ، فرأى الخشبة والمسامير ضحك ضحكا كثيرا . ثم نظر في الجماعة ، فرأى الشبلي ، فقال له : يا أبا بكر ! أما معك سجادة ؟ قال : بلى ، قال : افرشها لي ، ففعل الشبلي ، فتقدم الحلاج [217] ، وصلى (ركعتين) قرأ في الأولى [218] — بعد فاتحة الكتاب —: « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ [219] ... » الآية ... وفي الثانية — بعد فاتحة الكتاب —: « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ [220] ... الآية ... ثم ذكر أشياء ، فكان ما حفظ منها : « اللهم

بحق قيامك بحقي وبحق قيامي بحقك . وقيامي بحقك مخالف قيامك بحقي ، لأن قيامي بحقك ناسوتية ، وقيامك بحقي لا هوتية ، مع أن ناسوتيتى مستهلكة في لاهوتيتك غير ممازج اياها ، ولا هوتيتك مستولية على ناسوتيتي [221] غير مماسّة لها ! أسألك أن توفقني لشكر هذه النعمة التي أنعمت بها عليّ ، حيث كشفت لي مطالعة [222] وجهك ، وحرّمت على غيري ما أبحت لي : من النظر في مكنونات سرك ، وهؤلاء عبادك ، قد اجتمعوا لقتلي ، تعصبا لدينك ، وتقربا اليك ، فاغفر لهم ، فانك لو كشفت لهم ما كشفت لي ما فعلوا ، ولو سترت عنّي ما سترت عنهم ما ابتليت بما ابتليت به [223] ، فلك الحمد فيما تفعل وفيما تريد » . وتقدم ابوا حارث السياف ، ولطمه ، فهشم وجهه وأنفه ، فصاح الشبلي ، ومزّق جبّته ، رغشي عليه وعلى جماعة من الشيوخ المشهورين . وذهب كثير من المشايخ الى أنه من أولياء الله ، منهم الغزالي ، واعتذر عمّا صدر منه في « مشكاة الأنوار » . وأفراد ابن الجوزي ترجمته بتاليف ، وقد قال كثير من المشايخ : انه عالم رباني ، منهم الشيخ عبد القادر الجيلاني ، قائلا : « لو كنت حاضرا لأخذت بيده . وقال : ان قوله : « أنا الحق » انما قاله لما غلب عليه الشوق [224] وسكر من كأس محبّته [225] ، حتى عاين قدرته في كل شيء ، فكل شيء رآه ظنه قدحا ،وكل شيء رآه ظنه الساقي ، وهو مقام الجمع عندهم [226] ، لكن أهل الشرع حفظوا حمى الشريعة » . قال المقري [227] ــ ونقله حفيده أحمد دفين مصر في « نفح الطيب » ــ: « ان الغزالي قال : ان الحلاج شرب بكأس الصفاء على بساط الوفاء ، فسكر ، فعربد ، فحده شهادة » . هـ . وأنشدوا : [228]

فَمَنْ شَهِدَ الْحَقِيقَةَ فَلْيَصُنْهَا ... وَإِلَّا فَلْيُقَتَّلْ بِالسِّنَانِ
كَحَلَّاجِ الْمَحَبَّةِ إِذْ تَبَدَّتْ ... لَهُ شَمْسُ الْحَقِيقَةِ بِالتَّدَانِي

وأنشد المقدس في « **حل** [229] **الرموز** » للحلاج [230] :

أَبَاحَتْ دَمِي إِذْ [231] بَاحَ قَلْبِي بِحُبِّهَا ... وَحَلَّ لَهَا فِي شَرْعِهَا مَا اسْتَحَلَّتِ
وَمَا كُنْتُ مِمَّنْ يُظْهِرُ السِّرَّ إِنَّمَا ... عَرُوسٌ هَوَاهَا فِي فُؤَادِي تَجَلَّتِ
فَشَاهَدْتُهَا فَاسْتَغْرَقَتْنِي بِسَكْرَةٍ ... نَفَيْتُ بِهَا مِنْ كُلِّ كُلِّي رَجْعَتِي
وَحَلَّتْ مَحَلَّ الْكُلِّ مِنِّي بِكُلِّهَا ... فَإِيَّايَ إِيَّاهَا إِذَا مَا تَبَدَّتِ
وَنِمْتُ عَلَى سِرِّي فَكَانَتْ هِيَ الَّتِي ... عَلَيْهَا بِهَا بَيْنَ الْبَرِيئَةِ نَمَّتِ
أَنَا الْحَقُّ فِي عُشْقِي كَمَا أَنَّ سَيِّدِي ... هُوَ الْحَقُّ فِي حُسْنٍ بِغَيْرِ مَعِيَّةِ
فَإِيَّاكَ فِي سُكْرِي شَطَحْتُ فَإِنَّنِي ... حَكَمْتُ بِتَمْزِيقِ الْفُؤَادِ الْمُفَتَّتِ
وَلَا غَرْوَ إِنْ أُصْلِيتُ نَارَ تَحَرُّقِي ... فَنَارُ الْهَوَى لِلْعَاشِقِينَ أُعِدَّتِ
وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ الَّذِينَ أُحِبُّهُمْ ... وَقَدْ أَغْلَقُوا أَيْدِي الْهَوَى بِأَعِنَّةِ
سَقَوْنِي وَقَالُوا لَا تُغَنِّي وَلَوْ سَقَوْا ... جِبَالَ حُنَيْنٍ مَا سَقَوْنِي لَغَنَّتِ

وقال الشيخ أبو مدين الغوث ـــ رحمه الله ! ورضي عنه [232] ! ـــ:

فَلَا تَلُمِ السَّكْرَانَ فِي حَالِ سُكْرِهِ　　فَقَدْ رُفِعَ التَّكْلِيفُ فِي سُكْرِنَا عَنَّا [233]

وقال الششتري في قصيدته « **النونية** » [234] :

وَذُوِّقَ لِلْحَلَّاجِ طَعْمُ اتِّحَادِهِ　　فَقَالَ : أَنَا مَنْ لَا يُحِيطُ بِهِ مَعْنَى
فَقِيلَ لَهُ : ارْجِعْ عَنْ مَقَالِكَ قَالَ : لَا　　شَرِبْتُ مُدَاماً كُلُّ مَنْ ذَاقَهَا غَنَّى

وقد انصبغت حقيقته [235] بهذا العشق ، فلم يقدر على إشعاره بالغير ، فأضاف الحق الى نفسه ، فكان خطأه في العبارة لا في الحقيقة ، لأن له أكبر قدم في الحقيقة ، حسبما دلت عليه « **الرسالة القشيرية** » في باب اعتقاد هذه الطائفة [236] ، وباب التوكل ، وباب الحرية ، وباب الفراسة ، الا أنه لا يذكره [237] بلقبه [238] الذي اشتهر به ، وانما يقول : « الحسين بن منصور » فقط . وجرى له ذلك لدعاء عمرو بن عثمان المكي [239] عليه/لسبب .

ومن الذين قيل فيهم بالكفر الى « **القطبانية** » : الشوذي وابن احلى ، وابن قسي ، وابن سكين ، والعفيف التلمساني ، والعجمي ، والأيكي ، والأقطع . وآخر من ذكرهم به ابو حيان ، والظن بهم براءتهم ، ولكن ضاقت عنهم العبارة عن حقائق صريح العلم ، فادت بظاهرها ما يتوهم مع براءتهم منه . هذا معتقدنا فيهم . والعلم بحقائق الامور لمن [240] يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور . قال زروق : والظن براءتهم من ذلك ، ولا التفات الى كلام أبي حيان فيهم في « **نهره** » ، والبرهان البقاعي في تآليفه في ابن الفارض ونحوهما من أهل العلم الظاهر الصرف ، فانهم لم ينتموا [241] إلى [242] طريق القوم حتى يعرفوا أحوالهم . وقال أبو الفتوح يحي بن حبش المقتول بـ « **حلب** » سنة سبع وثمانين وخمسمائة [243] ، لاتهامه بذلك ، في قصيدة ذكرها ابن خلكان ، أولها [244] :

أَبَداً تَحِنُّ إِلَيْكُمُ الْأَرْوَاحُ　　وَوِصَالُكُمْ رَيْحَانُهَا وَالرَّاحُ
لَا ذَنْبَ لِلْعَاشِقِينَ : إِنْ غَلَبَ الْهَوَى [245]　　كِتْمَانُهُمْ فَنَمَى الْغَرَامُ وَبَاحُوا
وَا رَحْمَةً لِلْعَاشِقِينَ تَكَلَّفُوا　　سَتْرَ الْمَحَبَّةِ وَالْهَوَى فَضَّاحُ [246]
بِالسِّرِّ إِنْ بَاحُوا تُبَاحُ [247] دِمَاؤُهُمْ　　وَكَذَا دِمَاءُ الْعَاشِقِينَ تُبَاحُ

هذا ما لخصناه من مشيخة الصوفية المتكلم فيهم وبراءتهم . هذا ، وقد قال [248] الخفاجي في شرح « **الشفا** » : النصاري والباطنية يقولون : إن الله حلّ في بعض الأجسام . وهذا أمر لا يعقل . وقد نسب لبعض الصوفية عبارات تقتضي ذلك ، وذلك اما جهلا أو

مؤولة بما يوافق الحق ، فان ما هم عليه : من الزهد ، والكرامات ، يقتضي أنهم على قدم النبوءة . فأما ما نقل عنهم اما دسيسة أو كلام على اصطلاحاتهم ، يعرفه أهله . **وأقول** : لا تظهر الخوارق العظام على من لم تخلص عقيدته من الأوهام هذا ما لا [249] يكون بحال ، ولو قاله من قال : [250]

«فَمَـا الْكَـرْجُ [251] كَالدُّنْيَـا وَلَا النَّـاسُ أقْسَامُ» [252]

تنبيه : قال العارف بالله الشيخ ابن عباد : «الحقيقة العلوم المدركة بتصفية الباطن» . هـ .

وقد قال الامام [253] أحمد بن حنبل لأحمد بن أبي الحواري : حدثني عما سمعت من شيخك/ الدراني ، فقال : «اذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام جالت في ميادين الملكوت وعادت الى ذلك العبد بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي اليها عالم علما» . فقام الامام أحمد وقعد ثلاثا . **واعلم** أنه لا يصح لأحد الوصول الى المقامات العلية الا باحد امرين : اما بجذب الهي ، واما بالسلوك على يد الاشياخ الصادقين .

قال الشعراني : الولي يأخذ أحكام شرعه من حيث أخذها المجتهدون ، وينفك [254] عنه التقليد لجميع العلماء ، الا النبي ﷺ ! وان نقل عن أحد من الأولياء أنه كان شافعيا أو حنفيا ـــ مثلا ـــ فذلك قبل أن يصل الى مقام الكمال . ولا يصح أن يبني مجتهد على مذهب غيره أو مريد على غير شيخه . **أعجوبة** : من الغرائب صوفي سني ، انظره في الجزء الأول من ابن أبي جمرة قبيل حديث : «اتخذ [255] حجرة ...» [256] ، من حديث زيد بن ثابت . ولذا قال الشيخ الأكبر ابن عربي الحاتمي ـــ في «**الفتوحات المكية**» ـــ : «من علامات العلوم اللدنية أن تمجّها العقول» . هـ . ألا ترى أن «الاحياء» أحرقه أهل المغرب أول القرن السادس [257] . وفي قضية موسى والخضر أدنّ دليل .أنظر الخفاجي ، حيث قال : «كفاك ما في قصة الخضر شاهد ، لأنها كشف ، لا فجر» . هـ .

وسئلت بتونس عمن انتقل من مذهب الى مذهب ، ومن انتقل للاجتهاد ومن كان يفتي بالمذاهب الأربعة ، وعمن قلّد غير الأربعة ـــ رضي الله عنهم ! ـــ

فأجبت : بأن الشيخ عبد الوهاب الشعراني قال : لم نعترض [258] على من تمسك بمذهب من مذاهبهم ، ولا على من [259] انتقل من مذهب الى مذهب ، ولا على من [260] قلد غير امامه في أوقات الضرورة ، أما الذي كان يفتي الناس بالمذاهب الأربعة : الشيخ عبد العزيز الدريني [261] ، وشيخ الاسلام ابن جماعة المقدسي ، والشيخ شهاب الدين أحمد الشهير بـ« ابن

الأقيطع [262]» ، والشيخ علي النبتيتي الضرير [263] ، والشيخ أحمد بن الحاج المانوي التلمساني ، وجماعة كثيرة ، ومؤلف هذا الكتاب : **محمد أبو راس الناصري** ، وفقه الله !

وقد قال امام النحاة محمد بن مالك : «واذا كانت العلوم مخارقات الهية واختصاصات لدنية ، فلا بدع أن يدخر الله — تعالى ! — [264] لبعض المتأخرين ما لم يكن لأحد من الأولين» . هـ .

ومثله/ للطرابلسي في حاشيته على القرآن العظيم . وأما من انتقل الى الاجتهاد المطلق فالامام ابن جرير الطبري ، لكن لم يسلم له ، وداوود (الظاهري)[265] انتقل عن مذهب ابن حنبل وسلم له . ولما ادعاه السيوطي أتاه العلماء ليبين لهم قواعده وأدلته [266] وما يترتب عليه من أمور لا تحصى ، فلم يخرج لهم ، واعتذر بشغل عاقه عن الخروج وكان ابراهيم الخدري تلميذ محمد القلشاني يوصف — بالاجتهاد المطلق — يعمل لنفسه بما يراه ، ولا يفتي الا بمذهب مالك» .هـ .

ورأيت في «**ذيل الديباج**» : أن ابن عرفة اثبت الاجتهاد لشيخه : ابن عبد السلام ، ونفاه عن ابن دقيق العيد ، وتقي الدين السبكي ، ولم يسلم له . وأما من قلد غير الاربعة فاهل الاندلس في ابتداء أمرهم ، قلدوا مذهب الأوزاعي ، وفي نيّف وسبعين ومائة [267] . ردّهم الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل [268] الى مذهب الامام مالك ، رضي الله عنه ! والامام الجنيد كان على مذهب سفيان الثوري حتى مات . وأما أبو ثور [269] فكان له مذهب ، فتركه ، وتقلد مذهب الشافعي . وقال القرافي : يجوز تقليد كل المذاهب في النوازل . وكان منذر بن سعيد البوطي [270] — قاضي «**قرطبة**» — يقلد مذهب داوود فيما يتعلق بنفسه ، ويقضي بين الناس بمذهب مالك . وكان السلطان : يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن على مذهب داوود ، وكذا الشيخ الأكبر ابن عربي الحاتمي ، وكذا أبو حيان النحوي . ولما انتقل الى مصر تقلد [271] مذهب الشافعي ، رحم الله الجميع . **وأما من انتقل**» من مذهب الى مذهب من الأربعة مذاهب ، فقال الغزالي : يجوز ذلك في كل ما لا ينقض فيه حكم الحاكم . وقال السيوطي : الذي انتقل من مذهب الى مذهب من غير نكير عليه الشيخ [272] عبد العزيز بن عمران [273] الخزاعي [274] ، كان من أكابر المالكية ، ولما قدم الشافعي بغداد تبعه ، وقرأ كتبه ، ونشر علمه . ومنهم : محمد بن عبد الله بن عبد الحكم [275] ، كان على مذهب مالك ، فلما قدم الشافعي الى مصر انتقل الى مذهبه ، وصار يحث الناس على اتباعه ، ويقول : «يا اخواني ! هذا ليس بمذهب ، انما هو شريعة كله» . وكان الامام الشافعي يقول/له : «سترجع الى مذهب أبيك» . فلما مات الشافعي

رجع لمذهب مالك . وكان يظن أن الشافعي يستخلفه على حلقة درسه ، فلما استخلف البويطي [276] رجع ، وصحّت فراسة الشافعي فيه . وأما **البقلاني** فاشتهر شافعيا ، والأصح مالكي . ومنهم : ابراهيم بن خالد البغدادي ، كان حنفيا ، ولما قدم الشافعي بغداد ترك مذهبه ، واتبعه .

ومنهم : أبو جعفر بن نصر الترمذي رأس الشافعية بالعراق ، كان — أولا — حنفيا ، فلما حجّ رأى ما يقتضي انتقاله لمذهب الشافعي ، فتفقه على مذهب الربيع من أصحاب الشافعي .

ومنهم : جعفر الطحاوي ، كان شافعيا ، وتفقه على خالد المزني . ثم تحول حنفيا بعد ذلك .

ومنهم : الخطيب البغدادي الحافظ ، كان حنبليا ، ثم انتقل شافعيا .

ومنهم : أبو عثمان الحداد ، كان مالكيا ، ثم انتقل شافعيا .

و(**منهم**) : عبد الرحمن ابن الشحناء الحلبي ، كان حنفيا ، ثم انتقل مالكيا .

ومنهم : ابن فارس : صاحب كتاب « **الجمل** في اللغة ، كان شافعيا تبعا لوالده ، ثم انتقل مالكيا [277] .

ومنهم : السيف الآمدى الأصولي المشهور ، كان حنبليا ، ثم انتقل شافعيا [278] . ومنهم الشيخ نجم الدين بن خلف المقدسي ، كان حنبليا ، ثم تحول شافعيا ، وارتفع شأنه [279] . ومنهم : الشيخ المبارك [280] بن الدهان النحوي ، كان حنبليا ، ثم تحول حنفيا [281] ، حين طلب الخليفة نحويا يعلم ابنه النحو ، ثم تحوّل شافعيا ، حين شغرت وظيفة التدريس « بالنظامية » ، أي : تدريس النحو ، وذلك ببغداد ، لما شرط صاحبها أن لا ينزل فيها الا شافعي المذهب ولم يكن أحد أعلم منه بالفقه والنحو . ومنهم : الشيخ : تقي الدين ، كان — أولا — مالكيا تبعا لوالده ، ثم انتقل شافعيا . ومنهم : شيخ الاسلام كمال الدين يوسف الدمشقي ، كان حنبليا ، ثم انتقل شافعيا . ومنهم : جمال الدين بن هشام صاحب « **المغني** » ، كان شافعيا ، ثم انتقل حنبليا قبل موته بخمس سنين [282] .

ومنهم : ابن مالك النحوي ، كان مالكيا ، ولما نزل دمشق بالشام انتقل شافعيا [283] . **ومنهم** : عبد الخالق بن الحسين ، عرف بـ « ابن الفرات » ، كان حنفيا ، ثم رجع مالكيا ، وأخذ عن الشيخ/خليل ، واشتهر به ، وشرح « مختصره » .

ومنهم : الشيخ خنيل ، كان أبوه : اسحاق وسلفه حنفي [284] المذهب ، ونشأ هو — أولا — على ذلك ، ثم ردّه أبوه مالكيا . ومنهم : ابن دقيق العيد ، أخذ — أولا — عن العز ابن عبد السلام الشافعي ، ووصل الى درجة الاجتهاد . ثم انتقل الى مذهب الامام مالك . ومنهم : أبو زرعة الدمشقي ، كان — أولا — على مذهب الاوزاعي ، ثم انتقل لمذهب الشافعي . وهو أول من أشهره بالشام .

ومنهم : برهان الدين الاحتائي ، كان شافعيا ، ثم تحول مالكيا . هذا ، وقد قال البرزلي : في الانتقال ثلاثة اقوال : واحد [285] بالجواز ، ونقله الحطاب وأقرّه ، وجزم ابن الحاجب بالجواز ، ولا ذنب على من قلّد الضعيف لعذر ، كما يؤخذ من كلام الشيخ ابراهيم المصمودي وتلميذه ابن جميل .

تنبيه : لا تجوز الفتوى للناس بما لا يعتقدون ، فقد كان محمد بن قاسم القرطبي أخذ [286] عن ابن عبد الحكم وسحنون من أصحاب مالك وعن المزني من أصحاب الشافعي ، وكان يفتي بمذهب مالك ، مع ميله لمذهب الشافعي ، فقيل له : انك تفتي الناس بما لا تعتقد ، وهذا لا يحل لك ؟! فقال : الناس يسألون عن مذهب جرى في البلد ، ولو سألوني عن مذهبي أخبرتهم به [287] . **قلت** : وعلى هذا يحمل ما للشيخ عبد القادر الجيلاني — رضي الله عنه — [288] أنه كان يفتي الناس بمذهب الشافعي والحنبلي مع ان صاحب «**القطبانية**» العظمى لا يقلد الا الشارع ، ﷺ !

اعلم انه كان مع المذاهب الاربعة — رضي الله عن الجميع [289] ! — سبعة ، أيضا .

وقد [290] انقرض أتباعهم : سفيان الثوري ، وسفيان بن عيينة ، والليث بن سعد ، واسحاق بن راهوية ، وداوود الظاهري ، والأوزاعي ، وابن جرير (الطبري) — على ما مر — وزاد الشعراني سبعة — أيضا —: مذهب عمر بن عبد العزيز ، ومذهب الشعبي ، ومذهب عائشة ، ومذهب عبد الله بن عمر ، ومذهب عبد الله بن مسعود ، و(مذهب) عطاء ، و(مذهب) مجاهد [291] .

قلت : ومذهب عبد الله بن عباس تقلده الخلفاء : أولاده الى ان انقطعت [292] سلطنتهم سنة ثلاث وعشرين من القرن العاشر [293] . ثم انعقد الاجماع على الاربعة ، وأن من خرج عنهم بدعي/ لانقراض اتباع الباقين .

وقد محق [294] المعز بن باديس — وسط القرن الخامس [295] — مذاهب المبتدعة من «افريقية» . **الطهارة** : سألني بعض حنابلة «نابلس» — وأنا بالقدس — عن الطهارة والنجاسة والحلية والحرمة ، ونحو ذلك بأي شيء توصف .

فأجبت : بأن تاج الدين السبكي ذكر في «الأشباه والنظائر» أنها ليست من صفات الاعيان . وذهب بعض من ينتمي — من الحنفية — لعلم الكلام الى ان الاحكام الشرعية صفات للجمال . وقال الاصوليون والفقهاء أن التقارير الشرعية يطلق عليها اسم الصفات . **قلت** : ولذا قال ابن عرفة — في حد الطهارة والنجاسة —: «صفة حكمية» ، وقال اهل «علم الميزان» [296]» : الأمور الاعتبارية لا يطلق عليها ذلك ، وانما تطلق الصفات على الاسلوب [297] ، والأحوال ، وهي لا وجود لها . **واعلم** : أن حصر رفع الحدث في المطلق متفق عليه ، بل حكى الغزالي عليه الاجماع ، لكن نوزع بقول من قال : يرفعه التيمم ، بل حكى عبد الحق خلافا في رفع الحدث بالمضاف ، وكذا رفع حكم الخبث محصور في المطلق . وأما من قال : أو ما يقوم مقامه بالاستجمار مردود بأن المحل نجس معفو عنه ، نعم ، تحجير الخمر وتخليله يرد على الحصر [298] .

وسئلت : عن التعليل المسلم في كراهية الماء المستعمل في الحدث .

فأجبت : بما لابن مرزوق [299] ، أما [300] مراعاة للخلاف ، واما ان الغالب [301] على أعضاء المتطهرين ان ينفصل منها شيء يصير الماء مضافا ، وان لم يظهر أثره ، وعلى الثاني نعم ، فتشبه مسألة الماء المخالط بما يوافق صفته ، وبالثاني وجه الباجي وبني القول بمنع استعماله على قول القابسي أن يسير الطاهر يسلب ماء التطهير ، وان لم يغيره . والله أعلم .

وسئلت بـ «قسمطينة» عن قول الحسن بن زياد لأبي حنيفة — رضي الله عنهما! —: «اني آكل الميتة ، وأحب الفتنة ، وأكره الحق ، وأشهد بما لم أراه» .

فاجبت : أن «الميتة» الجراد والسمك ، لحديث : «أحلت لنا مَيّتَتَانِ : السَّمَكُ وَالْجَرَادُ» [302] . و«الفتنة» المال والولد ، قال الله تعالى : «إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ» [303]. و «الحق» الموت . و «الشهادة بما لم يره» هو الله وحده بأن يشهد أنه وحده [304] ، لا شريك له ، وكره الموت ومحبته مفصلة في الخفاجي (على الشفا) .

وسئلت : بمجلس علماء الجزائر بـ «الجامع الاعظم» المعتاد ، يوم/الخميس ، وذلك سنة أربعة عشرة ومائتين وألف [305] — عن «**القهوة**» و «**الدخان**» ، وعمّا يسفّ منه أو يشم ، **فأجبت** : ذكر الشيخ على الأجهوري عن الحطاب أن الشراب المتخذ من قشور «**البن**» المسمى بـ «**القهوة**» ، اختلف الناس فيه ، فمنهم متغال في الحل [306] يرى أن ذلك قربة ومنهم متغال في التحريم [307] يراها كالخمر . والحق انه في ذاته لا اسكار فيه ، وانما فيه تنشيط للنفس ، ويحصل من مداومته ضرورة تؤثر في البدن عند تركه : كاعتياد اكل اللحم

بالزعفران ، غير أنها تعرض لها الحرمة من وجوه ، منها : ادارتها على الجلاس كادارة الخمر ، فيسري لهم التشبّه بشربه ، ويكون لها منادمة كهو .

ومنها : أن بعض بائعيها يخلطها بشيء من المفسدات ، على ما قيل .

ومنها : جلب الارذال وتلاهيهم بها .

وسئل عنها الشيخ زروق ، فقال : ليست بمستكره ، ولكن تحرم على من طبعه « الصفراء » أو « السوداء » لاضرارها ببدنه وعقله . وأما من كان بلغميا فانها توافقه . وقد كثرت في هذه الأيام فيتعين على العاقل اجتنابها ، الا لضرورة . هـ باختصار ، وادخال شيء [308] ، ولله درّ القائل : [309]

أَقُولُ لِأَصْحَابِي عَنِ « الْقَهْوَةِ » انْتَهُوْا ... وَلَا تَجْلِسُوا بِمَجْلِسٍ هِيَ فِيهِ
وَلَيْسَتْ بِمَكْرُوهٍ وَلَا بِمُحَرَّمٍ ... وَلَكِنْ غَدَتْ مَشْرُوبَ كُلِّ سَفِيهِ

والحاصل : أنها تحرم لهذه العوارض ، ومن سلم منها [310] رجعت في حقه لأصل الاباحة . و « البن » : أصله في بلاد « زيلع » [311] و « الحبشة » ، ثم ظهر باليمن أواخر القرن التاسع [312] ، ثم انتشر . قال الشيخ ابراهيم بن جمعان : « اذا كان « البنّ » في بلد ، ذهب منها الجان المختطف للأولاد ، ولا ينسى آكله الشهادة عند الموت . وفيه طبّ عظيم . وأما شرب مائه ، فاثمه اكبر من نفعه . وأما الدخان : وسفه وثمه ، فقال الشيخ ابراهيم الجولاني : علق بحفظي ، من كراسة كانت بين يدي مولاي عبد الله بن طاهر الحسني أنها — أي : « طابة » — مندرجة تحت المفسدات للعقول ، لاحداثها سببا وأن أكل المحروق لايجوز ، ولو خبزا ، وأن فيها اضاعة مال ، ويتعاطاها الأشرار ، لقلّة حيائهم ، وأن تسمية/الفسقة لها بـ « طابة » [313] حرام عليهم لتشريفهم لها به ، كما سموا الخمر بأسماء شريفة . وكان السلطان أحمد الذهبي أمر باحراقها بفاس الجديد ، لأنها [314] ضاع فيها مال عظيم . وقال أحمد المقري الذي ألف « نفح الطيب » لما سئل عنها ، قال : [315] « لا نصّ عندي فيها صريح ، وأدلّة تحريمها مبحوث في بعضها .

وقد سألت عنها شيخنا الشيخ أحمد بابا ، فقال : يباح القليل منها ، لأن الأشياخ بذاك أفتوا ، وعيّن من جملتهم شيخه الشيخ محمد بقيع الذي زعم علماء السودان أنه المجدد على رأس المائة العاشرة [316] هـ . وقال ابن عسكر — في « عمدته » — [317] : النبات كلّه مباح ، إلّا ما يغطّي العقل ، ونحوه لابن مرزوق (الحفيد) في شرح « المختصر » . وانظر شرح ميارة على « المنهج » [318] . وقال الشيخ عبد الرحمن الفاسي : الذي ينبغي اعتماده تحريم الدخان ، لاعتراف كثير أنه يحدث تفتيراً ، فيشارك الخمر [319] في نشوته ،

ويرخي الأطراف ويوهنها ، حتى أنه كالمسكر القليل من الخمر . فلولا أنه فيه ذلك ما ولع به . ويتضرّر البدن ـــ عند تركه ـــ جداً . وقال الأطباء : انه يميت القوة . وصرّح بعض التونسيين بحرمته ، لكونه يضعف الجماع . **والحاصل** أن مفاسده كثيرة ، وبالحرمة جزم أبو السعود [320] عالم اسطنبول حيث قال [321] :

حَرَامٌ شُرْبُــــهُ لَا شَكَّ فِيــــهِ ... فَحَــالَ مَنْعُــهُ بَيْــنَ الْمُحَــالِ
تَيَقَّــنْ لَيْسَ فِيــهِ غَيْــرُ ضُرٍّ ... وَمَــا فِيــهِ سِوى إتْــلَافِ مَالِ

إلى أن قال :

يُعزَّر شاربه إلخ :

ويقال : أن الشيخ أحمد بن الناصر [322] أفتى بحرمته ، وأحسب أن الشيخ الفكون القسمطيني [323] تلميذ الوزان ألّف « **رسالة** » [324] في حرمته **وسئل** بعضهم عن سف الدخان ، **فقال** : أنه من فعل السفهاء ، وقال الشيخ عبد القادر الفاسي ـــ في الغبار المجعول في الأنف عند سفلة الناس ـــ : **فهو** في أصله نبات طاهر إذا سلم من العوارض ، لكن قال الشيخ إبراهيم اللقاني : فالمجلوب منه [325] من بلاد النصارى [326] يرشونه بالبول [327] والخمر ، فهو نجس لذلك ، وتعاطيه قادح في الامامة والشهادة ، وانه خارم للمروءة . وفي « **احتصار الحطاب** » للشيخ مياة : فان كان في ذاته هو والغبرة غير مسكرين فما يعرض لحرمتهما من الأمور أكثر فتعين تركه وشمّه . وقد صرّح به الصعيدي أول « **باب الوصية** » بالقهول بكراهة شربه » . هـ .

وقال اللقاني بالتحريم [328] وكلام الشيخ علي الأجهري وكذا الشيخ : أحمد بابا معلوم بالحرمة والجواز ، وكل [329] منهما ألف رسالة فيه . وبما [330] مرّ من النقول تعلم ما في قول الشيخ عبد الباقي في شرحه على « **العزّية** » : أنه لا يحرم الا على من يسكره . ونحوه في « **الزهرة الوردية** » . **قلت** : ومن نسب أحاديث الوعيد في شرب الخمر للترمذي ـــ و « **حلية** » أبي نعيم ـــ فقد كذب . أنظر الشيخ : علي [331] الجوهري في « **كبيره** » . **والحاصل** : أن هذه العشبة الخبيثة اختلف فيها المؤرخون ، والأكثر منهم على المنع قال سحيم [332] : انه [333] حدث بالشام سنة إحدى عشرة وألف [334] ، وقال غيره : أول ما حدث في الغرب سنة تسع وتسعين وتسعمائة [335] على نقط « يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ » في سورة « **الدخان** » [336] ، وذلك أن أهل السودان قدموا لمراكش على السلطان أحمد الذهبي بالزرافة والفيل ، فجالسوا الناس ، فتعاطوا منهم الشرب والشم ، ففشى ذلك وانتشر ، كما هو شأن البدع الخبيثة ، واجتهد السلطان المذكور في إخماد هذه البدعة ، فلم يقدر وكان موت السلطان

المذكور سنة إثنتي عشرة وألف [337] . وها أنا أذكر ما اختلف فيه المذاهب الأربعة ، رضي الله عنهم ! وأرضاهم عنا وعن ذرياتنا ! وربما ذكرت خلاف غيرهم من ذلك قول الثلاثة : أن النجاسة لا تزال إلا بالمطلق ، مع قول أبي حنيفة : تزال بكل مائع ، غير الأدهان ، مع أن أبي ليلي والأصم قالا : تزال ــ كالوضوء ــ بسائر أنواع المياه ، حتى المعصرة ، لأن أصلها المطلق . وكانت عائشة تفرك دم الحيض حتى تزول عينه . ومن ذلك الماء المسخن لا يكره ، مع قول أحمد : يكره المسخن بالنجاسة ، ومع قول مجاهد بكراهته مطلقاً . وأما المشمش فلا يكره عند الثلاثة ، مع الأرجح من مذهب الشافعي كراهته . ومن ذلك الماء المستعمل في حدث طاهر غير طهور على المشهور [338] من مذهب أبي حنيفة وهو الأصح من مذهب الشافعي وأحمد ، وفي الرواية الأخرى أنه نجس ، وهو قول أبي يوسف ، مع قول مالك : هو مطهر [339] ، وأن عند أبي حنيفة بول البهائم نجاسة متوسطة ، كما أن الصغائر متوسطة بين الكبائر/والمكروهات . واعلم أن الطهارة إنما شرعت بالماء لإحيائه الأعضاء التي ماتت من المعاصي . قال تعالى ! : وجعلنا من الماء كل شيء حي » [340] . فعلته معقولة ، لا تعبديه كما قيل به . ومنه قول الأئمة الثلاثة بعدم تطهير الماء المتغير كثيراً بطاهر ، ولا في حنيفة [341] لا يضر . وقال : إن لم يطبخ به . » هـ . وأنظر كتابنا : «رحمة الأمة ، في إختلاف الأئمة » . وقال بحرمة « **الدخان** » ــ أيضاً ــ الشيخ أحمد بن محمد بن ناصر الدراوي [342] ، والعارف بالله القطب [343] الشيخ محمد بن سعيد الهبري نسباً ، الطرابلسي مدفناً ، حسبما نقله عنه تلميذه الشيخ محمد بن عبد الرحمن . وذكر الشيخ الفيشي ــ بكسر الفاء ــ أن شراءه يفسخ عند قول خليل : « وانتفاع به ... » هـ . **وسئلت** بمحروسة فاس سنة عشرة ومائتين وألف [344] عن قول « **صحة** » ، وذلك في مأدبة [345] عظيمة ، حضرها أكبر العلماء الجهابيذ ، وأجلة الفقهاء والأسانيد [346] ، وذلك أنه لما شرب خاتمة الأدباء وأكمل النجباء المتمهر في الفنون : أبو عبد الله السيد حمدون ، فقلت له : « **صحة** » على عادتنا بالمشرق [347] ، فكان هو ومن معه [348] من العلماء استحيوا [349] مني ، فأول من ضحك من كان لي موالياً ، وهو العلامة الزروالي ، وأسد النحو الهصور العلامة ابن منصور ، **فقلت** : مما تضحكون ؟! وأي نص عليه تحكون ؟! **فقالوا** : هذه كلمة مهجورة عند عوامنا ، فكيف بخواصنا ؟! فقلت : كأنها عندكم لم تجر في كتاب باختصار أو اطناب . **فقالوا** : أو يكون في الوجود مشتملة على الحالة اللازمة والمنتقلة ؟ **فقلت** : نعم ، قد كان ذلك وشر المعارف من أذاك . وكان شيخهم لي جيران ، وهو الشيخ العلامة الطيب ابن كيران ، أعجوبة الزمان ، وحافظ العصر والأوان الطائر الذكر في الآفاق : كمصر والشام وتونس والعراق ، لما سمع مني ما مضى ، وأن فيها نصا ، استوى

جالسا ، بعد ما كان متكئا . فياله من زكي ، ذكي ! نظير المأمون لما لحن في السداد ، وهو متكيء ، زاعما أنه لغوي نبيل ، فاستوى جالسا لما رد عليه النظير بن شميل . **فقال** ابن كيران : أنفعنا [350] على ما زعمت بالبيان ، وليس الخبر كالعيان ، **فقلت** : أعجب منكم لجهلكم بالمسألة ، وليست بخفية عند المالكية والحنفية . **فقال** : وحق سورة «**المائدة**» ! لا أكلنا من المائدة لا أكلنا هذه المائدة ، حتى تفيدنا هذه الفائدة . **قلت** : « قال شهاب الدين أحمد الخفاجي الحنفي في شرح « **الشفا** » **ما نصّه** : **روى الحاكم والدارقطني عن أم أيمن أنها قالت** : « **قام رسول الله — ﷺ ! — من الليل إلى فخارة في جنب البيت ، فبال بها وتركها ، فقمت — وأنا عطشانة — فشربت ما فيها ، وأنا لا أشعر ، فلما أصبح قال** : « **يَا أُمَّ أَيْمَن ! قومِي فَاهْرِقِي مَا فِي الْفَخَّارة** » ، **فقلت** : شربت ما فيها ، **فضحك** ، **ثم قال** : « **وَالله لَا يَجُوعَنَّ بَطْنُكِ أَبَدا** » . وأخرج **عبد الرزاق عن أبي جريج ، قال** : **أخبرت أنه — ﷺ — كان يبول في قدح من عيدان ، ثم يوضع تحت سريره ، فجاء ، فاذا القدح ليس فيه شيء ، فقال لامرأة — يقال لها** « **بركة** » كانت تخدمه —: « **أَيْنَ الْبُولُ الذِي كَانَ فِي الْقَدَح ؟** » فقالت له : شربته فقال لها : « **صحّة** » ، فما مر بها حدث غير مرض موتها . قال ابن دحية : هما قصتان لامرأتين : بركة أم يوسف ، وبركة أم أيمن . قال الخفاجي — **أيضا** — : قوله صلى الله عليه وسلم ! : « **صحّة** » يدل على ان الدعاء به بعد الشراب سنّة ، لا بدعة عامية . وحكمته أن الأكل والشرب يخشى منه السقم ، فلذا دعا به . ولذا قال عياض : فان أكثر ما تراه — أي : السقم — يكون من الطعام والشراب ، كما في بعض نسخ « **الشفا** » . هـ .

هذا وفي « **المدخل** » لأبي عبد الله بن الحاج ما نصّه : « وينبغي للشارب ان لا يشرب من ناحية أذن الكوز ، لما ورد أن الشيطان يشرب منها . وينبغي ان يبدأ — أي : الساقي — بأفضلهم ، ثم يدار على يمينه . وقولهم لمن يفرغ من الشرب : « **صحة** » — بهذا اللفظ وان كان دعاءا حسنا فاتخاذه عند الشرع بدعة . فان قيل : ان النبي — ﷺ — قال لأم أيمن — لما أن شربت بوله ، ﷺ ! —: « **صحّة** ! يَا أُمَّ أَيْمَن ! لَنْ تَلِجَ النَّارُ بَطْنُكِ » ، فهذا ليس فيه حجة ، لأنه لم يكن ماء شرب ، وانما هو البول وهو اذا شرب عاد بالضرر [351] ، فقال لها عليه الصلاة والسلام ! : « **صحّة** » لينفي عنها ما تتوقعه مما جرت [352] به العادة من بول غيره — ﷺ ! — فتضمن ذلك دعاءا وأخبارا . وذلك بخلاف شرب الماء . ويدل على ذلك انه لم ينقل عنه — عليه الصلاة والسلام ! — هذا اللفظ في غير هذا الموطن ، ولا عن أحد من أصحابه ، ولا عن أحد من السلف الماضين ، رضي الله عنهم أجمعين ! ولو كان نقل لشاع وذاع أمر ذلك » . هـ .

وسئلت بـ «**تيطوان**» — إحدى مدن المغرب — عن قوله — تعالى! —: «وَقَالَ الذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَاسَبَقُونَا إِلَيهِ» [353] .

فأجبت : بأن المعنى : وقال الذين كفروا لبعضهم بعضا . وقوله : «لِلَّذِينَ آمَنُوا» المراد عن الذين آمنوا ، أي : عن شأنهم وتقلدهم الاسلام ، ولو كان ما تقلدوه خيرا «مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ» . فقال السائل : «وَقَالَ الذِيَن كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا» ، إن الكفار قائلون [354] ، والمقول لهم «الَّذِينَ آمَنُوا» ، **فقلت** : لا ، وما معناه إلا ما قلت لك ، ثم قلت له [355] : يا هذا [356] لو كان كما [357] تقول لكان «مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ» ، بالخطاب ، لا بالغيبة . فحينئذ فهم ، وسلم ، واعترف بالحق ، وأذعن للصدق .

ثم ذهبت لمرساها [358] ، لأجل السفر ، ولما تأخر الريح ألفت كتابا ، سميته «**روضة السلوان ، المؤلفة بمرسى تيطوان ، والجراية من عند أميرها تأتيني بأمر السلطان سليمان**» [359] .

وسئلت بتلمسان عن «**رشد**» أتفتح شينه أم تكسر ؟ ففي حديث مسلم [360] و «سنن أبي داوود» : أن ثابت بن قيس بن شماس خطيب الأنصار ، قال — بحضرة رسول الله ، ﷺ ! —: «مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ» (بفتح الشين) . فأجبت : بما في «**المصباح**» : أن «رشد» ، من باب تعب ، وقتل ، فهو أرشد ، والاسم الرشاد ، ويتعدي بالهمزة» . هـ . وكذا لغيره . قال الخفاجي : «فشين رشد مفتوحة في الحديث ، وهو المشهور رواية ، ويجوز كسرها ، وروي أنه من باب علم أيضا» . **قلت** : ومن الغريب ما حكاه تاج الدين السبكي في «**طبقاته**» : أن شهاب الدين ابن المرحل [361] قرأ على الحافظ المنذري [362] رَشِد — بكسر الشين — فرد عليه ، وقال : رَشَد — بالفتح — فقال : قال الله العظيم : «لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ» [363] ، فقال ابن المرحل : وكذلك قال : فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً» [364] . فسكت الحافظ المنذري [365] ، لأن فعل المضموم مضارع فعل المفتوح أو المضموم . والثاني مفتوح ، فتعين الأول ، فأجابه : بأن مصدره ورد على فعل — بالتحريك — وهو مصدر فعل المكسور . قال ابن هشام : والذي في «**كتاب سيبويه**» كسخط ، فجاء السماع على وفق سماع ابن المرحل . فلله دره ! قال السبكي : «ولا وجه للقياس مع الرواية ، فان المروى في الحديث/ هو المشهور في اللغة» . هـ وكذا نقله السيوطي في شرح «سنن أبي داوود» . و «**اذا جاء نهر الله بطل نهر معقل**» هـ [366] .

قلت : ومن اشارة الغيب أن ابن رشيد الفهري — صاحب «الرحلة» المشهورة —

حضر «الجمعة» بالجامع الاعظم بتونس ، فسمع الخطيب على المنبر يقول : «وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ» — بفتح الشين — فقال : «قلت له : بكسرها ، فلم يرجع ، فلما قدمت لتلمسان ، ذهبت لشيخنا الشيخ ابراهيم المصمودي [367] ، فأول ما وقعت عيناه عليّ ، قال : رشدت ، ورشدت يا ابن رشيد ! اللغتان فصيحتان ، حكاهما قطرب ، فتعجبت» . هـ . ونظيره ما حكاه العلامة ابن مرزوق عن ابي جميل ، قال : «أفتيت في مسألة بما لابن حبيب وأصبغ ، تاركا لمذهب ابن القاسم ، ثم اني ذهبت لزيارة أمي وفي وحل ، فسقطت ، فانصدع ذراعي . ولما اتيت الشيخ ابراهيم المصمودي ، فقال : كيف أنت ؟ قلت : أثقلتني ذنوبي ، فقال — بدهية — : لا ذنب على من قلد ابن حبيب وأصبغ» .

هذا ما حضرني من «الأسئلة في وجهتي وأثناء [368] رحلتي» ، التي هي ملء العيبة ، في طول الغيبة ، الى مكة وطيبة ، وغيرهما : من الجزر ، ومصر ، والشام ، وذات الحمام . وما نسيت اكثر وأحفل وأكمل . والمدار على العمل . والله يرزقنا بالتوفيق ، وحلاوة التحقيق ، وعلم وايقان ، وتدقيق واتقان . و «الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق» [369] . يتلوه عدة تآليفي والله الموفق [370] . اللهم اغفر لنا ولوالدينا ومشايخنا ! آمين ! [371] .

* * *

هوامش

(1) الزيادة من (ب) .
(2) أ ، ج : هؤلاء الأجوبة .
(3) ج : ولا يحيد .
(4) ب : محاسنه .
(5) «فوقية» : ساقط من (ج) .
(6) الزيادة من (ب) .
(7) ج : وهي .
(8) هو : الفقيه المالكي ، وعلامة زمانه في فن الميقات وشتى فنون عصره ، كان مشهورا بالزهد والتبتل ، توفي سنة 960 هـ = 1553م .
(9) في جميع النسخ : والشيخ .
(10) ج : أجبت .
(11) «تعالى» : ساقط من (ب) .
(12) سورة «طه» . الآية : 5 .
(13) ج : البعض .
(14) «الرحمن» : ساقط من (ب) .
(15) سورة «البقرة» ، الآية : 58 .
(16) «رحمه الله» : ساقط من (ب) .
(17) هو : أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني ، صاحب «الرسالة» ، المذكورة في صلب الكتاب .
(18) «أيضا» : ساقط من (ج) .
(19) سورة «البقرة» ، الآية : 29 .
(20) ج : عنايتها .
(21) ب : لا مأثم .
(22) ج : ولا يقال على هذا يقدر الله تعالى ...
(23) ج : على غير ...
(24) ج : ما يقع .
(25) في جميع النسخ : أبو .
(26) ج : يا أحمد .
(27) هي : حاشيته على «الصغرى» للشيخ السنوسي في التوحيد ، وله حاشية ــ أيضا ــ على «الكبرى» للشيخ السنوسي كذلك . وقد تقدمت ترجمة كلا المؤلفين .

(28) هو : «المقترح » في المصطلح» ، في الجدل لمؤلفه الشيخ أبي منصور ، محمد بن محمد البروي الشافعي ، المتوفي سنة 567 هـ - 1172م .
(29) في جميع النسخ : ان المأخوذ . (والتصويب من قلمنا) .
(30) ب : الكمال في عقولهم .
(31) أي : ولا بد من النظر في تمام النص والعبارة عند البصريين .
(32) الزيادة من (ب ، ج) .
(33) هو : أبو محمد عبد الله ابن أبي زيد القيرواني .
(34) في جميع النسخ : المسألتين المذكورتين . (والتصويب من قلمنا) .
(35) الزيادة من (ب) .
(36) «المتقدم» : ساقط من (ب) . ج : السابق .
(37) ج : لأن فيه ...
(38) «رضي الله عنه» : ساقط من (ب) .
(39) ج : سمو المصطلح الحديث .
(40) من «ولما كانت الأحكام» حتى «فقها» : ساقط من (ب، ج) .
(41) «وقد» : ساقط من (ب) .
(42) ج : في مناقضة .
(43) «علم» : ساقط من (ج) .
(44) «ان شاء الله» : ساقط من (ب) .
(45) ج : يستعني .
(46) «رضي الله عنه» : ساقط من (ب) .
(47) «قائم» : ساقط من (ج) .
(48) الزيادة من (ب) .
(49) ج : تعليقهما .
(50) سورة «النحل» ، الآية : 40 .
(51) «حينئذ» : ساقط من (ج) .
(52) هو : «شرح مقاصد الطالبين» في علم الكلام لمؤلفهما : سعد الدين ، مسعود بن عمر بن عبد الله ، التفتازاني . أحد أئمة العربية والبيان ، واحد أعلام المنطق وعلم الكلام . من مؤلفاته : «تهذيب المنطق» . ز «شرح العقائد النسفية» . و «المطول» في البلاغة . و «النعم السوابغ ، في شرح الكلم النوابع» للزمخشري توفي سنة 793 هـ - 1390م .
(53) ج : [illegible] .
(54) هو : «طوابع الأنوار» ، لمؤلفه أبي سعيد ، عبد الله بن عمر بن علي ، الشيرازي ، البيضاوي . المفسر المشهور . توفي سنة 685 هـ - 1286م .
(55) ب : بوجوه .
(56) «لابد أن» : ساقط من (ب) .
(57) هو : أبو الثناء محمود بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الاصبهاني : أحد أعلام العقليات وامام من أئمة التفسير : وقد أعجب به أحمد بن تيمية . من مؤلفاته تفسير كبير ، أسماه : «أنور الحقائق الربانية» . و «تشييد القواعد ، في شرح تجريد العقائد» . و «شرح فصول النسفي . و «مطالع الأنظار » في شرح طوالع الأنوار» للبيضاوي . توفي سنة 749 هـ - 1349م .
(58) أي : بعد ما مرّ في «طوالع الأنوار» للبيضاوي .
(59) ج : مما .

(60) ب ، ج : به .
(61) ب : الأشاعرة .
(62) ب : يتلزّم .
(63) هو : القاضي عضد الدين ، عبد الرحمن بن ركن الدين أحمد بن عبد الغفّار ، البكرى ، الايجي ، الحنفي : أحـد أئمة عصره ، وأعلام قطره في شتى الفنون . من مؤلفـاته : « اشـراق التـواريخ » . و « بهجة التوحيد » . و « تحقيق التفسير ، في تكثير التنوير » ، في تفسير القرآن . و « الرسالة العضدية » ، في الوضع . و « العقائد العضدية » . توفي سنة 756 هـ - 1355م .
(64) وهو : « العقائد العضدية » .
(65) ج : الحقيقة .
(66) « ذلك » : ساقط من (ج) .
(67) ب : الأشعرية .
(68) سورة « الذريات » ، الآية : 58 .
(69) ج : المطوية .
(70) سورة « الزمر » ، الآية : 7 .
(71) ب : الحكم .
(72) هو : « مفتاح الفلاح ، في ذكر الله الكريم الفتاح » . لمؤلفه الشيخ تاج الدين أبي العباس ، أحمد بن عطاء الله الاسكندري ، المتوفي سنة 709 هـ - 1310م .
(73) « هـ » : ساقط من (ج) .
(74) ب ، ج : حجر فيه .
(75) هو : شهاب الدين ابو العباس ، أحمد بن محمد بن علي ، الغُنيمي الأنصاري الخزرجي : أحد اعلام مصر وفقهائها . توفي سنة 1044 هـ - 1635م .
(76) ج : من علماء تلمسان .
(77) ب : لاصطلاح .
(78) ب : صفة .
(79) ج : التعلّقي .
(80) هو : أبو العباس ، أحمد بن محمد بن زكري ، التلمساني : أحد كبار الفقهاء الأصوليين والبيانيين . من مؤلفـاته : « مسائل القضاء والفتيا » . و « بغية الطالب ، في شـرح عقيـدة ابن الحـاجب » . و « منظومة في علم الكلام » ، تنيف على 1500 بيت . و « شرح الورقات » في الأصول لامام الحرمين ، توفي سنة 899 هـ - 1493م .
(81) « الذي » : ساقط من (ب) .
(82) ج : اختلال .
(83) ج : لو أنصفت .
(84) « فيه » : ساقط من (ج) .
(85) ج : والتفهيم .
(86) ب : ولا يفوق .
(87) « لك » : ساقط من (ج) .
(88) « مع غاية البيان الذي في الأصل » : ساقط من (ب) .
(89) ج : والا اللفظ .
(90) « يشك » : ساقط من (ج) .
(91) الموافقة .

(92) «تعالى» : ساقط من (ج) .
(93) ج : ارتفاع .
(94) سورة «ق» ، الآية : 37 .
(95) ج : الاجلال .
(96) ج : لا في التدبير .
(97) ج : موجودة .
(98) فيه اشارة الى قوله ـ تعالى !ـ «ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير» . (سورة «الشورى» ، الآية : 11) .
(99) ج : نظار .
(100) «قبل» : ساقط من (ب) .
(101) ج : مرئي .
(102) في جميع النسخ : «ولطف» . (والتصويب من قلمنا) .
(103) ج : من صفات الأفعال .
(104) ج : وصم .
(105) سورة «الفرقان» ، الآية : 58 .
(106) سورة «القصص» ، الآية : 88 .
(107) سورة «الرحمن» ، الآية : 27 .
(108) سورة «البقرة» ، الآية : 255 .
(109) «قبضة» : ساقط من (ج) .
(110) ج : الأول .
(111) ج : صغير أو كبير . .
(112) ب : عما .
(113) سورة «الرحمن» ، الآية : 29 .
(114) «عليه» : ساقط من (ج) .
(115) «غسق» : ساقط من (ج) .
(116) «لا يشبه كلامه» : ساقط من (ج) .
(117) ج : وأن موسى كلّمه ...
(118) الزيادة : من (ب) .
(119) ب : اذا .
(120) ج : بضرّ الألم .
(121) ب : عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام .
(122) هو : ابو طالب ، محمد بن علي بن عطية الحارثي . أحد كبار الوعّاظ والزهاد ، وعلم من أعلام الفقهاء الصوفيين . كان متهما بالاعتزال . من مؤلفاته :«قوت القلوب» في التصوف ، و «علم القلوب» . و «أربعون حديثا» . توفي سنة 386 هـ - 996م .
(123) في «وفيات الأعيان» ، و «ميزان الاعتدال» ، و «تاريخ بغداد» : توفي بمدينة بغداد .
(124) ب : العاملين .
(125) الموافقة لسنة 910م .
(126) «سنة» : ساقط من (ب) .
(127) الموافقة لآخر سنة 908م .

(128) «شهاب الدين» : ساقط من (ب) .
(129) ب : ولو .
(130) ب : ولكان .
(131) ج : العلماء .
(132) «القطب» : ساقط من (ب) .
(133) الموافقة لسنة 1277 م .
(134) «أن» : ساقط من (ب) .
(135) من «فلا علم» حتى «بنقل المناوى في طبقات» : ساقط من (ج) .
(136) ب : ابن محمد الحسن الفاسي .
(137) «أن» : ساقط من (ج) .
(138) «جميع» : ساقط من (ج) .
(139) «أم لا» : ساقط من (ب) .
(140) هو : شهاب الدين أبو حفص ، عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي ، المتوفي سنة 632 هـ - 1235م .
(141) ج : محتجاً على السندي .
(142) من بحر الطويل .
(143) ج : يقع .
(144) «جميع» : ساقط من (ج) .
(145) ب : التصوف .
(146) الموافقة لسنة 1045 م .
(147) «حلّ» : ساقط من (ج) .
(148) ج : يكفر منهم على .
(149) هو : أبو الحسن ، علي بن عبد الله النميري ، الششتري : أحد كبار المتصوفة الفواضل في القطر الأندلسي ، وعلم من أعلام الفقه . من وصفه أحمد المقري في «النفح» بعروس الفقهاء . من مؤلفاته : «العروة الوثقى» . و «المقاليد الوجودية ، في أسرار الصوفية» . و «ديوان شعر» . توفي سنة 668 هـ - 1269م .
(150) الزيادة : من (ج) .
(151) ب ، ج : الفلسفة .
(152) ب : فمن ذكرها .
(153) «غزلية» : ساقط من (ج) .
(154) من البحر الكامل .
(155) الشيخ : هو أبو العباس ، أحمد زروق الفاسي .
(156) الموافقة لسنة 1270م .
(157) ان التاريخ الذي ذكره محمد أبو راس موافق تماما لما جاء في النسخ المطبوعة لـ «نفح الطيب» وليس فيها تحريف ولا تصحيف ، ما عدا ما جاء في هامش احدى النسخ : من «أنه وجد في درة الأسلاك» أن ابن سبعين توفي عن خمس وسبعين سنة .
(158) الموافقة لسنة 1276م .
(159) «ابن سبعين» : ساقط من (ب) .
(160) الموافقة لسنة 1269م .
(161) الموافقة لسنة 1198م .

(162) قال المقرى — في « نفح الطيب » —: « ولما وصل الششترى من الشام الى ساحل » دمياط « — وهو مريض مرض موته — نزل قرية بساحل البحر الرومي ، فقال : ما اسم هذه القرية ؟ فقيل « الطينة » فقال حنت الطينة إلى الطينة ، وأوصى أن يدفن ب « مقبرة د مياط » ، اذ « الطينه » بمفازة ، وأقرب المدن اليها « دمياط » فحمله الفقراء على أعناقهم إلى دمياط » .

(163) ح : وتباعة .

(164) الزيادة : من (ب) .

(165) الضمير المستتر في « كان » يعود على ابن سبعين .

(166) « إنشاء » : ساقط من (ب) .

(167) ب : أبو الفارض .

(168) من البحر الطويل .

(169) الشطر الثاني مختل الوزن .

(170) « ولا عقب له » : ساقط من (ب) .

(171) الموافقة لسنة 1165 م . والزيادة من (ب) .

(172) الموافقة لسنة 1240 م .

(173) ب : درهم .

(174) « اني » : ساقط من (ج) .

(175) ب : في اليوم .

(176) سورة « البقرة » ، الآية : 134–141 .

(177) ج : وأنه .

(178) ج : فقال له .

(179) « أن » : ساقط من (ب) .

(180) الذي هو السلطان سليم العثماني المتنبأ به .

(181) ب : خط يده .

(182) هو : الشيخ عبد القادر بن علي بن يوسف بن محمد ، الفرني ، الفاسي المالكي : أحد أعلام عصره في الفقه وعلوم الدين . ولم يشتغل بالتأليف ، وإنما اشتغل بأجوبة مختلفة في شؤون الدنيا والدين ، وقد جمعها بعض أصحابه — بعده — فأصبحت مجلداً ، حتوي على فتاوى . قال صاحب « الصفوة » : « وهي من الفتاوي التي يعتمد عليها علماء الوقت » . توفي سنة 1091 هـ 1680 م .

(183) ج : من .

(184) ج : [illegible] علي بن منصور بن أبي بكر الخلاجي .

(185) هو : أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج : أحد كبار الزهاد المتعبدين ، وأحد أعلام الصوفيه المشهورين أصله فارسي ، ونشأ بالعراق ، كان يدّعي حلول الالهية فيه ، فكثرت الوشاية به إلى المقتدر العباسي ، فأمر بالقبض عليه ، وسجن ، وعذّب ، وهو صابر لا يستغيث ثم قتل سنة 309 هـ 922 م .

(186) ب : الموجود .

(187) ب : الذي به كل موجد .

(188) ب : معدوم بنفسه .

(189) ج : الموجود .

(190) أي : كبرى الإمام السنوسي في العقائد .

(191) ب : يستحيل

(192) ج : على كل .

(193) هو : أبو الحسن ، علي بن محمد بن وفا ، القرشي الأنصاري ، الشاذلي ، المالكي : أحد أعلام الفقهاء المتصوفة . من مؤلفاته : « الوصايا » . و « الباعث على الخلاص في أحوال الخواص » . و « الكوثر المترع ، من الأبحر الأربع » ، في الفقه . و « ديوان شعر » . توفي سنة 807 هـ - 1405 م .

(194) من البحر الوافر .

(195) أي : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، المتوفي سنة 852 هـ - 1448 م .

(196) أي : الشيخ محمد بن وفا ، والد أبي الحسن علي بن وفا صاحب البيت المذكور أعلاه .

(197 ، 199) (ب) : الشيخ مدين (بحذف «أبي») .

(198) ج : تائيته .

(200) من بحر الكامل .

(201) الموافقة لسنة 913 م .

(202) الموافقة لسنة 922 م .

(203) من « قال أبو العباس أحمد » حتى « ومن اختلف » : ساقط من (ج) .

(204) هو : أبو بكر ، دلف بن جحدر ، الشبلي ، نسبة إلى « شبلة » : قرية من وراء « النهر » : كان مشهوراً بالتعبد والزهد والصلاح ، له شعر جيد نهج به منهج التصوف . توفي سنة 334 هـ - 946 م .

(205) هو : أبو محمد ، أحمد بن محمد بن الحسين ، الجريري أحد أصحاب الجنيد ، وأحد علماء مشايخ القوم الصوفية . توفي سنة 311 هـ - 924 م .

(206) ب : بعزله وإطالة سجنه .

(207) ج : مخالفته .

(208) الموافقة لسنة 912 م .

(209) الموافقة لسنة 924 م .

(210) الموافقة لسنة 946 م .

(211) « عليه السلام » : ساقط من (ج) .

(212) « فهو » : ساقط من (ج) .

(213) هو : أبو الحسن ، سري بن المغلس ، السقطي ، أحد كبار المتصوفة ببغداد ، وهو أول من تكلم ـ هناك ـ بلسان التوحيد وأحوال الصوفية . وهو خال الجنيد . توفي سنة 253 هـ - 867 م .

(214) ب ، ج : [illegible] .

(215) الموافقة لسنة 922 م .

(216) ج : وأنا كتمته .

(217) «الحلاج» : ساقط من (ج) .

(218) ب ، ج : في الركعة الأولى .

(219) سورة «البقرة» ، الآية : 155 . والآية بتمامها «ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس» .

(220) سورة «آل عمران» ، الآية : 185 . سورة «الأنبياء» ، الآية : 35 . سورة «العنكبوت» ، الآية : 57 .

(221) من «مستهلكة» حتى «على ناسوتيتي» : ساقط من (ب) .

(222) ب : مطالع .

(223) «به» : ساقط من (ج) .
(224) ب : شوقه .
(225) الضمير يعود على الله المفهوم من سياق الكلام .
(226) أي : عند اصحاب هذا المقام من الصوفية المجاذيب في حب الله .
(227) هو : أبو عبد الله محمد ، الجد ، المتوفي سنة 758هـ — 1357م .
(228) من بحر الوافر .
(229) «حلّ» : ساقط من (ب) .
(230) من البحر الطويل .
(231) ج : اذا .
(232) الغوث ــ رحمه الله ! ورضي عنه ! «ساقط من (ب) . و «رضي عنه» : ساقط من (ج) .
(233) من البحر الطويل .
(234) من البحر الطويل .
(235) ب : حقيقة .
(236) ج : الطائفية .
(237) الذاكر هو القشيري صاحب «الرسالة القشيرية» .
(238) ج : قلبه .
(239) «المكي» : ساقط من (ب) . وهو : ابو عبد الله ، عمرو بن عثمان بن كرب المكي الصوفي : كان عالما بالأصول الباطنية والظاهرية ، وله مصنفات عديدة في التصوف ، وأجوبة شتى . توفي سنة 291 هـ — 905م .
(240) ج : من .
(241) ج : يتمنوا .
(242) «الى» : ساقط من (ب ، ج) .
(243) الموافقة لسنة 1192م .
(244) من البحر الكامل .
(245) الشطر الأول مختل الوزن .
(246) الشطر الثاني مختل الوزن .
(247) ب : تبوح .
(248) «قال» : ساقط من (ب) .
(249) ب : ما لم .
(250) من البحر الطويل .
(251) «الكرج» ــ بفتح أوله وثانيه ــ : اسم لبعض القرى والأقاليم بفارس : أنظر «معجم البلدان» (كرج) .
(252) ب : قاسم .
(253) «الامام» : ساقط من (ب) .
(254) ج : ينفك (بدون واو العطف) .
(255) «اتخذ» : ساقط من (ب) .
(256)
(257) الموافق لأوائل القرن الثالث عشر للميلاد .
(258) ب : يتعرض .
(259 ، 260) ج : عمّن .

(261) هو : عبد العزيز بن أحمد بن سعيد ، الدميري ، المعروف بـ «الديريني» : أحد فقهاء الشافعية الزهاد . من مؤلفاته : «التيسير » في علم التفسير» . «الدرر الملتقطة ، في المسائل المختلطة» . «ارشاد الحيارى» . توفي سنة 694 هـ - 1295م .

(262) هو : أبو العباس ، أحمد بن يوسف بن الأقيطع (بالتصغير) ، المالكي : من مؤلفاته : «النخبة السنية ، في شرح القصيدة الهمزية» . «نزهة النظار ، في المواعظ والأذكار» . توفي سنة 1001 هـ - 1593م .

(263) هو : الشيخ علي بن عبد القادر النبتيتي المصري ، الأزهري : كان مشاركا في شتى العلوم ، ولا سيما علم الميقات والحساب . من مؤلفاته : «شرح الرَّحَبِيَّة» ، في الفرائض . «مطالع السعادة الأبدية ، في وضع الأوفاق والخواص الحرفية والعددية» . توفي سنة 1065 هـ - 1655م .

(264) «تعالى» : ساقط من (ب) .

(265) ج : الى .

(266) ب : وأدله .

(267) الموافق لأواخر القرن الثامن للميلاد .

(268) توفي سنة 180 هـ - 796م .

(269) هو : أبو ثور ، ابراهيم بن خالد بن ابي اليمان الكلبي البغدادي ، كان أكبر فقهاء عصره علما وورعا وفضلا . وهو صاحب الامام الشافعي . وكان مذهبه أكثر ميلا الى الامام الشافعي في جميع مؤلفاته . توفي سنة 240 هـ - 854م .

(270) هو : أبو الحكم ، منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن النفزي القرطبي البلوطي الوهاصي : قاضي قضاة الأندلس ، وفقيهها وخطيبها وفصيحها وشاعرها . من مؤلفاته : «الانباء ، على استنباط الأحكام من كتاب الله» . و «الابانة عن حقائق أصول الديانة» . و «الناسخ والمنسوخ» . توفي سنة 355 هـ - 966م . توفي سنة 595 هـ - 1199 م .

(271) المتقلد لمذهب الشافعي هو : أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي النحوي ، المتوفي بالقاهرة سنة 745 هـ - 1344م .

(272) ج : وكان الشيخ ...

(273) في جميع النسخ : عمر (والتصويب من كتب التراجم) .

(274) هو : أبو علي ، عبد العزيز بن عمران بن أيوب بن مقلاص الخزاعي المصري . كان فقيها زاهدا فاضلا ، وكان أحد كبار علماء المالكية ، فلما قدم الامام الشافعي مصر لزمه ، وتفقه عليه ، وأخذ بمذهبه ، حتى توفي سنة 234 هـ - 848م .

(275) توفي سنة 268 هـ - 882م .

(276) هو : أبو يعقوب ، يوسف بن يحي القرشي البويطي : أحد تلامذة الامام الشافعي ، والقائم مقامه في الدرس والافتاء ، بعد وفاته ، من مؤلفاته «المختصر» ، في الفقه ، اقتبسه من كلام الامام الشافعي . توفي سنة 231 هـ - 846م .

(277) ج : كان حنبليا ، ثم انتقل شافعيا (وهو خطأ ، والصواب ما اثبتناه في صلب الكتاب) .

(278) من «ومنهم السيف ...» حتى «كان حنبليا» : ساقط من (ج) .

(279) ب ، ج : كان حنبليا ، تفقه على الشيخ موفق الدين ، ودرس في مدرسته ، ثم تحول شافعيا وارتفع شأنه .

(280) في جميع النسخ : محمد بن الدهان (والتصويب من كتب التراجم) .

(281) «ثم تحول حنفيا» : ساقط من (ج) .

(282) من «ومنهم شيخ الاسلام ..» حتى«....بخمس سنين» : ساقط من (ج) .

(283) من «ومنهم ابن مالك» حتى «انتقل شافعيا» : ساقط من (ب) .

(284) في جميع النسخ : حنفيين . (والتصويب من قلمنا) .
(285) ج : وصدر بالجواز .
(286) ج : وأخذ .
(287) «به» : ساقط من (ب ، ج) .
(288) «رضي الله عنه» : ساقط من (ب) .
(289) «رضي الله عن الجميع» : ساقط من (ب) .
(290) «أيضا وقد» : ساقط من (ج) .
(291) ب : مجاهد ، رضي الله عن الجيمع ، وأرضاهم عنا وعن ذريتنا ، آمين ! آمين .
(292) ب ، ج : انقضت .
(293) الموافقه لسنة 1517م .
(294) ب ، ج : محي .
(295) الموافق لما بعد القرن الحادي عشر للميلاد بقليل .
(296) « علم الميزان » : هو علم المنطق الصوري .
(297) في جميع النسخ : الشلوب (والتصويب من قلمنا) .
(298) ج : على الخمر .
(299) هو : أبو عبد الله ، محمد بن أحمد بن مرزوق ، الحفيد ، المتوفى سنة 842 هـ - 1438 م .
(300) ج : واما .
(301) ج : عن الغالب .
(302) جاء في لفظ آخر : «أحلت لنا ميتتان ودمان : فأما الميتتان فالحوت والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطيحال» . (رواه البيهقي في «السنن» والحاكم في «المستدرك» ، وابن ماجه في «السنن») .
(303) سورة التغابن ، الآية : 15 .
(304) «بأن يشهد أنه وحده» : ساقط من (ج) .
(305)
(306) ب : من قال بالحلّ .
(307) ب : من قال بالتحريم .
(308) أي : ادخال شيء زائد على نص الشيخ على الأجهوري .
(309) من البحر الطويل .
(310) ج : عنها .
(311) «زيلع» ـ بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح اللام وآخره عين مهملة ـ: هم جيل من السودان في طرف أرض «الحبشة» . (أنظر معجم البلدان . مادة : «زيلع») .
(312) الموافق لأواخر القرن الخامس عشر للميلاد .
(313) «عليهم» : ساقط من (ج) .
(314) «لأنها» : ساقط من (ب) .
(315) «قال» : ساقط من (ج) .
(316) الموافقة لأوائل القرن السابع عشر .
(317) هو : كتاب «العمدة والارشاد» لأبي زيد ، عبد الرحمن بن محمد بن عسكر ، البغداديّ : أحد اعلام فقهاء المالكية في عصره . من مؤلفاته : «ارشاد السالك» في الفقه ، و «المقتبس من فوائد مالك بن أنس» . و «العمدة والارشاد» . و «جامع الخيرات» في الأذكار والدعوات» . توفي سنة 732 هـ - 1332 م .
(318) هي : المنظومة اللامية ، المسماة بـ «المنهج المنتخب» الى أصول غريب المذهب» ، أي : مذهب

الامام مالك بن انس . وقد شرحها أبو عبد الله ، محمد بن احمد بن محمد ، الفاسي المعروف بـ «ميارة» ، كما ذيلها بذيل ، سمّاه : «تكميل المنهج» وكانت وفاة ميارة سنة 1072 هـ — 1662 م . وصاحب المنظومة هو : أبو الحسن ، علي بن قاسم بن محمد التجيبي الفاسي ، المتوفي سنة 912 هـ — 1506 م .

(319) ج : أول الخمر .

(320) هو : محمد بن محمد العمادي ، المفسر المشهور . وقد تقدمت ترجمته .

(321) من البحر الهزج .

(322) هو : أبو العباس ، أحمد بن محمد بن محمد بن ناصر ، الدرعي ، صاحب «الرحلة الناصرية» وقد تقدمت ترجمته .

(323) هو : عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكون القسنطيني ، نسبة الى مدينة قسنطينة عاصمة الشرق الجزائري : أحد فقهاء عصره ومتصوفته : من مؤلفاته : «شرح شواهد الشريف على الأجرومية» . و «حوادث فقراء الوقت» . و «ديوان في المدائح النبوية» . و «رسالة تحريم الدخان» . و «شرح على منظومة البسيط والتعريف» في التصريف — لأبي زيد ، عبد الرحمن بن على بن صالح المكودي ، المتوفي سنة 807 هـ — 1405 م — وقد توفي عبد الكريم الفكون سنة 1073 هـ — 1663م .

(324) وقد ردّ بهذه «الرسالة» على أبي الإرشاد ، على بن محمد الأجهوريّ ، القائل بجواز شرب الدخان . وهو معاصر لعبد الكريم الفكون . توفي سنة 1066 هـ — 1656 م . وقد ألف العلماء في تحريم الدخان وتحليله زهاء ثلاثين تأليفا .

(325) «منه» : ساقط من (ب) .

(326) ج : انه يرشونه .

(327) «بالبول» : ساقط من (ج) .

(328) «وقال اللقاني بالتحريم» : ساقط من (ب) .

(329) «وكل» : ساقط من (ج) .

(330) من «وبما مر» حتى «من سكره» : ساقط من (ج) .

(331) «الشيخ علي» : ساقط من (ج) .

(332) لعله أحمد بن محمد بن علي الحسني القلعي ، المعروف بـ «الحسيمي» مؤلف «منهاج الكلام على آيات الصيام» و «العطايا الربانية ، على المواهب الربانية» . وغيرهما . وقد توفي سنة 1178 هـ — 1765 م .

(333) «انه» : ساقط من (ب) .

(334) الموافقة سنة 1602 — 1603م .

(335) سورة «الدخان» ، الآية : 10 .

(336) الموافقة لسنة 1603م .

(337) «على المشهور» : ساقط من (ب) .

(338) ج : انه .

(339) سورة «الأنبياء» ، الآية : 30 .

(340) «الحنيفة» : الحنفية ، وهي قناة الماء .

(341) «الدراوي» هكذا في جميع النسخ . ولعله تصحيف للفظه «الدرعي» . وهذا ما نميل اليه .

(342) من «الشيخ أحمد»

(343) حتى «القطب» : ساقط من (ب) .

(344) الموافقة لسنة 1704م .

(345) ب ، ج : في مائدة .

(346) لقد سبق للمؤلف ذكر هذه القصة بصفة اجمالية في « الباب الثالث » ، عند كلامه عن رحلته الى المغرب .

(347) القطر الجزائري يسمى مشرقا بالنسبة الى القطر المغربي .

(348) ج : ومن هو معه .

(349) ج : استحسنوا .

(350) ج : ان افعنا .

(351) ج : بالضرورة .

(352) ج : يتوقعه من جرت ...

(353) سورة « الأحقاف » ، الآية : 11 .

(354) ج : أي : الكفار قائلين .

(355) ج : وقلت له .

(356) « يا هذا » : ساقط من (ج) .

(357) ج : ما .

(358) الضمير يعود على مدينة « تيطوان » .

(359) أي : سلطان المغرب الأقصى ، مولاي سليمان العلوي المتقدمة ترجمته .

(360) ب : فأجبت أن في حديث مسلم .

(361) هو : أبو حفص ، عمر بن مكي بن عبد الصمد : كان أحد أعلام زمانه رواية ودراية ، وكان دينا ، متمسكا بعرى السلف . توفي سنة 691 هـ - 1292م .

(362) و (365) أ ، ب : المزني . (والتصويب من (ج) وكتب التراجم .

(363) سورة « البقرة » ، الآية 186م .

(364) سورة « الجن » ، الآية : 14 .

(366) هو : معقل بن يسار بن عبد الله المزني : صحابي جليل . أسلم قبل « غزوة الحديبية » ، وشهد « بيعة الرضوان » ، ثم سكن البصرة التي بها « نهر معقل » ، المنسوب إليه ، لأنه هو الذي حفره بأمر عمر بن الخطاب، رضي الله عنهما ! وتوفي معقل بالبصرة سنة 65 هـ - 685 م .

(367) هو : أبو اسحاق ، إبراهيم بن محمد المصمودي التلمساني أحد كبار الفقهاء المحققين ، والزهاد الصالحين والمشاركين في شتى الفنون عن دراية ويقين . توفي سنة 805 هـ - 1403 م .

(368) ج : وانتهاء رحلتي .

(369) سورة « الأعراف » ، الآية : 43 .

(370) ب : والله الموفق — إن شاء الله ! — لما يحبه ويرضاه بمنه وكرمه .

(371) ج : آمين ! آمين ! آمين ! .

الباب الخامس
المسمي بـ «العسجد والابريز»[1]
في عدة ما ألفت بين بسيط ووسيط ووجيز

القرآن — أولها : «**مجمع البحرين ، ومطلع البدرين ، بفتح الجليل ، للعبد الذليل ، في التيسير الى علم التفسير**» ، في ثلاثة أسفار . ما أبركها قربى : في كل سفر عشرون «**حزبا**»[2] ، طالما تكلّمت فيه ، نقلا من كتاب شيخ أو فيه مع الزمخشري والبيضاوي ، وابن عطية وغيرهم . فيالها من عطية . و «**تقييد على الخراز**[3] **والدرر اللوامع**[4] **والطراز**[5]» . **الحديث** — منه : «**الآيات البينات ، في شرح دلائل الخيرات**»[6] . بوصل اسانيده[7] المحذوفة ، في الكيفية والفضائل المألوفة ، الا ما قل وندر ، أو أعيد وتكرر ، وربما انجر الكلام الى تنبيهات وتتمات ، وفوائد من الحديث ، مهمات ، مما غفل عنه الشيخ المهدي[8] في شرحه[9] ، والشيخ العربي في حاشيته . و «**مفاتيح الجنّة وأسناها ، في الأحاديث التي اختلف العلماء في معناها**» . و «**السيف المنتضي ، فيما رويت بأسانيد الشيخ مرتضي**» (الزبيدي) . **الفقه** — منه : «**درّة عقد الحواشي على جيد شرحي الزرقاني والخراشي**» . في ستة اسفار . وقد[10] تكلمت فيها[11] مع علماء كبار ، منهم : الشيخان الراسخان الشامخان ، سيفا السنة الأمضى ، منحهما الله العفو والرضى : الفقيه الأصفى الشيخ مصطفى ، ومحشي الزرقاني ، محمد بن الحسن البناني ، بوأهما الله دار التهاني . و «**الأحكام الجوازل ، في نبذ من النوازل**» . و «**نظم عجيب في فروع ، قليل نصّها مع كثرة الوقوع**» . و «**الكوكب الدرّي ، في الرد بالجدري**» . و «**ما رواه الواعون ، في أخبار الطاعون**» . و «**النبذة المنيفة ، في ترتيب فقه أبي حنيفة**» . و «**المدارك في ترتيب فقه الامام مالك**» . **النحو** — منه : «**الدرّة اليتيمة**»

التي لا يبلغ لها قيمة ، ذات الأنقال التي أغزر من هاتون الديمة ، الشامخة القرى ، الحاشية الكبرى ، على شرح المكودي . وبها يفك ويقرأه و «**النكت/الوفية ، بشرح المكودي على الألفية**» . وهي الصغرى ، تكلمت فيهما مع الشراح النبلاء ، والمحشين الفضلاء ، واقتفيت الكل في البحث والصنيع ، وان كان الضالع لا يبلغ شأو الضليع . و «**عمدة الزهاد ، في اعراب «كلاشيء وجئت بلا زاد»** . و «**نفي الخصاصة في احصاء تراجم الخلاصة**» . **المذاهب** ـ منها : «**رحمة الأمة في اختلاف الأئمة** » . و «**تشنيف الاسماع ، في مسائل الاجماع** » . و « **جزيل المواهب ، في اختلاف الاربعة المذاهب** » . و «**قاصي الأوهاد ، في مقدمة الاجتهاد** » . **التوحيد والتصوف** ـ « **الزهر الأكم ، في شرح الحكم** [12] . أو « **فتح الاله ، في التوصل الى شرح حكم ابن عطاء الله** » . ـ والله يعيننا على اكماله ، بحق محمد وآله . وكتاب « **الحاوي لنبذ من التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوي** » . و « **كفاية المعتقد ، ونكاية المنتقد** » . على شرح « الكبرى » للشيخ السنوسي ، التي حشى عليها الشيخ الحسن اليوسي ، فكنت في سبيله أذهب ، وعلى قالبه أضرب . و «**شرح العقد النفيس ، في ذكر الأعيان من أولياء غريس** » . و « **شرح الجمان للشيخ عبد الرحمن** » . وكشف النقاب ورفع الحجاب ، عن أمثال سائرة ، وحكم باهرة ، ومواعظ زاجرة على ترتيب حروف الهجاء ، للسان الدولة ، وفارس الجولة ، ألهم لها وبادر ، السيد مسلم بن عبد القادر [13] . و «**التشوّف الى مذهب التصوف**» . اللغة ـ منها : «**ضياء القابوس** [14] ، **على كتاب القاموس**» . و «**ضابط**» ، اختصر من الازهري على «قواعد القاموس والجوهري» ، ولم يكمل الاول ، لقلة المواد ، الموصلة الى المراد . و «**رفيع** [15] **الأثمان ، في لغة** [16] **الولائم الثمان**» . **البيان** ـ **كتاب «نيل الأماني على مختصر سعد الدين التفتزاني»** . **المنطق** ـ كتاب «**القول المسلم ، في شرح السلم**» . حذوت فيه حذو أهل المعقول الجهابيذ ، وأهل الميزان الأساتيذ . **الأصول** ـ رزقني الله الحفظ والحصول لما بيضت على « شرح المحلي » والوصول ، لتسويد تلك الطروس ، لرجاء تبييضها في اليوم العبوس . **العروض** ـ منه : « **شرح مشكاة الأنوار ، التي يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار** » . لنظم الأرماز الوافي ، بعلم العروض والقوافي ، الذي كاد الخزرجي أن يجعله يزيزاء مجهل ، لولا الحسني ومالك بن المرحل ، فكيف بعلم يشرح ويمحي ، وهو كله ايماء ، فكان لشدة الايجاز ، أن يكون من الألغاز . التاريخ ـ منه : « **زهرة الشماريخ ، في علم التاريخ**» ، تكلمت فيه مع ابن خلدون وغيره . و « **المنى والمنى والسول ، من أول الخليفة الى بعثة الرسول**» . مع أخبار الجان ، كتحف درر ومرجان . و « **درّ السحابة ، فيمن دخل المغرب من الصحابة**» . و « **درّ الشقاوة ، في حروب درقاوة**» . أولها آخر صفر من سنة عشرين

ومائتين وألف [17] أجارنا الله من الفتن ، ما ظهر منها وما بطن . و « **المعالم الدالة الفرق الضالة** » . و « **الوسائل الى معرفة القبائل** » . و « النظم » المسمى بـ « احمد السندسية ، **فيما جرى بالعدوة الأندلسية** » . وشرحها الأول : « **القصص المعرب عن الخبر المغرب** [18] ، **عما وقع بالاندلس** [19] **وثغور المغرب** » . والثاني : « **غريب الاخبار ، عما كان بوهران والأندلس مع الكفّار** » . و « **روضة السلوان ، المؤلفة بمرسى تيطوان** » . و « **نباهة الغمر ، من أبناء العمر ، بأبناء ملوك ورؤساء ، ومن أحسن منهم ومن أساء** » . و **ذيل القرطاس ، في ملوك بني وطّاس** » . و « **الزهرة/الوردية ، في الملوك السعدية** » ، من سنة ثماني عشرة من القرن العاشر [20] الى سنة تسع وخمسين من الحادي عشر [21] . وكتاب « **مروج الذهب ، في نبذة من النسب . ومن انتمى إلى الشرف وذهب** » [22] . و « **الخبر المعلوم في كل من اخترع نوعا من انواع العلوم** » . **الأدب** — منه : « **النزهة الأميرية ، في شرح المقامات الحريرية** » ، فهو أصغر حجما ، وأغزر أدبا وعلما . و « **الحلل الحريرية ، في شرح المقامات الحريرية** » ، وهو الشرح الثاني الاكبر ، وأفخر كتب الأدب وأجدر ، ذو تحف وتحقيق وبيان ، وليس الخبر كالعيان ، اشتمل على باب الأدب ، وانسلّ اليه من كل حدب ، مع مواعظ مبكية ، ومضحكات ملهية . **القصائد** — منها : « **البشائر والاسعاد في شرح « بنات سعاد** » ، للشاعر الشهير ، الصحابي كعب بن زهير ، شرحتها شرحا سريا لطيفا ، تكلمت فيه مع ابن هشام وعبد اللطيف . و « **نيل الأرب ، في شرح « لامية العرب** » ، للفاتك الجاهلي الشنفرا ، و « **كل الصيد في جوف الفرا** » . و « **ازالة الوجم ، عن قصيدة « لامية العجم** » ، للرئيس الأديب الكاتب الطغرائي ، فكم شرحها من عالم ورواها من راو . و « **الوصيد في شرح « سلوانية الصيد** » [23] . و « **الدرّة الأنيقة ، في شرح « العقيقة** » [24] . والشرح [25] الثاني : « **طراز شرح المرداسي ، لقصيدة المنداسي** » . والشرح [26] الخامس : « **الحلة السعدية في شرح القصيدة/السعيدية** » . والشرح [27] السادس : « **أجمان في شرح قصيدة ابي عثمان** » . والشرح [28] السابع : « **نظم الأديب الحسيب ، الجامع بين المدح والنسب والتَّشْبيب** » [29] ، فليعتبر الذي من أهلها ، وقلّ من مدح رسول الله — ﷺ — بمثلها ، فهي سبعة شروح ، الا ترى أن الشيخ زروق شرح « **حكم ابن عطاء الله** » بضعة وعشرين شرحا . قال الشيخ أحمد بابا في « **غنية المحتاج** ، الى ذيل **الديباج** » : وقفت من تلك الشروح على الرابع عشر ، والخامس عشر ، والسابع عشر . و « **الرياض المرضية ، في شرح « الغوثية** » . وقد تكلمت مع مؤلفها في شرحه لها لما يشفي ويكفي . وقد قال الحكماء : « جواب أوضح لبسا ، خير من مال أغنى نفسا » .

وقالوا — أيضا — : «جواب يشفي خير من جلباب يودي» . وشرح «**قصيدة الكاتب**» الجليلة ، المسماة بـ «**الخليلية**» ، يحق لها التبويب أول الجريدة ، كقصيدة العماد الكاتب في «**الخريدة**» . و «**لب أفياخي ، في عدة أشياخي**» . و «**حلّتي**[30] **ونحلتي في تعدد رحلتي**» و «**الفوائد المخبتة ، في الأجوبة المسكتة**» . وبيضت لقصيدة أمريء القيس ، التي هي على القصائد كالرئيس ، بنقل عن أهل اللغة محكي ، التي مطلعها : «قِفَا نَبْكِ» ، وكذا «**مقصورة ابن دريد**» ، فضاعا قبل التسويد والله يعيننا على الخلف ، بجاه السلف . وان اكمل الله الأمنية بتراخي المنية ، أشرح «**صحيح البخاري**» ، بماء كالسيل الفسيح الجاري . وأتممت ذات الأكام ، بمشعر التمام ، وهي نبذة الزهر وأكامه في بدء أمري واختتامه . وانما عددت تآليفي ، وجملة تصانيفي اقتداء بالامام السيوطي ، فإنه عدّ ما ألف في كتابه/«**حسن المحاضرة ، في أخبار مصر والقاهرة**» ، فكانت نحو الثلاثمائة[31] ،من عشرة أجزاء الى ورقة[32] . وما أعلم أحداً أكثر التآليف — بعده — غيري : والكمال لله . وله المنة والحمد ، وجزيل الشكر . وكانت وفاته — رحمه الله ! — (ورضي عنه)[33] سحر ليلة الجمعة تاسع عشر جمادي الأولى سنة إحدى عشرة من القرن العاشر[34] . وقد استكمل من عمره (رحمه الله !)[35] إحدى وستين سنة وعشرة أشهر وثمانية عشر يوما . وكان له يوم وفاته (رضي الله عنه !)[36] مشهد عظيم (حفيل)[37] . **أقول** : وما عددت تآليفي ومدحتها[38] بالألقاب الا تحدثا بنعم الله تعالى ! لا فخرا ، وأي شيء[39] الدنيا الدنيئة ! حتى يطلب تحصيلها بالفخر ! وقد أزف الرحيل ، وبدأ الشهيب ، وذهب أطيب العمر ، ولا قوة الا بالله . و «آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين» . اللهم اغفر لكاتبه ، ووالديه ، وأشياخه ، وعامة المسلمين ، والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات[40] ، ولمن كان سببا في نسخه ، ووالديه ، بمنه وكرمه ! آمين[41] ! .

وكان الفراغ[42] من تسطيره وكتابته عشية يوم الأربعاء سابع عشر من جمادى الأولى على يد كاتبه ، أسير ذنبه الراجي عفو مولاه وشفاعة سيده أحقر العباد عبد ربه : محمد بن محمد الغماري نسبا ، الندرومي دارا ، أمنه الله وستره برحمته ! آمين ! انتهى وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى من عام 1281 (هـ– 1864م) .

* * *

هوامش

(1) من « الابريز) حتى « ووحيز » : ساقط من (ج) .
(2) ب : إثنا عشر حزبا .
(3) أي منظومة الخرّاز ، المسماة بـ « مورد الظمآن ، في رسم أحرف القرآن » ، من باب تسمية الشيء باسم صانعه . والخرّاز هو : أبو عبد الله ، محمد بن محمد الشريشي ، المعروف بـ « الخراز » . من مؤلفاته « شرح على الحضرمية » . و « شرح على البرية » . و « عمدة البيان » في القراءات . و« مورد الظمان ... » . توفي سنة 718 هـ - 1318 م .
(4) هو : « الدرر اللوامع ، في قراءة نافع » ، منظومة لمؤلفها أبي الحسن ، علي بن محمد بن علي الرباطي ، الشهير بـ « ابن بري » . توفي سنة 709 هـ .
(5) هو : « الطراز ، في شرح ضبط الخرّاز » ، لمؤلفه أبي عبد الله ، الشيخ محمد بن عبد الله بن عبد الجليل بن عبد الله التنيسي .
(6) هو : دلائل الخيرات ، وشوارق الأنوار ، في ذكر الصلاة على النبي المختار » ، لمؤلفه أبي عبد الله الشيخ محمد بن سليمان بن أبي بكر الجزولي ، السملالي الحسني ، المتوفى سنة 870 هـ - 1113 م .
(7) ج : الأسانيد .
(8) هو : أبو عيسى ، محمد المهدي بن أحمد بن علي بن يوسف الفاسي : أحد كبار المؤرخين والمحدثين في عصره . توفي سنة 1109 هـ - 1698 م .
(9) المسمى بـ « مطالع المسرات ، بجلاء دلائل الخيرات » .
(10) « وقد » : ساقط من (ب) .
(11) ب : فيه .
(12) أي : « الحكم العطائية » ، لمؤلفها أحمد بن عطاء الله السكندري ، المتقدمة ترجمته .
(13) هو : مسلم ـــ بكسر اللام المشددة ـــ بن عبد القادر ، الوهراني : كان في ريعان شبابه يشغل منصب « خوجة » للاغة المزاري ، أحد أغوات « المخزن » بوهران على عهد حكم الأتراك ، ثم ثقز به حزمه إلى منصب « باش كاتب » ، لدى الباي حسن آخر بايات وهران ومن مؤلفاته : « أنيس العريب والمسافر ، في طرائف الحكايات والنوادر » . و« عقد الجواهر ، في مدائح أبي المرتضى (حسين باشا) ومحاسن الجزائر » . توفي حوالي سنة 1248 هـ - 1832 م .
(14) ج : القاموس .
(15) ج : رفع .
(16) ب : في اللغة .
(17) الموافقة لسنة 1805 م .
(18) ــ عن أخبار [illegible]

(19) في الأندلس .
(20) الموافقة لسنة 1512 م .
(21) الموافقة لسنة 1649 م .
(22) ج : ومن إلى الشرف انتمى وذهب .
(23)
(24) تقدمت ترجمة صاحبها .
(25) ، (26) ، (27) ، (28) « والشرح » : ساقط من (ب) .
(29) ج : والتشبيب والتشنيب .
(30) ج : وجلتي (بجيم معجمة) .
(31) ب : نحو ثلاثمئة وعشرة .
(32) « من عشرة أجزاء الى ورقة » : ساقط من (ب) .
(33) و (34) و (35) و (36) الزيادة من (ب) .
(37) الموافقة لسنة 1505م .
(38) ب ، ج : ومدحها .
(39) ب : أو أي شيء .
(40) الزيادة من (ج) .
(41) الى هذا انتهى نص المؤلف .
(42) ب : وكان الفراغ من تسطيره وكتابته ضحوة يوم الاثنين ، ثاني عشر رجب الفرد سنة 1298 (هـ - 1881م) على يد كاتبه : محمد بن محمد بن علي ، الوجدي نسبا ، ثم الادريسي ، أمنه الله ! . استودع كاتبه هذه الشهادة : أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمد رسول الله ، ﷺ ، وعلى آله . ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . انتهى ، وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى . « وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين » . اللهم اغفر للكاتب والكاسب ! أمين !
(43) ج . وكان الفراغ من تسطيره وكتابته عشية يوم الخميس وفق أوائل جمادي الأولى عام 1298 هـ - 1881 م ، ثمانية وتسعين ومائتين وألف ، على يد كاتبه : عبيد ربه محمد بن محمد بن علي ، لمالكه أخينا في الله : الفقيه البركة السيد عبد الرحمن نجل البركة العظمى الشيخ المنور قاضي « سيدي أبي العباس » . لطف الله بالجميع . آمين ! والحمد لله على كماله واتمامه . والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ! وعلى آله وأصحابه . وقد انتهى من تحقيق هذا الكتاب محمد بن الطاهر بن أحمد بن محمد بن العربي بن عبد الكريم ، الزموري منشأ ، الجزائري جنسية ، وذلك في الساعة السابعة إلا الربع من مساء يوم الجمعة 14 ذو الحجة سنة 1397 هـ - 25 نوفمبر 1977 م . وحسبنا الله ونعم الوكيل في كل ما كان وما يكون .

محتوى الكتاب

صفحة